

المشروع القومي للترجمة

المركز القومي للترجمة

القضية

فرانتس كافكا

ترجمة وتقديم: مصطفى ماهر

ميراث الترجمة

1344



تأليف : فرانتس كافكا

ترجمة وتقديم : مصطفى ماهر



٢٠٠٩

القضيــة

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
المشرف على السلسلة : طلعت الشايب
- العدد : ١٣٤٤
- القضية
- فرانتس كافكا
- مصطفى ماهر
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة رواية :

Der Process

von Franz Kafka

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كافكا، فرانتس، (١٨٨٣-١٩٢٤)
القضية / تأليف: فرانتس كافكا؛ ترجمة وتقديم: مصطفى ماهر؛
القاهرة : المركز القومى للترجمة، ٢٠٠٩
٣٠٠ ص ؛ ٢٠ سم
١- القصص الألمانية
(أ) ماهر، مصطفى (مترجم ومقدم).
(ب) العنوان ٨٣٣

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٠٣٠٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 253 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

مقدمة

بقلم : دكتور مصطفى ماهر

يرجع الفضل فى التفكير فى التعريف بفرانتس كافكا وأعماله الى الأديب والناقد الكبير الزميل الأستاذ محمود أمين العالم ، فما ينبغى أن أبدأ هذه المقدمة الموجزة الا بالتنويه بهذا الفضل ، وبرده الى صاحبه. ولقد حثنى الأستاذ محمود أمين العالم لا على ترجمة أعمال كافكا فحسب ، بل وعلى الكتابة عن كافكا أيضا . وأعتقد انني استطيع أن أقول اليوم أننى بدأت السير فى الطريقين معا ، فقد كتبت لمجلة «تراث الانسانية» مقالا مفصلا نسبيا تعرضت فيه لجوانب من حياة كافكا وأفكاره وأعماله ولرواية «القضية» بصفة خاصة ، وأقدم اليوم هذه الترجمة الكاملة الأمينة الدقيقة لرواية « القضية » التى تعتبر من أشهر أعمال كافكا ، ان لم تكن أشهر أعماله كلها . ولست أريد أن اكرر فى هذه المقدمة ما سبق أن كتبته فى المقال المذكور ، ولهذا فاننى أحيل القارىء اليه ، وأكتفى بتلخيص لوقائع حياة كافكا وأعماله انتقل منه الى تأملات أخرى فى «القضية» لم أتعرض لها فى مقالى .

لابد للكاتب المنصف الذى يتعرض لتصوير حياة فرانتس كافكا وأفكاره أن ينبذ الكثير مما كتب عن الأديب العظيم ، ويتمسك تمسكا لاهوادة فيه بانسانيته ، تلك الانسانية التى جعلت منه عنصرا أساسيا

من عناصر الثقافة فى القرن العشرين فى كل البـــلاد ، بالمشرق والمغرب. تلك صورة لامحيص عنها، لأن نفرا من المتأدبين المغرضين من اليهود وغيرهم قد نشبوا أظفارهم فى كافكا وأعماله ، فنهبوها نهبا ، أو حرفوها فى نصها أو تأويلها ، واستحوذوا عليه استحواذ الطائر الكاسر أو الحيوان المفترس على الفريسة ، متعللين بأن فرانتس كافكا من أبناء جلدتهم ، وهو فى كل سطر من سطور أعماله العامة والخاصة يتبرأ منهم .

ولد فرانتس كافكا فى مدينة براغ فى الثالث من شهر يولية عام ١٨٨٣ ، ولم تكن براغ فى ذلك الوقت عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، لأن الجمهورية التشيكوسلوفاكية لم تنشأ الا بعد الحرب العالمية الأولى . كانت براغ فى ذلك الوقت تجمع بين مجموعتين من البشر ، مجموعة تتكلم اللغة التشيكية وهى المجموعة الكبيرة ، ومجموعة تتكلم اللغة الألمانية وهى المجموعة الصغيرة التى لاتصل الى عشر العدد الكلى للسكان. وكانت تلك المجموعة الألمانية تعتبر هى الطبقة الرفيعة التى تجتذب الأنظار اليها . وقد اجتذبت أنظار والد فرانتس كافكا ، الذى كان تشيكى الأصل ـ اعتبارا للغة ـ فسعى الى تحقيق الصـــعود الاجتماعى عن طريق الاندماج فى هذه الطبقة ، باصـــطناع لغتها وثقافتها وأسلوبها . وانما سعى الأب الى ذلك لأنه كان من أصـــل وضيع ، كان ابن جزار فقير يسعى بالذبائح الى الزبائن ويعتمد على أولاده فى هذا السعى .

وانتقل هرمن كافكا ، أبو فرانتس (وكلمة كافكا كلمة تشيكية معناها غراب أو نحو ذلك) ، الى المدينة، الى براغ، وتزوج واحدة من بنات الطبقة الألمانية الغنية واحترف التجارة ، وأصاب منهـــا ثراء غير قليل . ولكن الحياة التى أتاحها لأولاده ، ولفـــرانتس خاصة كانت حياة ثقيلة ، عسيرة ، تفتقر الى الاعتدال والاستواء ، فنشـــأ

الابن ثائرا على أبيه وعلى أفكاره ، قليل الصلة بأمه ، التى كانت مضطرة الى الذهاب الى متجر زوجها للحيلولة بينه وبين الاصطدام بالعمال . ويبدو أن فرانتس ورث شيئا من العصابية عن أفراد غير أسوياء ، كانت الأسرة من جانبيها تغص بهم . وهكذا أصبحت السمة الغالبة على شخصية فرانتس كافكا سمة الهروب الى الأحلام التى مالبثت أن اتخذت صورة القالب الفنى ، وامتلأ هذا القالب الفنى بمواد مختلفة أهمها مادة الخوف ومادة السعى الى الاصلاح.

وتعلم فرانتس فى المدرسة الألمانية ببراغ فأتمها فى عام ١٩٠١ وفكر فى دراسة الفلسفة ولكن اباه حال بينه وبين تنفيذ هذه الفكرة، ووجهه الى دراسة القانون حتى يصبح موظفا مرموقا فى الحكومة . وهكذا درس القانون ، وان اهتم الى جانب محاضراته بمحاضرات أخرى فى الفلسفة وعلم النفس وتاريخ الفنون . وفى عام ١٩٠٦ حصل فرانتس على الدكتوراه فى القانون وأمضى عامافى التدريب بالمحاكم ، فلم أتمه اشتغل فى « شركة التأمينات العامة » ، وانتقل منها فى عام ١٩٠٨ الى العمل فى «مؤسسة التأمين على العمال ضد الحوادث » وظل بها يترقى الى أن وصل فى عام ١٩٢٢ الى منصب سكرتير أول المؤسسة ، حيث اضطر بسبب المرض الى الى الاستقالة . ولم يكن هذا المرض سوى السل الذى ظل يشتد حتى فتك به فى الثالث من يونية عام ١٩٢٤ وعمره يقل عن ٤١ سنة بشهرواحد .

ويلفت النظر فى حياة فرانتس كافكا أنه كان قليل الترحال ، فقد لزم براغ ولم يغادرها الا بعد المرض للاستشفاء خاصة ، ويلفت النظر بعد ذلك انه كانت شديدة الحيرة لا يستطيع أن يقرر الزواج والاستقرار ، رغم تكرر اعلانه خطبته على هذه أو تلك من البنات وقد عرف كافكا الحب فى علاقته بفيليتسه باوز التى التقى بها فى

عام ١٩١٢ وخطبها مرتين دون وصول الى زواج . وعرف امرأة أخرى هي جريته بلوخ ، كانت صديقة لفيليتسه باور ، وثالثة هي يوليا فوريتسك التي أوشك في عام ١٩١٩ على الزواج بها ولم يرده هذه المرة الا تأكد اصابته بالسل الرئوي ، وكذلك كانت له علاقة وثيقة بامرأة تشيكية مطلقة هي ميلينا يزينسكا ، هامت به هياما يقوم على الاعجاب ، واضطره المرض الى ردها . أما آخر صديقة اتخذها فكانت دورا ديامنت التي عاشت معه أحلك أيام حياته من عام ١٩٢٣ الى ١٩٢٤ في برلين الى أن مات فكانت بجواره . على أن موقف فرانتس كافكا من المرأة كان موقفا يجمع بين الميل والاعراض والاحتقار ، أما الأعراض فربما كان سببه افتقاره في طفولته الى حنان أمه التي تركته لرعاية المربية أو الطاهية ، وأما الاحتقار فسببه ، كما ورد في يومياته وخطاباته ، علاقات منفرة سمح لنفسه بها مع بعض العاهرات .

***

يبدو ان فرانتس كافكا بدأ يعالج الكتابة باهتمام خاص منذ عام ١٨٩٧/١٨٩٨ وما زال يقيم عليها حتى اعتبرها بعد قليل اهتمامه الأول ، الذي تصيبه التعاسة كل التعاسة اذا انصرف عنه . على أن عام ١٩١٣ هو العام الحاسم في نشاطه الأدبي ، فقد بدأ فيه انتاجه الضخم . كان في الفترة من عام ١٩٠٨ الى ١٩٠٩ قد نشر في مجلة « هيبريون » قصصا هي : الأشجار ـ الثياب ـ الطرد ـ التاجر ـ تطلع تائه ـ الطريق الى البيت ـ العابرون ـ المسافر ـ أجزاء من وصف معركة . وبدأ في عام ١٩١٣ ينشر اما في دار رواقولت أو في دار فولف ، الأعمال التي ظهرت له اثناء حياته : تأمل ـ العطشجي ـ التحور ـ الحكم ـ في معسكر العقاب ـ طبيب ريفي ـ فنان جائع .

أما أعماله الكبيرة فلم تظهر الا بعد وفاته ، وقد حفظ مخطوطاتها بعض الأصـــدقاء على الرغم من أن فرانتس كافكا كان قد أوصى باعدامها ، لأنها ـ على الأرجح ـ لم تكن فى نظره مكتملة . والعلماء والنقاد يشكون فى الطبعات التى ظهرت بعد موت كافكا ألوانا من الشك ، كبيرة وصغيرة . أما هذه الأعمال فهى : القضية ـ القصر ـ أمريكا ـ عند بناء سور الصين ـ أمام القانون . وقد ظهرت مؤلفات كافكا الكاملة أكثر من مرة ، وزادت فى السنوات الماضية بظهـور اليوميات والخطابات ، ومن الخطابات ظهر مجلد ضخم هـذا العام ـ ١٩٦٧ ـ يضم رسائل كافكا الى فيليتسه باور .

الرواية فى تصور كافكا تدور فى مجموعها وسط اطار من الحلم أو الخيال أو اللاواقع وتقوم فى عناصرها ووحداتها على الواقع ، انها قالب من اللاواقع مضمونه الواقع . والانسان يحتل من مؤلفات كافكا مكان المركز ، أو بعبارة أخـرى مؤلفات كافـكا عبـارة عن محاولة لدراسة الانسان فى وسط البيئة ومؤثراتها المختلفة ، محاولة دراسة أعلى درجة من محاولات المدرسة الطبيعية التى كان جل همها مركزا على البيئة ومؤثراتها بالمعنى المعروف فى العـلوم الطبيعية ، ونقول أعلى درجة لأن كافكا أضاف الى هذه المؤثرات مجموعة المؤثرات النفسية ، وأبرزها الى مكان الصدارة . ومادامت نية الكاتب هى الدراسة على هـذا النحو ، فمن الطبيعى أن تكون الأشخاص من قبيل « الحالات » المريضة ، الحـالات غير السوية غير المتكيفة مع البيئة . وهذا هو الواقع الذى نلقاه فى أدب كافكا . أدب كافكا يدور حول الانسان الذى أثرت عليه البيئة النفسية غير السوية ، والعوامل النفسية الأخرى ، فجعلته حالة غير سوية .

ولقد لمس فرانتس كافكا فى تحليله وتشريحه للنفس الانسانية ، معتمدا على خبراته الشخصية بصفة أساسية طبعا ، أن الخـوف هو آفة الكائن البشرى الأولى . والانسان بطبيعتـه يعيش مع

آخرين، وهو يحكم على هؤلاء الآخرين، وهم يحكمون عليه أحكاما صغيرة وكبيرة لاتنقطع، وتتسم هذه الأحكام بالسرية لأنها متوارية بين خلايا المخ، خلف عظام الجمجمة لايستطيع كائن من كان أن ينفذ اليها ، وهكذا أصبح كل انسان معرضا لمجموعات كبيرة من الأحكام المجهولة يتخذها الآخرون حيال تصرفاته ، فاذا ماكان الانسان بطبيعته متردداهيابا الى درجة مرضية، أصبح يحس كأنه مذنب وكأن البيئة بمن فيها وبما تقاضيه وتحاكمه .

ولما كنا قد تعرضنا من قبل ، فى المقال المشار اليه ، الى المذهب السيكولوجى لفرانتس برنتانو ، ذلك المذهب الذى تأثر به كافكا ؛ وتأثر خاصة بتقسيمه الظواهر النفسية الى تصورات وأحكام وانفعالات ، فاننا لانريد أن نفصل ذلك من جديد هنا . كل مايهمنا أن نؤكده فى هذه المقدمة ، أن توقف فرانتس كافكا عند الحلقة الوسطى من هذا التقسيم وهى «الأحكام» كان توقفا له ما يبرره . فقد كان من ناحية يدرس القانون ، راغبا أو راهبا ، وما القانون الا ميدان الأحكام الأول ، وكان من ناحية ثانية ، بحكم خبراته الشخصية الأليمة فى أسرته ، يميل الى الأخذ بأن حياته تأثرت تأثرا كبيرا بأحكام الآخرين ، وأحكام أبيه خاصة .

وتبلورت كل هذه الخبرات والمعلومات فى هذا الكابوس الروائى أو الرواية الكابوس « القضية » . انسان اسمه يوزف ك (اقرأ «كا» بألف مفخمة !) يعيش فى بنسيون ويعمل وكيلا فى بنك ، تفاجئه محكمة من نوع غير مألوف ، فترسل اليه من يعتقله ويتركه رغم الاعتقال طليقا ، ثم تدعوه الى الاستجواب أو الى التحقيق ؛ دون أن يعلم الذنب الذى ارتكبه . ويحاول الدفاع عن نفسه معتمدا على محام مرة وعلى وساطة الوسطاء مرات وعلى نفسه

احيانا ، فلا يصل الى نتيجة . وينتهى ذات يوم على يد اثنين من المحكمة يقتلانه بحكم لم يره، صادرمن فائض لم يعرفه ، ولذنب لا يعلمه . — أين هذا الانسان الحائر ؟ أين موضعه من الزمان والمكان ؟ لا ندرى على وجه اليقين . فرانتس كافكا لايحدد زمنابعينه ولايحدد مكانا بعينه . انه يترك هذين البعدين بلا تحديد ، وهو يهدف من وراء ذلك الى التأكيد على عمومية المشكلة أو المشكلات التى يتعرض لها . ليست محنة يوزف ك محنة انسان معين فى ظروف معينة ، بل هى محنة الانسان اذا احاطت به مثل هذه الظروف . على اننا نستطيع أن نقول أن زمن الأحداث لايمكن أن يكون سابقا على عصر كافكا ولا متأخرا عليه بكثير ، ونعتمد فى ذلك على تفصيلات مثلا استعمال السيارة والتاكسى والاضاءة بالنور الكهربائى . أما المكان فهو مكان تظله الثقافة المسيحية الأوروبية . فاذا استعرضنا فصل « الكنيسة » ، تبيننا أن يوزف ك يرسم الصليب ، وتبيننا أنه يصف مناظر مسيحية تمثلها اللوحات الفنية التى تزدان بها الكنيسة ، اذن فيوزف ك شخص مسيحى ، والثقافة التى تظله ثقافة مسيحية أو قل كاثوليكية استنتاجا من الصور . أما الفصل الذى يلتقى فيه يوزف بالمصور تيتوريللى ، فيحملنا على الاعتقاد بأن هذه الثقافة هى الثقافة الغربية ، اعنى الثقافة التى ورثت علوم الاغريق والرومان وصبغتها بالمسيحية ، وقد رمز اليها بربة العدالة المعصوبة العينين، حاملة الميزان ، وبربة النصر وبربة الصيد . ومادمنا قد تمكننا من هذا التحديد ، فينبغى أن نحصر هدف فرانتس كافكا فى حدوده ونقول انه يصور محنة الانسان فى مطلع القرن العشرين ، بعدالبخار والكهرباء ، وفى مكان ما تظله الثقافة المسيحية الغربية .

ولعل القارىء يتساءل عن المحكمة السرية ويدهش لبراعة فرانتس كافكا فى ابتكارها . والحق ان أوروبا عرفت المحكمة السرية فى ثقافتها حتى عصر النهضة ، وكان للمحكمة السرية فى المانيا خاصة نشاط

كبير الى ان اعلن الامبراطور كارل الخامس عدم شرعيتها فى القرن السادس عشر ، واصلح نظام التقاضى فتقلص نشاطها ، وان ظل نفر من العلماء يعتقدون أنها استمرت تمارس نشاطها الى وقت قريب. وكانت هذه المحكمة تتكون من قضاة لايعرف بعضهم بعضا ، يجتمعون فى كهوف ويبحثون القضايا التى تصل أخبارها الى أسماعهم ، ويقضون فيها بأحكام يقسمون على تنفيذها ، ومن بينها احكام بالقتل . (تعرضنا لهذه المحكمة فى مقدمة ترجمتنا لمسرحية « جوتس فون برليشنجن » لجوته ، وهى تحت النشر) لا شك أن فرانتس كافكا كان يعلم بهذه المحكمة ، من دراسته لتاريخ القانون، ومن قراءته لمسرحية جوته المشار اليها . وهو فى حديثه عن المحكمة فى رواية القضية لايقصد بطبيعة الحال هذه المحكمة ، ولكنه استفاد من تفصيلات معينة عنها ، أهمها سريتها ، وانعقادها فى أماكن لا يتواقع الانسان أن تعقد فيها محاكم . وليس من شك فى أن فرانتس كافكا تأثر فى تكوين عنصر المحكمة فى هذه الرواية بمعلومات وصلته عن منظمة الماسونية ، أو جماعة البنائين الأحرار ، تلك الجماعة التى صدرت قبيل الحرب العالمية الأولية وفى أثنائها وبعدها كتب كثيرة تتهمها بأنها هى التى دبرت الحرب ، وتتهمها بأنها تقيم شرطة ومحكمة وما الى ذلك الى جانب مؤسسات الدولة النظامية .

قلنا أن رواية كافكا هى قالب من اللاواقع مضمونة الواقع . ويمكننا أن نقول على أسلوب كافكا انه أسلوب قالبه الهزل ومضمونه الجد . والجد عند كافكا هدفه الاصلاح ، اصلاح البيئة من كل نواحيها . وما أكثر المشكلات التى يتعرض لها فى هذه الرواية !

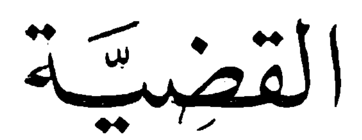
يستدرجنا قالب اللاواقع مثلا ونحن نتتبع يوزف ك عندما يذهب الى المحكمة لأول مرة ، انه لايعرف مقرها بالضبط ، وانه ليخجل من السؤال عنها ، فيسأل اعتباطا عن نجار اسمه لانتس لا وجود له الا فى خياله ، وتكون النتيجة انه يصل فعلا بهذه الوسيلة الى مقر

المحكمة . هذا هو اللاواقع . وهذا هو الهزل . اما الواقع والجد فتجده في الكلمة التي يلقيها في المحكمة . تجده في تعليقه على الاجتماع الموتور بقاعة المحكمة ، بأنه كاجتماع الأحزاب السياسية المتآمرة ، التي تسلك سبل المناورة للوصول الى أغراضها .

فرانتس كافكا يصطنع الهدوء ليدفع الى الثورة . وهو ينقد مناهج التفكير الهدامة التي تهتم بالأمور الثانوية وتترك الأمور الرئيسية ، التي تتعلق بالظاهر وتترك الجوهر . والانسان عندما يفرغ من قراءة رواية القضية يثور على يوزف ك ، لأنه أسرع بالانصراف عن جوهر محنته وعكف على أمور ثانوية . كان المفروض أن يتمسك بمعرفة الذنب ، فكيف تقوم قضية بلا ذنب ؟ وفرانتس كافكا ينتقد الجهاز البيروقراطي ، ويبرز عيوبه من رشوة واستهتار وكسل أو نشاط بلا وعي . في يوم من الأيام يأتي رجلان يقبضان عليه دون أن يكون في استطاعتهما أن يبررا أمامه تصرفهما بغير الاشارة الى أمر صادر اليهما بذلك . وقد ظل يوزف ك الى النهاية لايعلم من أمره شيئا لأن النظام البيروقراطي لم يمكنه من الوصول الى من بيده الخبر اليقين . . والنظام البيروقراطي انما يشتد فساده ، كما نتبين في فصل الجلاد ، لأن الناس يسكتون على العيوب ولا يشكون منها . ويكثر فرانتس كافكا من نقد نظام التقاضي ، ومن صعوبة الوصول الى العدل ، تارة لفساد المحامين ، وتارة لفساد القضاة ، وتارة لكثرة القوانين وشروحها وتضاربها أو تداخلها ، وتارة أخرى لبعد المحكمة وموظفيها عن حياة الناس . ولاشك أن المدة التي قضاها في ردهات محاكم براغ في ذلك الوقت أمدته بثروة الخبرات في هذا السبيل . - وهذه العيوب وغيرها يزيح فرانتس كافكا الستار عنها ، ويضم نقده لها في اطار مفهومه الاشتراكي ، الذي يرفض أن يكون القوي متحكما

في الضعيف، أو أن يكون الفقير نهباللغنى، أو أن يكون المجتمع منقسما الي اقليل من المرفهين وكثير من المعوزين . ويكفيك التبصر فى مناظر البؤس التى يعرضها أمامك ، ويكفيك التمعن فى صورة علاقة كعلاقة رجل الصناعة بالمصور أو كعلاقة قاضى التحقيق بخادم المحكمة ، لتحكم على مدى ايمان فرانتس كافكا بحتمية الاصلاح الاجتماعى والسياسى والثقافى ، وحتمية الاشتراكية .

دكتور مصطفى ماهر


القضيَّة

الفصل الأول

• اعتقال
• حديث مع السيدة جروباخ
• ثم الآنسة بورستنر

لابد أن أحدا كاد ليوزف ك لأنه اعتقل ذات صباح دون أن يكون قد اقترف ذنبا . لم تأت طباخة السيدة جروباخ التى يستأجر حجرة لديها ، هذه المرة ، وكانت تأتيه كل يوم فى نحو الساعة الثامنة بطعام الافطار . ذلك شىء لم يحدث من قبل قط . وانتظر ك هنيهة وتطلع ، ورأسه ما تزال على المخدة الى المرأة العجوز التى تسكن قباله والتى راحت ترقبه بفضول لم يعهده فيها من قبل . ثم دق الجرس مندهشا ، جائعا فى وقت واحد . وسرعان مادق أحدهم الباب ، ودخل عليه رجل لم يكن قد رآه فى المسكن قط من قبل .

كان هذا الرجل أهيف القامة ، ولكنه كان مع ذلك قوى البنيان ، وكان يلبس ثوبا أسود اللون به ثنيات مختلفة وجيوب وأربطة وأزرار وحزام كبدل السفر ، ثوبا يبدو نتيجة لهذه الأشياء التى زود بها عمليا جدا دون أن يتضح للمرء تماما فيم يستخدم .

وسأله ك وقد اعتدل قليلا فى فراشه من فوره :

ـ من أنت ؟

ولكن الرجل أهمل السؤال ، وكأنما كان ينبغى على الناس أن يقبلوا ظهوره هكذا بلا تساؤل ، واكتفى بالقول : لقد دققت الجرس ؟

وقال ك :

ـ لتأتى (أنه) الى بالافطار .

وحاول فى أول الأمر صامتا بالانتباه والتفكير أن يتبين من يكون هذا الرجل . ولكن هذا الرجل لم يستسلم مدة طويلة لنظراته ، بل اتجه الى الباب وفتحه قليلا ليقول لشخص كان على ما يبدو بجواره :

ـ انه يريد أن تأتيه أنه بالافطار .

وتبع هذا ضحك قليل فى الحجرة المجاورة لم يتأكد من نبرته هل صدر عن واحد أو اشترك فيه كثيرون . وعلى الرغم من أن الرجل الغريب لايمكن أن يكون قد عرف على هذا النحو شيئا لم يكن يعرفه من قبل ، فقد قال لـ ك فى صيغة البلاغ :

ـ هذا محال !

فقال ك : هذا شىء عجيب .

ثم اقفز من فراشه ولبس بنطلونه على عجل .

ـ لابد أن أرى من بالحجرة المجاورة وأعرف كيف تسمح السيدة جروباخ بهذه المضايقة الموجهة الى .

وخطر بباله على الفور أنه ما كان ينبغى عليه أن يقول هـــذا بصوت عال ، وانه بقوله هذا قد اعترف على نحـــو ما بحق هذا الشخص الغريب في مراقبته ، ولكنه تبين أن هذا شيء ليس له أهمية . الا أن الشخص الغريب فهم الأمر على هذه الصــورة لأنه قال :

ـ أليس الأفضل أن تبقى هنا ؟

فرد ك : لا أريد أن أبقى هنا ، ولا أريد أن تحدثنى مادمت لم تقدم نفسك الى .

وقال الرجل الغريب : كان قصدى خيرا . ثم فتح البـــاب بارادته .

فلما دخل ك الحجرة الجانبية كما أراد ، وجدها لأول وهلة تبدو كما كانت تبدو فى المساء السالف . كانت تلك الحجرة حجرة المعيشة فى بنسيون السيدة جروباخ ربما كان اليوم فى هذه الحجـــرة المتلئة بالأثاث والأغطية والصينى والصور الفوتوغرافية فى سرف قليل من المكان البارح أكثر مما كان بها فى المعتاد ، ولكن الانسان لم يكن ليتبين هذا على الفور ، خاصة وأن التغير الكبير فى الحجـرة كان يتمثل خاصة فى وجود رجل جلس الى النافذة المفتوحة بكتاب فى يده ، رفع الآن عيناه عنه . وقال :

ـ كان ينبغى عليك أن تبقى فى حجرتك . ألم يقل فرانتس لك هذا ؟

فقال ك : هه ، ماذا تريدون اذن ؟ وانتقل ببصره من الرجل الذى عرفه لتوه ، الى ذلك الذى يحمل اسم فرانتس ، وكان لايزال واقفا بالباب .

وكان الناظر من النافذة المفتوحة يرى المرأة العجـــوز التى أقبلت ناحية النافذة المقابلة بفضول العجـــائز مرة أخرى لترى الرجلين الأم تصير الأمور . وقال ك :

ـ أريد السيدة جروباخ ٠٠ وأتى بحركة كأنه يتملص من الرجلين اللذين كانا يقفان على بعد ،واراد أن ينصرف ٠ ولكن الرجل الواقف عند النافذة قال : لا ـ وألقى الكتاب فوق منضدة صغيرة وهو واقفا ، ثم أكمل : ليس لك أن تنصرف ، فأنت معتقل .

فقال ك :هذا هو ما تصورته ـ ثم سأل : ولماذا اذن ؟

ـ ليس من شأننا أن نقول لك هذا . اذهب الى حجرتك وانتظر . لقد بدات الاجراءات وستعلم كل شيء فى الوقت المناسب . وأنا أتجاوز مهمتي عندما أتحدث اليك بلطف ولكني آمل الا يسمعني وأنا اتلطف معك أحد غير فرانتس ، وهو كذلك يتطلف معك ضد الأوامر . واذا كان الحظ العظيم سيظل مواتيا لك كما واتاك فى اختيار حارسيك، فلك أن تامل خيرا .

وأراد ك أن يجلس ولكنه تبين أن الحجرة ليس بها شيء يجلس عليه الا الكرسى الوثير عند النافذة ٠

وقال فرانتس : سترى مدى صدق هذا كله .

واتجه فى نفس الوقت مع الرجل الآخر نحوه . كان هذا الرجل الآخر خاصة أطول قامة من ك بشكل واضح . وربت هذا الرجل على كتفه كثيرا . وتفحص الاثنان جلباب نوم ك وقالا له انه سيكون عليه بعد الآن أن يلبس جلبابا أقبح من هذا بكثير، ولكنهما سيتحفظان على هذا الجلباب وعلى بقية الملابس ، وأضافا انهما سيعيدانها اليه اذا انتهت قضيته نهاية طيبة ٠ ثم قالا :

ـ والأفضل أن تعطينا نحن الأمتعة ، وألا تحفظها فى الأمانات ، لأن الاختلاسات كثيرة فى قسم الأمانات ، ولأن قسم الأمانات يبيع المودعات بعد وقت معين بغض النظر عن القضية هل انتهت او لم تنته . وما اطول ما تستمر مثل هذه القضية ، خاصة في الفترة الأخيرة ! وفى نهاية الأمر تحصل من

قسم الأمانات على ثمن مودعاتك ، وهو ثمن قليل فى حد ذاته لأن الفيصل عند البيع ليس قيمة العرض ولكن قيمة الرشوة ، هـذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فقد دلت الخبرة على أن مثل هذا المبلغ يقل بانتقاله من يد الى يد وبترحيله من عام الى عام .

ولم يهتم ك بهذه العبارات الا أقل الاهتمام ، فلم يكن يقيم وزنا كبيرا لحقه فى التصرف فى متاعه ، ذلك الحق الذى ربما كان لا يزال له ، بل كان يهتم أكبر الاهتمام بأن يصيب وضوحا فى أمره . لم يكن يستطيع فى حضرة هؤلاء الناس أن يفكر مجرد التفكير ، وكان كرش الحارس الثانى ـ ولابد أن الرجلين كانا حارسين ـ يمسه من حين لآخر على نحو يتسم بالود واللطف ، فاذا رفع بصره الى أعلا راى وجها جامدا عظيما لا يتناسب مع جسمه السمين ، له أنف قوى ملتو الى ناحية رأى وجها يتفاهم مع الحارس الآخر فى أمره من فوق رأسه .

من كان هذان الرجلان؟ عم كانا يتكلمان؟ أى ادارة كانا يتبعان؟ لقد كان ك يعيش فى دولة تقوم على الحق ، وكان الأمن مستتبا فى ربوعها ، وكانت كل القوانين قائمة سارية ، فمن هذا الذى تجرا على الهجوم عليه فى مسكنه؟ وكان ك يميل دائما الى اخذ الأمور جميعها ببساطة ما استطاع والى الايمان بالمكروه عندما يحل لا قبل أن يحل ، والى عدم أخذ الحيطة للمستقبل حتى وان كانت الأخطار كل الأخطار محدقة . ولكن طريقته هذه لم تبد له فى هذه الحالة صائبة ، كان من الممكن طبعا أن يعتبر الأمر كله مزاحا ، مزاحا سخيفا، فعله معه زملاؤه فى البنك ، لأسباب مجهولة ، ربما لأن اليوم هو عيد ميلاده الثلاثون ، هذا محتمل ، وربما لم يكن بحاجة الا الى أن يضحك على نحو ما فى وجه الحارسين ، فيضحكان معه ، وربما كانا من عمال الشارع ـ فلم يكن مظهرهما يختلف عنهم كثيرا ـ ولكن ك كان مع

ذلك مصمما فى هذه المرة ، ومنذ أن رأى الحارس فرانتس على وجه التحديد ، على الا يدع أقل تفوق قد يكون لديه حيال هؤلاء الناس يفلت من بين يديه . أما أن يقال فيما بعد أن ك لم يفهم المزاح فهذا أمر لم يجد فيه الا خطرا قليلا جدا . على أنه تذكر — دون أن يكون من عادته أن يتعلم من التجارب — تذكر بعض حالات، عديمة الأهمية فى حد ذاتها ، تصرف فيها، على خلاف ما توقع أصدقاؤه، عمدا وبدون أدنى احساس بالنتائج الممكنة ، تصرفا متهورا ، وأتته نتائجها بالعقاب . وفكر أنه لاينبغى أن يتكرر منه هذا ، على الأقل فى هذه المرة . فاذا كان مايحل به الآن كوميديا فعليه أن يشترك فى تمثيلها .

كان ك لا يزال حرا طليقا . وقال : اسمحا لى — وسار مسرعا بين الحارسين الى حجرته — وسمعهما خلفه يقولان : يبدو أنه شخص عاقل . فلما دخل حجرته فتح أدراج مكتبه بسرعة وعنف، وكانت حاجياته تكمن فيها منظمة أعظم نظام ، ولكنه لم يجد مستندا تحقيق شخصيته بالذات فى الحال لفرط الانفعال الذى تملكه وهو يبحث عنها . وأخيرا وجد رخصة الدراجة وهم أن يذهب بها الى الحارسين ، ولكن الرخصة لاحت له قليلة الأهمية ، فاستمر فى البحث حتى وجد شهادة الميلاد . فلما عاد الى الحجرة المجاورة ، انفتح فى اللحظة نفسها الباب المقابل وهمت السيدة جروباخ بالدخول . ولكن العين لم تبصر بها الا لحظة واحدة ، فما كادت المرأة ترى ك وتعرفه ، حتى ظهر عليها الاضطراب وطلبت المعذرة واختفت وأغلقت الباب بحرص بالغ . وكان ك قد استطاع أن يقول لها : بل ادخلى .

ووقف الآن بأوراقه فى وسط الحجرة ، ينظر الى الباب الذى لم ينفتح بعد ، حتى أفزعته صيحة الحارسين اللذين

كانا يجلسان الى المائدة الصغيرة عند النافذة المفتوحة ويأكلان ـ كما تبين لك على الفور ـ طعام افطاره . وسأل ك :

ـ لماذا لم تدخل السيدة ؟ ورد الحارس الطويل :

ـ ليس لها أن تدخل . فأنت معتقل .

وقال ك : كيف يمكن أن أكون معتقلا ؟ وبهذه الطريقة بالذات؟ فرد الحارس وهو يدس لقمة خبز عليها زبد في اناء العسل :

ـ هانتذا تعود الى السؤال . ونحن لا نجيب على مثل هذه الأسئلة .

فقال ك : بل سيكون عليكما أن تجيبا عليها . هذه هي الأوراق التي تثبت شخصيتي ، فأرياني الآن الأوراق التي تثبت شخصيتكما وأرياني قبل كل شيء آخر أمر اعتقالي .

فقال الحارس : أيتها السماء الحبيبة ! ما أعجب انك لا تستطيع أن تندمج في حالك وأنك تبدو متحفزا لاستفزازنا في غير فائدة ونحن الآن أقرب الناس اليك كما ترى .

وقال فرانتس : لقد قال الحقيقة فصدقه ـ ولم يرفع فنجان القهوة الذي كان يمسكه بيده الى فمه بل تطلع الى ك بنظرة طويلة ، لعلها كانت ذات معنى ، ولكنها ظلت غير مفهومة . وانساق ك ، دون ارادة منه ، الى مجادلة بالنظرات مع فرانتس ، ثم خبط على أوراقه وقال :

ـ هذه هي أوراقي التي تثبت شخصيتي . فصاح الحارس الطويل :

ـ وما شأننا بها ؟ انك تتصرف على نحو أشد خطلا من تصرف الطفل . ماذا تريد ؟ أتريد أن تنهي قضيتك الطويلة اللعينة الي نهاية سريعة بأن تلجأ الي

مناقشتنا نحن الحرس فى أمر أثبات الشخصية وأمر الاعتقال لأنحن موظفان صغيران لاعلم لنا بأوراق الشخصية ، ولا نعرف من قضيتك الا ان علينا أن نحرسك عشر ساعات يوميا وأن نتقاضى لقاء ذلك اجرا . لسنا أكثر من هذا ، ولكننا من ذلك نستطيع أن نفهم أن السلطات العليا التى نعمل فى خدمتها ، تحيط علما بأسباب الاعتقال وبشخصية المعتقل وتدقق فى ذلك قبل ان تصدر أمر اعتقال من هذا النوع . وهى فى ذلك لاتخطىء . والسلطات التى نعمل بها ، على قدر علمى بها ، وأنا لا أعلم الا المستويات الدنيا فيها ، لاتبحث كما قد يظن البعض عن الذنب بين الناس بل هى ، كما ينص القانون تنجذب الى الذنب ، ويتحتم عليها أن ترسلنا نحن الحراس . هذا قانون . فأين الخطأ فى هذا ؟ .

فقال ك : لا أعرف هذا القانون .

فقال الحارس : هذا مما يزيد أمرك سوءا .

وقال ك : يبدو ان هذا القانون لا يوجد الا فى رؤوسكم . واراد ان يتسلل الى داخل افكار الحراس وأن يحولها الى أفكار صالحة أو أن يتوطن فيها . ولكن الحارس قال معارضا :

ــ سيأتى الوقت الذى ستحس فيـــه به . وتدخل فرانتس قائلا : أرأيت يا ڤيلليم ، إنه يعترف بأنه لا يعرف القانون ويدعى فى الوقت نفسه انه برىء .

فقال له الآخر : أنت على حق تماما، ولكن ليست هناك وسيلة يمكن للمرء أن يلتمسها ليفهمه أى شيء .

ولم يرد ك بشيء . وفكر : هل ينبغى على أن أترك اثنـــين من المستويات الدنيا ــ وهما اللذان قررا ذلك بنفسهما ــ يثرثران ويزيدان اضطرابى اضطرابا ؟ ان الرجلين يتحدثان عن امور لايفهمانها قط . وما مكنهما من الاطمئنان الا غباؤهما . وان كلمات قليلة أقولها

لرجل مساو لى لكفيلة بأن توضح كل شيء وضوحا لا أصل اليه بأطول الأحاديث مع هذين . وذرع المكان البراح في الحجرة جيئة وذهابا عدة مرات ، ورأى هناك المرأة العجوز وقد جذبت الى النافذة رجلا أعجز منها واحتضنته . وكان على ك أن يضع نهاية لهذه المشاهدة ، فقال :

ـ خذاني الى رئيسكما .

فقال الحارس الذى نودى باسم ڤيلليم : نأخذك اليه عندما يطلب ذلك . ولن نأخذك اليه قبل أن يطلب . ثم أردف يقول : وأنصحك الآن بأن تذهب الى حجرتك وأن تلتزم الهدوء وأن تنتظر ما سيتخذ فى أمرك . ونحن ننصحك بألا تتشتت فى أفكار عديمة الفائدة وبأن تستجمع نفسك ، فما سيطلب منك عظيم . وأنت لم تعاملنا المعاملة التى تليق بحلمنا معك . انك تنسى أننا ، بغض النظر عمن نكون ، على الأقل بالقياس اليك الآن ، رجلان حران ، وهذا تفوق لا يستهان به . ومع ذلك فنحن مستعدان ، اذا كان لديك مال، لأن نشترى لك من المقهى هناك افطارا بسيطا .

ووقف ك هنيهة ساكنا لايرد على هذا العرض . ربما لايجرؤ الاثنان على التعرض له اذا ماهو فتح باب الحجرة التالية أو حتى باب الحجرة الأمامية ، ربما كان أسهل حل لمشكلته هو أن يدفع بها الى حدها المتطرف . ولكن ربما قبضا عليه ، وهو اذا انهزم مرة خسر تفوقه كله ، ذلك التفوق الذى كان مايزال يتمسك به على نحو ما حيالهما . ولذلك فضل الأمان ، الأمان الذى لابد أن ينتهى اليه التطور الطبيعى ، وعاد الى حجرته دون أن تنطلق كلمة لا من فمه ولا من فم الحارسين .

وألقى ك بنفسه فوق سريره وتناول من الحوض تفاحة جميلة كان بالأمس مساء قد أعدها للافطار . وهاهى ذى قد أصبحت افطاره الوحيد ، ولكنها كانت على أية حال ، كما أكد لنفسه وهو يقضم القضمة الكبيرة الأولى ، أفضل بكثير من افطار يجلب من الحانة القذرة ، كان فى مقدوره أن يناله من فضل الحارسين . وشعر بالراحة والاطمئنان، حقيقة انه سيتأخر صباح اليوم عن عمله فى البنك ، ولكن هذا شىء يسهل الاعتذار عنه ، نظرا لمركزه الكبير نسبيا . واذا لم يصدقه من بالبنك ، وهذا شىء غير مستبعد فى هذه الحالة ، ففى الامكان أن يستشهد بالسيدة جروباخ أوبالعجوزين فى البيت المقابل ، وكانا الآن فى طريقهما الى الشباك المطل عليه. وأخذت ك الدهشة على الأقل من تفكير الحارسين اذ دفعاه الى الحجرة وتركاه فيها وحده ، حيث توفرت لديه امكانيات كثيرة للتخلص من الحياة . ولكنه فى الوقت نفسه تساءل ، سالكا مجرى تفكيره هو فى هذه المرة ، عن السبب الذى يمكن أن يدفعه الى فعل هذا . هل ينتحر لأن الرجلين يجلسان فى الحجرة المجاورة ولأنهما استوليا على افطاره ؟ كان مثل هذا الانتحار سخيفا ، حتى انه لو أراد أن ينتحر ، فلن يتمكن من التنفيذ بسبب سخفه . ولو لم يكن ضيق عقل الحارسين واضحا الى هذه الدرجة ، لكان للانسان أن يقول انهما كذلك لم يجدا خطرا فى تركه بمفرده ، للسبب نفسه. أما الآن فلهما ان أرادا ان ينظرا اليه وهو يذهب الى دولاب بالحائط صغير ، حفظ فيه نوعا جيدا من نبيذ الاشنبص ، ويتناول قدحا صغيرا أولا كبديل للافطار ، ثم يتناول قدحا صغيرا ثانيا ليمد نفسه بالشجاعة ، على سبيل الاحتياط لحالة غير منتظرة قد يحتاج فيها الى الشجاعة .

وفجأة أفزعته صيحة صادرة من الحجرة المجاورة لدرجة ان أسنانه اصطدمت بالقدح . كانت الصيحة هى :

ـ المفتش يناديك !

كان الذى افزعه هو الصياح وحده، هذا الصياح العسكرى القصير المتقطع ، الذى لم يتوقع له أن يصدر عن الحارس فرانتس . أما النداء فى حد ذاته فكان محببا الى نفسه جدا . ورد ك صائحا :

ـ واخيرا !

ثم أقفل دولاب الحائط واسرع فى الحال الى الحجرة المجاورة . كان الحارسان يقفان هناك ، فطرداه الى حجرته من جديد، وكأنما كانا يفعلان شيئا طبيعيا . وصاحا فيه :

ـ ماذا دهاك ؟ أتريد أن تمثل أمام المفتش بالقميص ؟ ان هذا لكفيل بأن يجعله يأمر بضربك ضربا مبرحا ، وبضربنا نحن أيضا .

وصاح ك وكانا قد دفعاه حتى أوصلاه الى خزانة ملابسه :

ـ اتركانى بحق الشيطان ! هل ينتظر أحد منى أن أكون فى حلة العيد ، وقد تعرضت قبل أن أنهض من الفراش لهجوم مفاجىء .

كان الحارسان اذا صاح ك ظلا هادئين ساكنين بل أوشكا أن يبدوا حزينين ، وكانا بهذا المسلك يسلمانه للاضطراب أو يردانه على نحو ما الى التعقل . وقالا له :

ـ لن يجدى هذا نفعا .

فراح ك يزمجر : احتفالات مضحكة ! وتناول ثوبا من فوق الكرسى وامسكه هنيهة بكلتا يديه ، كأنما كان ينتظر حكم الحارسين عليه . فهزا راساهما ، وقالا :

ـ لابد أن يكون ثوبا اسود اللون .

فألقى بالثوب الى الأرض وقال ـ ولم يكن هو نفسه يعرف معنى ما قاله : ليست هذه على اية حال الاجراءات الأساسية فى القضية .

وابتسم الحارسان ولكنهما ظلا متمسكين بما قالاه : لابد أن يكون الثوب أسود اللون .

وقال ك : اذا كنت بهذا اعجل بنهاية الأمر ، فلا بأس .

ثم فتح بنفسه خزانة الملابس وبحث طويلا بين الملابس واختار أحسن ثيابه السوداء ، ثوبا له جاكتة اثار بين معارفه عندما اقتناه اعجابا بتفصيلته ، كذلك أخرج قميصا آخر ، وبدأ يرتدى الملابس بعناية . وكان ك فى سره يعتقد انه وفق الى التعجيل بالأمر كله ، فقد نسى الحارسان أن يدفعابه الى الحمام . وراح يتأملهما ، ليرى ما اذا كانا قد يتذكران دفعه الى الحمام ، ولكن هذا الخاطر لم يخطر ببالهما طبعا . ولم ينس ڤيلليم أن يرسل فرانتس الى المفتش ويبلغه أن ك يرتدى ثيابه .

فلما فرغ ك من ارتداء ملابسه ، كان عليه أن يسير أمام ڤيلليم بالضبط عبر الحجرة الجانبية الخالية الى الحجرة التالية وكان بابها قد فتح على مصراعيه . كانت هذه الحجرة ـ كما كان ك يعلم يقينا ـ مؤجرة منذ وقت قليل سكنا للانسة بورستنر الكاتبة على الآلة الكاتبة ، والتى كانت معتادة على الذهاب الى العمل مبكرة جدا ، وعلى العودة الى البيت متأخرة جدا ولم يكن بينها وبين ك الا تبادل التحية . أما الآن فقد اخذت المنضدة الصغيرة من جانب السرير ، ووضعت فى وسط الحجرة لتكون منضدة للاجراءات القضائية ، وجلس المفتش خلفها . ووضع المفتش ساقا فوق أخرى ، وأسند ذراعا على ظهر الكرسى .

ووقف فى ركن من أركان الحجرة ثلاثة شبان راحوا يتطلعون الى صور الآنسة بورستنر وكانت معلقة على حصيرة مثبتة على الحائط . وكانت هناك بلوزة معلقة على مقبض النافذة المفتوحة . أما الشباك المقابل فكان فيه العجوزان ، وقد انضم اليهما آخر ، كبرت به جماعتهما ، وقف خلفهما ، عاليا عنهما ، وقد ارتدى قميصا مفتوحا عند صدره ، وراح يضغط بأصابعه على لحيته المدببة ويفتلها .

وسأل المفتش :

ـ يوزف ك ؟ .. ربما ليوجه نظرة ك الشاردة اليه. فأومأ ك براسه . وسأل المفتش :

ـ لعلك فوجئت جدا باجراءات هذا الصباح ؟ .. ودفع أثناء ذلك بكلتا يديه الأشياء القليلة التى كانت على المنضدة الليلية الصغيرة ، وهى شمعة وأعواد ثقاب وكتاب ومخدة ابر ، وكأنها أشياء سيحتاج اليها فى التحقيق .

وقال ك : بكل تأكيد ـ وتملكه شعور بالارتياح لوقوفه أخيرا أمام رجل عاقل وتمكنه من الحديث معه فى مسألته ـ بكل تأكيد، فوجئت بها ، ولكنى لم أفاجيء بها جدا اطلاقا .

وسأل المفتش : لم تفاجأ بها جدا ؟ ـ ثم وضع الشمعة وسط المنضدة الصغيرة وجمع الأشياء الأخرى حولها .

واسرع ك يضيف ملحوظة : ربما تخطيء فى إفهمى ، أعنى .. وهنا توقف ك عن الكلام وبحث عن كرسى وثير . وسأل : اظن ان لى أن أجلس ؟

فأجاب المفتش : لم تجر العادة بذلك .

وقال ك دون أن يسكت مرة أخرى : أعنى ، اننى فوجئت جدا طبعا ، ولكن عندما يكون الانسان قد قضى فى الدنيا ثلاثين سنة

مثلى ، فانه يكون محصنا ضد المفاجئات ولا يأخذها مأخذا صعبا ، وخاصة مفاجئة اليوم .

ـ لماذا مفاجأة اليوم خاصة ؟

ـ لا أريد أن اقول اننى أعتبر الحكاية كلها مزاحا ، فان الاجراءات التى اتخذت تبدو لى مفرطة الضخامة . ولابد أن نزلاء البنسيون كلهم مشتركون فيها ، وكذلك أنتم جميعا ، وهذا شيء يتجاوز حد المزاح . ولهذا فلست أريد أن أقول ان ما حدث مزاح .

فقال المفتش : هذا صحيح تماما .. وعد عيدان الثقاب التى كانت فى علبة الكبريت .

واستأنف ك كلامه وهو يتجه هذه المرة الى الجميع ، ويود لو استطاع أن يتجه كذلك الى الثلاثة الواقفين عند الصور : ومن ناحية أخرى لا يمكن أن تكون للحكاية اهمية كبيرة . وأنا استنتج هذا من اننى متهم ولا أستطيع أن أجد أدنى ذنب يمكن ان يكون السبب فى اتهامى . على أن هذا شيء ثانوى ، والسؤال الرئيسى هو من الذى يتهمنى ؟ ماهى الادارة الحكومية التى تقوم بهذه الاجراءات ؟ هل أنتم من موظفى الحكومة ؟ ليس منكم من يرتدى الزى الرسمى ، الا اذا وجد من ...

وهنا اتجه بالحديث الى فرانتس : من يصمم على تسمية ثوبك زيا رسميا ، وماهو الا بدلة سفر . هذه هى المسائل التى أطلب ايضاحها ، وأنا مقتنع بأننا بعد هذا الايضاح سيكون فى استطاعتنا أن يودع بعضنا البعض أكثر الوداع ودا وحرارة .

وألقى المفتش بعلبة الكبريت على المائدة وقال : انك تخطىء خطأ عظيما . فهؤلاء السادة هنا وأنا أشخاص ثانويون تماما بالنسبة لموضوعك ، بل أننا

لانعلم منه شيئا تقريبا . ثم إننا نستطيع أن نرتدى أصح وأنسب الأزياء الرسمية ، ولكن هذا لن يؤدى الى افساد قضيتك فى قليل او كثير . وأنا لا أستطيع بالمرة أن أقول لك انك متهم ، أو بعبـــارة اخرى ، لا أعرف هل أنت متهم ام لا . أنت معتقل ، هذا صحيح، ولست أعرف أكثر من هذا . ربما ثرثر الحارسان بشىء آخر ، وفى هذه الحالة لن تعدو ثرثرتهم حدود الثرثرة . واذا كنت لا استطيع ان اجيب على اسئلتك ، فأنا أستطيع ان انصحك بأن تقل من التفكير فينا وفيما سيحدث لك ، وأن تفكر فى نفسك فذلك افضل . ولا تحدث صخبا كهذا حول احساس ببراءتك ، فهذا الصخب يضـــر بالانطباع غير السىء الذى تحدثه فينا . وعليك بصفة عامة أن تكون أكثر تحفظا فى كلامك ، فأكثر الكلام الذى قلته أنت منذ قليل ، كان يمكننا ، لو أنك اكتفيت بكلمتين فقط ، أن نستنتجه من مسلكك. هذا الى ان كلامك لم يكن فى صالحك بدرجة كبيرة .

وحملق ك فى المفتش . تلك دروس كدروس المدرسة يتلقاها من رجل ربما كان أصغر منه سنا ؟ ولا يعلم شيئا عن سبب إعتقاله وعن الذى أمر بالاعتقال ؟ واستسلم ك لشىء من الانفعال ، وراح يقطع المكان جيئة وذهابا ، دون أن يعوقه عن ذلك أحد ، ثم رفع أساور قميصه ، وتحسس صدره وأصلح شعره ومر بالرجـــال الثلاثة وقال :

ـ ان هذا شىء لا معنى له .

فاستدار هؤلاء ناحيته ونظروا اليه فى ميل ولكن فى جدية : وأخيرا وقف مرة أخرى أمام منضدة المفتش . وقال :

ـ النائب العام هاستر صديقى الحميم ، هل لى أن أتصل به تليفونيا ؟

فقال المفتش : بلا شك ، ولكنى لا أعرف أى معنى يمكن أن يكون لهذا العمل ، الا أن يكون لديك مسألة شخصية تريد ان تكلمه فيها ؟

وصاح ك وقد تملكه من الدهشة أكثر مما تملكه من الغضب :

ـ أى معنى ؟ فمن تكون أنت ؟ أنت تريد معنى لعملى ، وتقوم بهذا العمل الذى هو أكثر الأعمال تجردا من المعنى ؟ هذا شىء يلين منه الصخر ؟ لقد انقض على السادة بادىء ذى بدء ، وها هم أولاء يجلسون أو يقفون فى غير حاجة ويحملوننى على الوقوف منهم موقف التلميذ من المدرسة . أى معنى يكون للاتصال التليفونى بنائب عام اذا كنت على ما يبدو معتقلا؟ حسنا، لن أتصل تليفونيا بأحد !

وقال المفتش وقد مد يده ناحية الحجرة الأمامية حيث كان التليفون : بل اتصل ، من فضلك ، اتصل بالتليفون .

وقال ك : لا ، لم أعد أريد أن أتصل تليفونيا بأحد .

وذهب الى النافذة . كانت الجماعة الواقفة بالنافذة المقابلة ماتزال تطل ، وبدا عليها ، عندما تقدم ك من النافذة ، انها قد تعكر لهذا التقدم صفو مشاهدتها قليلا . وهم العجوزان بالنهوض ولكن الرجل الواقف خلفهما هدأ من روعهما . وصاح ك بصوت مرتفع فى المفتش وهو يشير بالسبابة الى الخارج :

ـ وهناك ايضا متفرجون يشاهدون .

ثم صاح فيهم : ابعدوا !

فتراجع الثلاثة فى الحال خطوات الى الوراء ، بل تراجع العجوزان حتى اصبحا خلف الرجل الذى

واراهما بجسمه العريض ، وقال لهما ـ استنتاجا من حركات فمه ـ من بعيد شيئا غير مفهوم . ولكنهم لم يختفوا تماما ، بل بدا عليهم انهم ينتظرون اللحظة التى يمكنهم فيها أن يقتربوا خفية من النافذة مرة أخرى .

وقال ك عندما التفت ناحية الحجرة : أناس فضوليون يدسون انفسهم فيما لا يعنيهم ولا يرعون المشاعر .

ومن الممكن أن يكون المفتش قد وافقه على هذا الرأى ، فقد ظن ك أن شيئا بهذا المعنى لاح له عندما نظر الى المفتش من الجانب . ومن الممكن أيضا الا يكون المفتش قد سمع ، لأنه كان باسطا يده على المائدة ، وكان يبدو وكأنه يقارن بين أصابعها طولا . أما الحارسان فكانا يجلسان على صندوق ملفوف بمفرش منمق ويمسحان على ركبتيهما . وأما الشبان الثلاثة فكانوا يضعون أياديهم فى أوساطهم ويدورون بأبصارهم فى المكان بغير هدف . وساد الهدوء المكان ، وكأنه هدوء مكتب من مكاتب الدواوين المنسية .

وصاح ك بعد أن ظل لحظة كاملة يحس كأنما يحملهم جميعا فوق كتفيه :

ـ سادتى ، قد يمكننى استنتاجا من مظهركم أن أصل الى أن المسألة انتهت . وأنا أرى أن الأفضل والأحسن الا نفكر بعد الآن فى شرعية أو غير شرعية عملكم وأن ننهى المسألة وديا بأن يصافح بعضنا البعض . فاذا كنتم ترون ما أرى ، فمن فضلكم ...

وتقدم الى مائدة المفتش ومد اليه يده .. ورفع المفتش عينيه وعض شفتيه ونظر الى يد ك الممدودة . وكان ك لايزال يؤمن بأن المفتش سيستجيب له . ولكن المفتش نهض وتناول قبعة جامدة مستديرة كانت على سرير الآنسة بورستنر ولبسها بتؤدة مستعملا

يديه كليهما وكأنه يجرب قبعة جديدة ، وقال في اثناء ذلك موجها الكلام الى ك :

ـ ما ابسط ماتبدو لك الأمور كلها ! اتريد أن ننهى المسألة وديا ؟ لا . لا . هذا شيء لايمكن فعلا ! ولست أريد بتاتا ، من ناحية اخرى ، أن اقول ان عليك أن تياس ! لا ، لماذا ؟ انت معتقل فحسب . لا اكثر . هذا شيء على أن أبلغك اياه ، وقد ابلغتك ، ورايت كذلك كيف تلقيت البلاغ . وهذا يكفى اليوم ، ويمكننا ان نفترق ، مؤقتا طبعا . ولابد انك تريد ان تذهب الآن الى البنك ؟ .

وسأل ك : الى البنك ؟ لقد ظننت انني معتقل .

سأل هذا السؤال بشيء من العناد ، لأنه على الرغم من عدم قبول المفتش مصافحته ، كان يحس ، وبصفة خاصة منذ نهض المفتش واقفا ، بأنه يزداد استقلالا عن هؤلاء الناس جميعا . لقد كان يمثل معهم ، كان ينوى ، اذا اتجهوا للانصراف ، أن يعدو خلفهم الى بوابة البيت ، ويعرض عليهم ان يعتقلوه ، ولهذا راح يكرر :

ـ كيف يمكننى أن أذهب الى البنك وانا معتقل ؟

فقال المفتش الذى كان قد بلغ الباب :

ـ آه .. لقد اخطأت فهم مقصدى ، انت معتقل ، هذا شيء ما فيه شك ، ولكن لاينبغى أن يعوقك هذا عن القيام بوظيفتك . كذلك لا ينبغى أن يعوق هذا مجرى حياتك العادية .

فقال ك وقد اقترب من المفتش :

ـ اذن فالاعتقال ليس شديد السوء .

وقال المفتش : لم يدر بخلدي غير هذا قط .

ثم قال ك وهو يزداد اقترابا من المفتش :

ـ يبدو لى أن ابلاغى بالاعتقال لم يكن ضروريا أيضا .

وكذلك اقترب الآخرون ، ووقف الجميع مجتمعين فى بقعة صغيرة عند الباب . وقال المفتش :

ـ ابلاغك بالاعتقال كان واجبا على .

فقال ك بلا تردد : واجبا غبيا !

فأجاب المفتش : ربما ، ولكننا لا نريد ان تضيع وقتنا فى مثل هذا الكلام . لقد تصورت انك لابد تريد أن تذهب الى البنك . وما دمت تهتم بكل كلمة اهتماما شديدا فلابد أن اضيف : اننى لا اجبرك على الذهاب الى البنك كل ما فى الأمر اننى تصورت انك تريد ذلك . ولكى أسهل عليك الذهاب الى البنك واجعل وصولك هناك شيئا غير ملفت للنظر ما أمكن ذلك ، وضعت هؤلاء الثلاثة ، وهم زملاؤك تحت تصرفك ..!

وصاح ك : كيف ؟ ! ..

وحملق فى الثلاثة مندهشا ، فاذا به يرى ان هؤلاء الشباب النكرة المصابين بفقر الدم ، الذين مازال يتصورهم فى ذاكرته كجماعة تقف عند الصور الفوتوغرافية ، كانوا فعلا موظفين فى البنك ، ولكنهم لم يكونوا زملاءه ، فهذه مبالغة ، وهى دليل على وجود ثغرة فى معلومات المفتش الشاملة المحيطة ، كان هؤلاء موظفين فى البنك على درجة أدنى منه . كيف أمكن الا يلحظ ك هذا ؟ ما أعظم ما اذهله المفتش والحارسان ، فصعب عليه أن يتعرف على هؤلاء الثلاثة ! صعب عليه أن يتعرف على رابنشتاينر ذى الجذع المتصلب واليدين المتذبذبتين ، وعلى كوليش ذى الشعر

الأشقر والعينين الغائرتين ، وعلى كامينر ذى الابتسامة المتسلطة على وجهه ، المرتسمة عليه نتيجة تقلص مزمن في العضلات . وقال ك بعد هنيهة وهو يمد يده الى الشبان الذين انحنوا بأدب :

ــ صباح الخير .. لم اتعرف عليكم بتاتا . سنذهب الآن اذن الى العمل ، هه ؟ ..

وأومأ السادة برءوسهم ضاحـــكين متحمسين ، وكأنهم كانوا طوال الوقت ينتظرون هذه العبارة ، وعندما التمس ك قبعته التى كانت لاتزال فى حجرته ، أسرعوا جميعا للبحث عنها ، وهو تصرف يدل فيما يدل على شيء من الحيرة والارتباك . ووقف ك ساكنا وتابعهم ببصره من خلال البابين المفتوحين ، كان آخرهم طبعا هـو رابنشتاين البليد الذى لا يحسن الا الظهور بمظهرالأناقةوالوسامة. وقدم كامينر القبعة الى ك ، وكان على ك أن يقول الآن شيئا كثيرا مادعت الضرورة الى قوله فى البنك ، كان عليه أن يقول ان ابتسامة كامينر ليست عن قصد ، وانه لم يكن يستطيع بحال من الأحوال ان يضحك قاصدا . وفى الحجرة الأمامية خرجت السيدة جروباخ ولم تبد قط شديدة الشعور بالذنب ، وفتحت الباب للجمــــاعة كلها ، ونظر ك ــ وكثيرا ما فعل ذلك من قبل ــ الى رباط مريلتها الذى كان غائرا بغير ضرورة فى جسمها الضخم . ولما بلغ ك أسفل الدرج قرر والساعة فى يده ، أن يركب ســـيارة ، لـكى لا يزيد تأخره ، مدة نصف ساعة زيادة لا ضرورة لها . وجرى كامينر الى الناصية ليحضر سيارة ، وحاول الاثنان الباقيان على مايبدو أن يسروا عن ك ، وفجأة أشار كوليش الى بوابة البيت المقابل ، كان الرجل الطويل ذو اللحية الشقراء المدببة قد ظهر بها واضطرب فى اللحظة الأولى لظهوره الآن بكامل طوله فرجع خطوات ناحيـة الحائط واستند اليه . ولابد أن العجوزين كانا لا يزالان على الدرج.

واغتاظ ك من كوليش لأنه لفت نظره الى الرجل الذى كان قد رآه من قبل ، بل والذى كان يتوقع ظهوره . وقال بعنف : لا تنظر الى هناك !

ولم يتبين ك ما لمثل هذه العبارة من تأثير ملفت للنظر اذا قيلت فى حضرة رجال لهم استقلالهم الذاتى . على أن ك لم يضطر الى تفسير او شرح ، لأن السيارة اقبلت فى تلك اللحظة فجلسوا فيها وانطلقت بهم . وهنا تذكر ك أنه لم ينتبه الى انصراف المفتش والحارسين ، لقد حجب عليه المفتش من قبل الموظفين الثلاثة ، أما الآن فقد كان الموظفون الثلاثة هم الذين حجبوه عنه . وليس هذا دليلا على اتصاف ك بكثير من حضور البديهة ، ولهذا قرر ك ان يأخذ نفسه بتأمل ذاتى ادق فى هذه الناحية . ثم انه استدار بغير ارادة وانحنى فوق خلفية السيارة عله أن يرى المفتش والحارسين . وما لبث ان عاد الى وضعه الأول واتكأ مطمئنا الى ركن السيارة دون ان يحاول ادنى محاولة أن يبحث عن أى انسان . وعلى الرغم من أن الموقف لم يكن يبدو ملائما للتسلية ، فقد كان ك يشعر بحاجة الى التسلية فى هذه اللحظة بالذات ، ولكن الرجال الثلاثة كان يبدو عليهم التعب .. كان رابنشتاينر يطل من العربة يمينا ، وكان كوليش يطل من العربة يسارا ، ولم يكن هناك سوى كامينر بضحكته السخيفة تحت تصرف ك ، وكان التسلى بالتهكم عليه للأسف شىء تمنعه الانسانية.

اعتاد ك فى هذا الربيع أن يمضى أمسياته على النحو التالى : كان عندما يفرغ من العمل ، يقوم ان أمكن ـ لأنه كان يبقى غالبا فى المكتب الى الساعة التاسعة ـ بنزهة صغيرة بمفرده أو بصحبة بعض الموظفين ، ثم يذهب الى حانة ليشرب البيرة ، يجلس فيها الى مائدة بعينها غالبا مع نفر من متقدمى السن حتى الساعة الحادية عشرة . وكانت هناك استثناءات طرا على هذا التقسيم

المنظم لليوم ، مثلا عندما كان مدير البنك ، الذى كان يقدر نشاط ك وجدارته بالثقة تقديرا كبيرا يدعوه الى نزهة بالسيارة ، أو الى تناول العشاء فى ڤيللته . وكان ك علاوة على ذلك يذهب مرة فى الأسبوع الى بنت اسمها الزه ، كانت تعمل طوال الليل الى ساعة متأخرة من الصباح جرسونة فى خمارة ، وكانت بالنهار تتلقى الزيارات فى فراشها .

فى ذلك اليوم ـ وقد انقضى اليوم بين عمل مضن وبين تمنيات ودية كثيرة مفعمة بالتقدير ، وما أسرع ما انقضى ـ أراد ك أن يعود الى البيت مسرعا . وقد فكر فى هذا فى الفترات الكثيرة التى تخللت عمله . وخطر له دون أن يعلم بالضبط معنى هذا الخاطر ، ان ارتباكا كبيرا لابد قد الم بمسكن السيدة جروباخ كله من جراء أحداث الصباح ، وانه بالذات هو الذى تحتاج اليه ليعيد الى البيت نظامه . فاذا أعيد هذا النظام ، اختفت كل آثار أحداث الصباح تماما ، وعاد كل شىء الى سيرته الأولى . ولم يكن هناك شىء يخيفه من ناحية الموظفين الثلاثة ، فقد غاصوا مرة اخرى بين جمهور الموظفين الضخم ، ولم يظهر عليهم أى تغير يمكن ملاحظته . ولقد استدعاهم الى مكتبه مرارا تارة فرادى وتارة مجتمعين ، لا لهدف آخر ، الا لملاحظتهم ، وكان فى كل مرة يصرفهم مرتاحا هادىء البال .

فلما وصل فى منتصف الساعة العاشرة امام البيت الذى يسكن فيه ، التقى فى البوابة بشاب ، كان يقف فيه فاتحا ساقيه ويدخن غليونا . وساله ك على الفور : من انت ! ..

وقرب وجهه من الشاب ، فلم يكن من الممكن فى ظلام المدخل أن يرى الانسان الكثير . واجاب الشاب : أنا يا سيدى الكريم ابن البواب ..

واخرج الغليون من فمه وانتحى جانبا ، وسأل ك : ابن البواب ؟ .. وخبط الأرض بعصاه ثائرا .

ـ هل يريد السيد الكريم شيئا ؟ هل انادى أبى ؟ .

وقال ك :

ـ لا .. لا ..

وكان فى صوته شيء من المعذرة ، كما لو كان الشاب قد أصابه بضر ، فغفر له ثم قال : لا بأس ..

وسار سبيله ، ولكنه قبل أن يصعد الدرج التفت وراءه مرة ثانية .

كان يمكنه أن يذهب الى حجرته مباشرة ، ولكنه كان يريد أن يكلم السيدة جروباخ ، فذهب من فوره الى حجرتها ، وقرع الباب . كانت تجلس الى المائدة تصلح جوربا ، وكان على المائدة تل من الجوارب القديمة . واعتذر ك وهو مشتت الفكر ، لحضوره متأخرا ، ولكن السيدة جروباخ كانت لطيفة جدا ولم ترد أن تستمع الى اعتذارات ، وقالت انها دائمة تحت أمره ، عندما يريد أن يتحدث اليها ، وانه يعلم جيدا انه أحسن وأحب سكانها اليها . وتلفت فى الحجرة فوجدها عادت الى حالتها القديمة تماما ، ووجد أن أوانى طعام الافطار التى كانت من قبل على المنضدة الصغيرة قرب النافذة قد ابعدت كما ينبغى . وفكر : « أيادى النساء تنجز الكثير بهدوء » .. وتصور انه ربما استطاع ان يحطم الأوانى فى الحال ، ولكنه ما كان بلا شك يستطيع ان يحملها الى المطبخ .. ونظر الى السيدة جروباخ نظرة فيها شيء من الامتنان . وسألها :
ـ لماذا تشتغلين الى هذا الوقت المتأخر ؟..

وجلس الاثنان الى المائدة ، وراح لـ يدفن يده من حين لآخر في الجوارب . وقالت :

ـ لدى عمل كثير .. بالنهار اكرس نفسي للسكان ، واذا أردت أن أنظم أشيائي الخاصة فليس عندي سوى الأمسيات .

ـ لقد تسببت لك اليوم في شغل خارق للعادة ! ..

وسألته وقد اشتد بها الحماس وتركت شغلها في حجرها :

ـ كيف هذا ؟ ..

فقال : اقصد الرجال الذين كانوا هنا صباح اليوم .

فقالت : آه .. !

ثم عادت الى هدوئها وأكملت :

ـ لم يسبب لي هذا مزيدا من الشغل ..

ونظر لـ اليها صامتا وهي تعود الى تناول الجورب . وفكر ، يبدو أنها تندهش لأني أتكلم في هذا الموضوع، ويبدوأنها لاتستصوب مني أن أتكلم فيه . وان هذا لمما يزيد اهمية فعلى ، فأنا لا استطيع أن أتكلم في هذا الموضوع الا مع امراة عجوز . وعاد يقول :

ـ لا ، لقد تسبب لك بكل تأكيد في مزيد من الشغل . ولكنه لن يتكرر مرة أخرى .

وقالت مؤكدة : لا ، لايمكن ان يتكرر مرة أخرى .

وابتسمت لـ لـ ابتسامة توشك أن تكون حزينة . وسأل لـ :

ـ هل أنت جادة في ذلك الرأى ؟ .

فقالت بصوت منخفض :

ـ نعم ، وعليك قبل كل شيء آخر الا تستصعب الأمر . فما اكثر واعجب ما يحدث فى الدنيا . ولما كنت تتكلم معى عن ثقة وود يا سيد ك ، فيمكننى أن أعترف لك بأننى انصت قليلا وراء الباب،وبأن الحارسين قصا على شيئا من الأمر.ان الموضوع يتصل بمصيرك ، وهذا شيء يهمنى جدا ، يهمنى أكثر مما يحق لى فما أنا الا صاحبة المسكن . اذن فقد سمعت شيئا ، ولكن لا يمكننى أن اقول انه على درجة خاصة من السوء . لا . حقيقة انك معتقل ، ولكنك لست معتقلا كما يعتقل اللص . عندما يكون الانسان معتقلا كاللص فهذا شيء قبيح ، أما هذا الاعتقال .. انه يلوح لى كشيء من أشياء العلماء ، لا تؤاخذنى ، عندما أقول شيئا فيه غباء ، انه يلوح لى كشيء من أشياء العلماء .. لايمكننى أن أفهمه ولكن ليس هناك ضرورة لفهمه .

وقال ك :

ـ ليس هناك غباء على الاطلاق فى هذا الذى قلته ياسيدة جروباخ ، أو على الأقل انا أرى رأيك الى حد ما ، ولكنى احكم على الأمر فى مجموعه حكما أكثر حدة من حكمك ، فأنا لا ارى فيه شيئا من أشياء العلماء ، بل أرى انه لا شيء على الاطلاق . لقد أخذت على غرة ، هذا كل ما فى الأمر . ولو اننى بعد أن استيقظت لم أجعل عدم حضور « أنه » يحيرنى ، فنهضت ولم ألتفت الى كائن من كان يعترض طريقى ، وذهبت مباشرة اليك ، وتناولت طعام الافطار على سبيل الاستثناء فى المطبخ مثلا ، ورجوتك أن تحضرى لى ملابسى من حجرتى ، أو بعبارة موجزة،لو كنت تصرفت بعقل ، لما جرى شيء ، ولاختنق كل شيء كان على وشك أن يصير شيئا . ولكنى كنت قليل الاستعداد . أنا فى البنك مثلا مستعد، ومحال أن يحدث لى هناك شيء من هذا النوع .. لى هناك خادم

خاص ، وهناك التليفون العام وتليفون المكتب أمامي على المنضدة ، وهناك سيل لا ينقطع من الناس والجماعات والموظفين ، وعلاوة على هذا بل وقبل كل شيء آخر أنا هناك على صلة دائمة بالعمل ؛ ولذلك فأنا دائما حاضر الفكر ، وسيكون من دواعي سروري حقا ان اجد نفسي هناك حيال امر من هذا النوع . ولكن الأمر انتهى ومر ، ولست أريد فى الحقيقة أن أتكلم فيه ، انما أردت ان اسمع حكمك ، حكم سيدة عاقلة ، ويسعدنى جدا اننا متفقان . وعليك الآن ان تمدى يدك وتصافحينى ، فلابد ان يقوى مثل هذا الاتفاق بمصافحة ..

ـ هل ستمد يدها الى ؟ ! ..

وفكر ك : المفتش لم يمد يده الى .. وراح ك ينظر الى المرأة على نحو آخر متفحصا مختبرا . ونهضت السيدة لأنه هو أيضا نهض ، وكانت متحرجة نوعا ما ، لأن ما قاله ك لها ، لم يكن كله مفهوما منها ، وقالت تحت تأثير هذا التحرج شيئا لم تكن تريد أن تقوله ولم يكن فى محله قط ، قالت :

ـ لا تحمل الأمر يا سيد ك على هذا المحمل الصعب ..

وترقرقت الدموع فى صوتها ، ونسيت بطبيعة الحال المصافحة ايضا .. وقال ك :

ـ لست أعرف اننى احمله محملا صعبا ..

وفجأة تملكه التعب وراى تفاهة موافقات هذه المرأة كلها .

ولما بلغ الباب سأل سؤالا آخر : هل الآنسة بوستنر بالبيت ؟

وقالت السيدة جروباخ : لا ..

وابتسمت وهى تعطى هذه الاجابة الجـافة ، ابتسـامة فيها تعاطف متأخر معقول :

ـ انها فى المسرح . هل تريد منها شيئا ؟ هل تريد أن أبلغها شيئا ؟ .

ـ آه ، كنت أريد أن اتكلم معها كلمتين .

ـ لا اعرف للاسف متى تعود . وهى عندما تكون فى المسرح تأتى عادة فى وقت متأخر .

وقال ك : ليس لهذا اية أهمية .

وأدار راسه المطأطئة ناحية البـاب لينصرف وقال : لم أكن أريد الا أن أعتذر لها عن شغلى حجرتها اليوم .

ـ ليس لهذا ضرورة يا سيد ك ، انك تبالغ فى مراعاة شعور الآخرين ، والآنسة لا تعلم من هذا الأمر شيئا ، فلم تكن بالبيت منذ الصباح الباكر ، وقد عاد كل شىء فى حجرتها الى حالته ، وتأكد بنفسك .

وفتحت له باب حجرة الآنسة بوستنر . وقال ك : شكرا فأنا أصدقك .

ولكنه ذهب الى الباب المفتوح ونظر . كان القمر يلقى أشـعة هادئة فى الحجرة المظلمة . كان كل شىء ـ على ما بدا له ـ منظما فى مكانه ، كذلك البلوزة لم تعد معلقة على مقبض الشباك . أما المخدات فبدت عالية بشكل ملفت للنظر ، وكان بعضها ظاهرا فى نور القمر . وقال ك : الآنسة كثيرا ما تعود الى البيت فى وقت متأخر .

ونظر الى السيدة جروباخ كأنما كانت هى التى تحمل مسئولية ذلك . وقالت السيدة جروباخ ملتمسة العذر : هكذا الشباب ! .

فقال ك : بلا شك ، ولكن من الممكن ان يصل الأمر الى بعيد .

فقالت السيدة جروباخ : ممكن ، وانك لعلى حق يا سيد ك . وربما تكون على حق بنوع خاص فى هذه المرة بالذات . وانا لا اريد بلا شك أن اتقول على الآنسة بوستنر ، فهى بنت طيبة لطيفة ودودة منتظمة دقيقة فى مواعيدها ، نشيطة ، وهذه أمور أقدرها أشد التقدير ، ولكن هناك شيء لابد ان يقال ، وهو انه ينبغى عليها أن تكون أكثر اعتدادا بنفسها وأكثر تحفظا . لقد رايتها فى هذا الشهر مرتين فى شوارع متطرفة ، وكانت فى كل مرة مع رجل آخر . وهذا شيء يؤلمنى ، وأنا لا احكيه والله العظيم الا لك يا سيد ك ، ولكن لن يكون هناك مفر من أن أتكلم مع الآنسة نفسها فى هـذا الموضوع . على أن هذا ليس هو الشيء الوحيد الذى يثير ريبتى تجاهها .

وقال ك غاضبا غير قادر على حبس غضبه :

ـ انك تسلكين طريق الخطأ ، والظاهر انك لم تفهمى الجملة التى قلتها عن الآنسة على الوجه الصحيح ، فلم أقصد الى شيء مما قلته . بل اننى احذرك مخلصا من التحدث الى الآنسة بشيء ، فأنت مخطئة كل الخطأ ، وانا أعرف الآنسة جيدا جدا وليس فيما قلته عنها كلمة صدق . ولكن ربما أكون انا مبالغا ، ولست أريد أن أعوقك عما تعتزمين فعله ، قولى لها ما تريدين . طابت ليلتك !

وقالت السيدة جروباخ متوسلة : يا سيد ك .

وأسرع ك الى بابه وفتحه . واكملت السيدة جروباخ كلامها : انا لا اريد ان أتكلم الآن مع الآنسة ، بل انوى بطبيعة الحال أن أستمر فى مراقبتها ، ولم أسر الا اليك بما أعرف . ثم ان هذا شيء ينبغى أن يكون واضحا فى ذهن كل مستأجر ساكن عندى ، اذا أراد الانسان أن يبقى على البنسيون نظيفا ، وليس لى من هدف آخر غير هذا .

وصاح ك من خلال فتحة الباب : النظافة ! اذا كنت تريدين ان تبقى على بنسيونك نظيفا فلابد ان تخرجيني اولا . ثم قفل الباب بعنف ، ولم يلتفت الى قرع خفيف على الباب .

ثم قرر ك ، نظرا لأنه لم تكن لديه رغبة في النوم ، أن يظل يقظا ، وان يتبين بهذه المناسبة متى ستعود الآنسة بورستنر . وربما كان من الممكن ، وان بدا الأمر عديم اللياقة ، أن يتكلم معها كلمتين . وبينما تمدد عند النافذة واقفل عينيه المتعبتين ، فكر لحظة فى أن يعاقب السيدة جروباخ ، ويقنع الآنسة بورستنر بأن تقدم معه انذارا اليها بترك الحجرة . ولكن هذا التصرف ما لبث أن لاح له مبالغا فيه الى نحو فظيع ، بل واتهم نفسه بأنه انما يريد أن يغير سكنه نتيجة للاحداث التى جرت فى الصباح . وليس هناك تصرف أشد حمقا ولا أبعد عن الهدف ولا أكثر نكرا من هذا التصرف .

ولما تعب ك من التطلع الى الشارع الخالى ، تمدد على الأريكة، بعد ان وارب الباب الموصل الى الحجرة الأمامية قليلا ، ليتمكن من رؤية من يدخل المسكن على الفور من فوق اريكته . وظل راقدا فى هدوء الى الساعة الحادية عشرة تقريبا ، يدخن سيجارا . عندئذ لم يعد يحتمل البقاء فى مكانه ، وذهب قليلا الى الحجرة الأمامية ، كما لو كان بهذا يستطيع أن يعجل بقدوم الآنسة بورستنر . لم تكن لديه رغبة خاصة تدفعه اليها ، بل انه لم يكن حتى يتذكر منظرها ، ولكنه اراد أن يتكلم معها ، وكان تأخرها فى الحضور يثيره لأنه يحول ختام هذا اليوم الى القلق والاضطراب. كذلك كانت الآنسة هى المسئولة عن انه لم يتناول طعاما هذا المساء وعن انه صرف النظر عن زيارة الزه التى كان ينوى عليها اليوم.على أن هذين امران يمكنه أن ينالهما اذا هو ذهب الآن الى

الحانة التى تعمل فيها الزه . ولهذا فكر فى أن يذهب الى تلك الحانة بعد أن يفرغ من الحديث مع الآنسة بورستنر .

فلما تجاوزت الساعة منتصف الثانية عشرة ، سمع شخصا فى بير السلم . وكان ك قد اندمج فى أفكاره وبقى فى الحجرة الأمامية كما لو كانت حجرته الخاصة ، وراح يقطعها جيئة وذهابا ، فلما سمع ان شخصا يقبل هرب واختفى وراء باب حجرته . كان القادم هو الآنسة بورستنر . كانت الآنسة ترتعش من البرد فشدت حول كتفيها النحيلتين شالا من الحرير ، بينما قفلت باب البنسيون . كانت فى اللحظة التالية ستدخل بلا شك الى حجرتها التى لم يكن ل ك ان يدخلها فى منتصف الليل . اذن فعليه أن يكلمها الآن . ولكنه كان قد نسى لسوء الحظ أن يضىء النور الكهربى فى حجرته ، مما سيجعل خروجه من الحجرة المظلمة يبدو كأنه تهجم عليها ويصيبها بالفزع الشديد . وهمس من خلال فتحة بابه المواربة وقد أخذته الحيرة وأحس بأنه ليس لديه وقت يضيعه : يا آنسة بورستنر !

وانطلقت هذه العبارة كالالتماس لا كالنداء . وسألت الآنسة بورستنر وهى تنظر حواليها بعينين واسعتين : هل هنا أحد ؟

وقال ك : أنا ! وتقدم اليها .

وقالت الآنسة بورستنر مبتسمة : آه ، السيد ك . مساء الخير . ومدت يدها اليه .

ـ أردت ان أتكلم معك كلمتين ، فهل تسمحين بأن يتم ذلك الآن ؟ .

وسألت الآنسة بورستنر : الآن ؟ هل لابد أن يتم ذلك الآن ؟ أليس فى هذا شىء من الغرابة ؟ .

ـ لقد انتظرت حضورك منذ الساعة التاسعة .

ـ وكنت انا فى المسرح ، ولم أكن أعلم انك تريد منى شيئا .

ـ السبب الذى يدعو الى ما سأقوله لك ، لم يطرأ الا اليوم .

ـ هكذا . وانا ليس لدى مانع مبدئيا ، ولكننى متعبة أكاد أسقط من فرط التعب . فتعال الى حجرتى دقيقتين . فلا يمكننا ان نتكلم هنا بحال من الأحوال ، لأننا بهذا نوقظ الناس جميعا ، وهذا من شأنه ان يسبب لى الاحراج ، من اجلنا أكثر مما يسببه لى من أجل الناس . انتظر هنا الى أن أضىء النور بحجرتى ثم اطفىء النور هنا .

وفعل ك كما أرادت ، وانتظر حتى طلبت اليه الآنسة بورستنر من حجرتها بصوت خفيض ان يأتى . وقالت له وهى تشير الى الأريكة : اجلس .

اما هى فقد ظلت واقفة عند عمود السرير رغم تعبها الذى تحدثت عنه . حتى قبعتها الصغيرة المزينة بكمية كبيرة من الزهور لم تخلعها .

ـ ماذا تريد ؟ انا مشتاقة جدا لمعرفة ما تريد . وعقدت ساقيها قليلا . وقال ك : قد تقولين أن المسألةليستعاجلة ملحة، حتى تناقش فى هذا الوقت ، ولكن ...

فقالت الآنسة بورستنر : انا عادة لا التفت الى المقدمات .

فقال ك : وهذا مما يسهل مهمتى . لقد حدث لحجرتك اليوم صباحا شىء من الاضطراب ، نتيجة لذنبى على نحو ما ، وقد حدث هذا الاضطراب على يد اناس أغراب وضد رغبتى ، ولكنه حدث، كما قلت ، نتيجة لذنبى . وقد أردت أن التمس منك لهذا المعذرة .

وسألت الآنسة بورستنر : حجرتى ؟ . ونظرت لا الى الحجرة ، بل الى ك نظرة فاحصة .

فقال ك : هذا هو ما حدث .

ونظرا احدهما فى عينى الآخر للمرة الأولى . وقال ك : الطريقة التى حدث بها هذا لا تستحق أن يشير اليها الانسان بكلمة .

وقالت الآنسة بورستنر : ومع هذا فهى بالذات الشىء المهم .

فأجاب ك : لا . .

وقالت الآنسة بورستنر : هه ، لست أريد أن أندس فى اسرار ، واذا كنت تصر على أن الأمر غير ذى اهمية ، فلست أريد أن أعترض على هذا بشىء . والمعذرة التى تطلبها منى ، أنا أعطيك اياها عن طيب خاطر ، خاصة واننى لا أجد أدنى أثر للاضطراب هنا .

وسارت واضعة يدها المبسوطتين على خصرها فى الحجرة ودارت دورة . فلما بلغت الحصيرة التى عليها الصور الفوتوغرافية وقفت . وصاحت : هل رأيت هذا ! حقيقة لقد حدث اضطراب فى صورى الفوتوغرافية . ما أقبح هذا الاضطراب ! هذا يعنى أن شخصا ما دخل حجرتى بغير وجه حق .

واومأ ك موافقا ولعن فى سره الموظف كامينر ، الذى لم يستطع أن يكبح جماح نشاطه الفج السخيف .

وقالت الآنسة بورستنر : من العجيب أن ارى نفسى مضطرة الى أن احرم عليك شيئا انت ذاتك تحرمه على نفسك ، وهو أن تدخل فى حجرتى أثناء غيابى .

وقال ك : لقد شرحت لك الأمر يا آنسة .

ثم ذهب هو ايضا الى الصور الفوتوغرافية، واضاف: وقلت لك انني لست ذلك الذى اعتدى على الصور ، ولكن ما دمت لا تصدقيني ، فينبغي على أن أعترف لك أن لجنة التحقيق اتت بثلاثة من موظفي البنك ، أعتقد أن واحدا منهم ، وسوف أقذف به خارج البنك في اقرب فرصة ، مد يده الى الصور . نعم ، لقد كانت لجنة التحقيق هنا .

اضاف ك الجملة الأخيرة عندما راى الآنسة تنظر اليه نظرة تساؤل . وسألت : كانت هنا من أجلك ؟

واجاب ك : نعم .

فصاحت الآنسة : لا ، وضحكت .

وقال ك : بلى ، كانت هنا من أجلي ، أم هل تعتقدين انني برىء ؟

وقالت الآنسة : هه ، برىء .. لست أريد أن أنطق في الحال بحكم قد يكون عظيم التبعة ، ثم انني لا أعـرفك ، ولابد أن من تلاحقه لجنـة التحقيق مجـرم ارتكب جرما فظيعـا . وما دمت طليقا ـ وأنا أستنتج من هدوئك انك لم تكن بالسجن وسرحت منه ـ فلا يمكن أن تكون قد ارتكبت مثل هذا الجرم .

وقال ك : نعم ، ولكن من الممكن أن تكون لجنة التحقيق قد تبينت انني برىء أو انني لم ارتكب الذنب على النحو المتصور .

وقالت الآنسة بورستنر بانتباه كبير : بكل تأكيد ، هذا ممكن .

وقال ك : هكذا ! ليس لديك خبرة كبيرة بأمور المحاكم .

فقالت الآنسة بورستنر : لا ، ليس لدى هذه الخبرة. وكثيرا ما أسفت لأنها ليست لدى ، فأنا أحب أن أعرف كل شيء ، وأمور

المحاكم بالذات تهمني اهمية كبيرة . فالمحكمة لها جاذبية عجيبة ، أليس كذلك ؟ ولكنى سوف أكمل معلوماتى فى هذه الناحية بكل تأكيد ، لأننى سأعمل ابتداء من الشهر القادم كموظفة ادارية فى مكتب محام .

فقال ك : هذا شيء عظيم ، فسيكون فى استطاعتك أن تساعدينى فى قضيتى قليلا .

فقالت الآنسة بورستنر : هذا ممكن ، ولم لا ؟ فأنا احب ان استخدم معلوماتى .

وقال ك : وانا أقول هذا جادا ، أو على الأقل فى شيء من الجد هو مثل جدك . فالأمر اتفه من ان أستعين فيه بمحام ، ولكنى افيد بلا شك من ناصح ذى مشورة .

وقالت الآنسة بورستنر : واذا كان على أن انصح واعطى المشورة ، فلابد أن أعرف الموضوع .

وقال ك : هذه هى المشكلة ، فأنا نفسى لا اعرفه .

وقالت الآنسة بورستنر وقد أصابتها خيبة امل مفرطة : اذن فأنت تسخر منى ، وماكان هناك ضرورة قط لاختيار هذا الوقت المتأخر من الليل لهذا المزاح .

وابتعدت عن الصور الفوتوغرافية التى ظلت تقف واياه عندها مدة طويلة .

وقال ك : لا ، يا آنسة ، لست أمزح . ومالك لا تريدين تصديقى ! لقد قلت لك ما أعرف . بل لقد قلت لك أكثر مما أعرف ، لأن اللجنة التى كانت هنا لم تكن لجنة التحقيق ، أنا أسميها كذلك ، لأننى لا أعرف لها اسما غير هذا . فلم يحدث

تحقيق ، كل ما حدث هو اننى اعتقلت ، واعتقلت على يد لجنة .

وجلست الآنسة بورستنر على الأريكة وراحت تضحك من جديد . وسألت : وكيف حدث هذا ؟

وقال ك : حدث هذا على نحو فظيع .

ولم يعد ك الآن يفكر فى الموضوع ، بل كان مأخوذا بالتطلع الى الآنسة بورستنر ، التى أسندت وجهها الى احدى يديها ــ بينما أسندت كوعها على مخدة فوق الأريكة ــ وراحت تمسح باليد الأخرى ببطء على ردفها .

وقالت الآنسة بورستنر : هذا كلام عام مفرط فى العمومية .

وسأل ك : ما هذا الذى تقولين عنه انه عام مفرط فى العمومية ؟ .

ثم تذكر وسألها : هل أريك كيف جرى ما جرى ؟ .

وأراد أن يقوم بحركة دون أن يبتعد .

وقالت الآنسة بورستنر : لقد استبد بى التعب .

وقال ك : لقد اتيت متأخرة جدا .

فقالت : وها هو ذا الأمر ينتهى بأن أتلقى منك ضروب اللوم ، ولك حق فى هذا ، فما كان ينبغى على أن أدعك تدخل . ولقد تبين لى ان دخولك لم يكن ضروريا .

وقال ك : بل كان ضروريا ، كما ستتبينين الآن . هل تسمحين لى بأن أزحزح المنضدة الصغيرة من جانب السرير الى هنا ؟

وقالت الآنسة بورستنر : ماذا خطر ببالك ؟ هذا شىء لا يمكن أن أسمح لك به طبعا !

وقال ك ثائرا كما لو كان ضرر بليغ قد ألم به نتيجة لردها :
ـ اذن فلن يمكنني أن أريك شيئا .

وقالت الآنسة بورستنر : إذا كنت تحتاج اليها في التمثيل فحركها بهدوء . واضافت بعد هنيهة بصوت أضعف : لقد استبد بي التعب الى درجة اسمح فيها بأكثر مما ينبغي .

ووضع ك المنضدة الصغيرة في وسط الحجرة وجلس وراءها وقال : لابد أن تتصوري توزيع الأشخاص تصورا صحيحا ففيه شيء من الطراقة . انا والمفتش هنا ، وهناك فوق الصندوق يجلس حارسان ، وعند الصور الفوتوغرافية يقف ثلاثة من الشبان . وعلى مقبض الشباك تتدلى ، وهذا شيء اذكره على الهامش ، بلوزة بيضاء . والآن تبدأ الحكاية . آه ، لقد نسيت نفسي . نسيت أهم شخص ، انا ، انا اقف هنا امام المنضدة الصغيرة . المفتش يجلس مرتاحا غاية الراحة ، يضع ساقا فوق ساق ، ويدلي ذراعه هنا خلف المسند ، رجل أحمق لا مثيل لحمقه . والآن تبدأ الحكاية فعلا . المفتش يصيح كما لو كان يريد أن يوقظني من نوم ، انه يصيح بمعنى الكلمة ، وينبغي على للأسف اذا كنت أريد أن أوضح الموضوع لفهمك ، أن أصيح انا ايضا ، على انه لم يصح الا باسمي فقط ، وكان صياحه على هذا النحو .

ووضعت الآنسة بورستنر التي كانت تستمع الى ك ضاحكة اصبع السبابة على فمها لتحول بين ك وبين الصياح ، ولكنها تأخرت في ذلك . وكان ك قد اندمج في الدور ، وصاح ببطء : يوزف ك !

ولكن صياحه لم يكن مرتفعا على النحو الذي هدد به ، وان كان قد بدا كأنه أخذ ينتشر تدريجيا في الحجرة بعد ان اطلقه ك بغتة .

حينئذ قرع احدهم باب الحجرة المجاورة عدة مرات بقوة وبطء وانتظام . وشحبت الآنسة بورستنر ووضعت يدها على قلبها . وفزع ك فزعا شديدا خاصة لأنه ظل هنيهة عاجزا تماما عن أن يفكر فى شىء آخر سوى ما حدث فى الصباح والبنت التى يمثله أمامها . وما كاد يعود الى نفسه حتى قفز الى الآنسة بورستنر وتناول يدها . وهمس فى اذنها : لا تخافى ، سأصلح كل شىء . ولكن من يمكن أن يكون بالباب ؟ الحجرة التى بجوارنا هى حجرة المعيشة التى لا ينام فيها أحد .

وهمست الآنسة بورستنر فى اذن ك : بل هناك من ينام فيها . منذ أمس ينام فيها ابن اخ السيدة جروباخ ، وهو ضابط برتبة رائد . فليست هناك حجرة أخرى خالية له . لقد نسيت هـــذا انا أيضا . ماذا دهاك حتى صرخت هكذا ! ما اتعسنى بهذا ! .

وقال ك : ليس هناك سبب لذلك على الاطلاق .

وقبل جبينها بينما هوت هى على المخدة .

وقالت : ابعد ، ابعد !

واعتدلت من جديد بسرعة قائلة : اذهب،انصرف،ماذا تريد ؟ انه ينصت بالباب ، انه يسمع كل شىء . انك لتعذبنى !

وقال ك : لن أنصرف الا بعد ان تكونى قد هدأت نوعا ما . تعالى الى الركن الآخر من الحجرة ، فعندما نكون هناك لا يستطيع أن يسمعنا .

وتركته يأخذها الى هناك . وقال : لعل ما حدث هو شىء سخيف بالنسبة لك ، ولكنه ليس بالشىء الخطـير بتاتا . وأنت تعلمين كيف تبجلنى السيدة جروباخ بمعنى الكلمة ، وهى التى لها الفصل فى هذا الموضوع ، خاصة وأن الضابط ابن اخيهــا ،

وتعلمين أيضا ، كيف تصدق كل ما اقوله لها بلا جدال . ثم انها الى هذا مرتبطة بى بتبعية ، لأنها مدينة لى بمبلغ كبير . وساقبل كل اقتراح من اقتراحاتها لتفسيرلقائنا اذا كان يتفق والهدف ، وانا اعاهدك على أن أحمل السيدة جروباخ لا على أن تظهر بمظهر تصديق التفسير أمام الناس فحسب بل على أن تؤمن به بحق واخلاص فى ذات نفسها ايضا . ولا ينبغى أن تعملى لى حسابا فى هذا الموضوع بحال من الأحوال . اذا اردت ان تعلنى على الناس اننى هجمت عليك ، فسأبلغ السيدة جروباخ الخبر بهذا المعنى ، وستصدقه ، دون أن تفقد ثقتها فى ، فانها شديدة التعلق بى .

وكانت الآنسة بورستنر تنظر امامها الى الأرض ساكنة خائرة نوعا ما . واضافت : ولماذا لا تظن السيدة جروباخ اننى انا التى هجمت عليك ؟ .

ورای ك امامه شعرها ، شعرا محمر اللون ، مفروقا ، مضغوطا مضموما معا . وظن انها ستوجه اليه بصرها ، ولكنها قالت دون ان تغير وضعها : معذرة فقد اصابنى الفزع نتيجة قرع الباب فجأة ، لا نتيجة النتائج التى يمكن أن تكون لوجود الضابط . لقد ساد الهدوء بعد صرختك ، ثم فجأة اتى الخبط ، وهذا هو ما أفزعنى . ثم اننى كنت أجلس بجانب الباب ، وكان الخبط بجوارى تماما تقريبا . وانا اشكرك على مقترحاتك ، ولكنى لا اقبلها . فانا استطيع ان احمل مسئولية كل ما يحدث فى حجرتى ، احملها أمام كل انسان . وانا أدهش من انك لا تلاحظ ما فى اقتراحاتك من اهانة لى ، الى جانبما فيها من نوايا طيبة، أعترف بها . ولكن الآن اذهب ، دعنى وحدى ، فانا أكثر حاجة

الى هذا من ذى قبل . وقد تحولت الدقائق التى طلبتها منى الى نصف ساعة او اكثر .

وامسك ك يدها ثم معصمها ، وقال : ارجو الا تكونى قد غضبت منى ؟

فابعدت يده واجابت : لا ، لا ، لم اغضب قط من احد .

ومد يده من جديد الى معصمها ، فصبرت على ذلك هذه المرة ، وقادته الى الباب . وكان مصمما على ان ينصرف . فلما بلغ الباب ، وكانه لم يكن يتوقع ان يجد فى هذا الموضع بابا ، وقف ، فانتهزت الآنسة بورستنر الفرصة وافلتت ، وفتحت الباب وتسللت الى الحجرة الأمامية لتقول منها لـ ك بصوت خفيض :

ـ تعال الآن ، من فضلك . انظر ..

واشارت الى باب الضابط وكان ضوء ينفذ من تحته .

ـ لقد أضاء النور ليتحدث فى أمرنا .

وقال ك : انا آت .

ثم تقدم مسرعا وامسكها وقبلها على فمها ثم على وجهها كله ، وكانه حيوان ظمآن يدلى لسانه فى ماء عين يجده بعد طول ظمأ . واخيرا قبلها على رقبتها ، حيث الحلقوم ، وترك شفتيه عليها مدة طويلة .

وانبعثت ضوضاء من حجرة الضابط فرفع ك عينيه وقال : سأنصرف الآن .

واراد ان ينادى الآنسة بورستنر باسمها الصغير ، ولكنه لم يكن يعرفه .

واومأت الآنسة براسها واهنة ، وتركت له يدها يقبلها وقد اشاحت عنه قليلا كأنها لا تعلم بما يفعل ، وعادت منحنية الظهر الى حجرتها . وبعد قليل كان ك يرقد فى فراشه . واخذه النعاس بسرعة ، وفكر قبل أن يستغرق فى النوم تماما فى مسلكه هنيهة ، وكان راضيا عنه ، ولكنه اندهش لأنه لم يكن اكثـر رضاء به ، وساورته مخاوف شديدة على الآنسة بورستنر من ناحية الضابط .

الفصل الثانى

• التحقيق الأول

أبلغ ك تليفونيا بأن تحقيقا صغيرا سيجرى فى موضوعه فى يوم الأحد التالى . ولفت من أبلغه بهذا نظره الى ان هذه التحقيقات ستجرى بصفة منتظمة ، ربما ليس كل اسبوع ، ولكن بكثرة ، التحقيق تلو الآخر ، وان المصلحة العامة تقضى بالتعجيل بانهاء القضية من ناحية ، ومن ناحية ثانية يجب أن تكون التحقيقات عميقة من كل ناحية على ألا تدوم مدة طويلة بحال من الأحوال نظرا للجهد المتصل بها . وهذا هو السبب الذى أدى الى اختيار حل الالتجاء الى محاكمات قصيرة متتابعة بسرعة . كذلك كان مرجع اختياره يوم الأحد هو عدم تعطيل ك عن ممارسة عمله فى وظيفته . وقال له المتكلم انهم يتوقعون ان يكون موافقا على هذا فاذا كان يرغب فى موعد آخر ، فانهم سيحققون رغبته ، فى حدود الامكان . وقال ان التحقيقات من الممكن أن تجرى مثلا فى الليل ، الا ان ك لن يكون فى هذا الوقت نشيطا على نحو كاف . ولكنهم على اية حال سيبقون على يوم الأحد ، اذا لم يعترض ك . وقال له انه لابد ان يمثل أمام المحكمة ، وان هذا شىء ليس بحاجة الى التأكيد أو التنبيه . وذكر له رقم المبنى الذى عليه ان يذهب اليه وهو بيت فى شارع بأقصى المدينة متطرف ، لم يسلكه ك من قبل قط .

ووضع ك السماعة بعد ان تلقى هذا البلاغ ، دون ان يجيب بشيء . وكان على الفور مصمما على أن يذهب يوم الأحد ، فهذا شيء ضروري بكل تأكيد ، لأن القضية ستبدأ وينبغي عليه أن يتقدم لها ، ولأنه كان يعتقد أن هذا التحقيق الأول لابد سيكون هـــو التحقيق الأخير . وظل واقفا عند جهاز التليفون يفكر ، فسمع خلفه صوت نائب المدير ، جاء يتصل بالتليفون ووقف ك في سبيله وسأل نائب المدير ك عابرا :

ـ اخبار سيئة ؟ .

ولم يكن يسأل ليعرف شيئا ، ولكن ليبعد ك عن التليفون . وقال ك :

ـ لا . لا .

وابتعد الى جانب ، ولكنه لم ينصرف . وتناول نائب المدير السماعة وقال من فوق السماعة وهو ينتظر ان يتم الاتصال :

ـ عندي سؤال يا سيد ك : هل تتكرم وتسعدني صباح الأحد القادم بالاشتراك في حفـــلة سأقيمهـــا على مركبي الشراعي ؟ وسيشترك فيها جمع كبير ، سيكون من بينهم بلا شك معارفك ، ومنهم النائب العام هاسترر . هل تريد أن تأتي ؟ تعال .

وحاول ان ينتبه الى هذا الذى كان نائب المدير يقوله ، ولم يكن كلامه مجردا من الاهمية ، لأن هـذه الدعوة الموجهة من نائب المدير ، الذى لم يكن على تفاهم معه قط ، كانت تعنى محاولة تصالح من جانبه ، وكانت تبين الاهمية التى وصل اليها فى البنك ، وكيف ان صداقته أو على الأقل حياده شيء يبدو ذا قيمة فى نظر الرجل الثانى فى البنك . كانت هذه الدعوة تعتبر اذلالا لنائب المدير ، حتى ولو كان قد وجهها وهو ينتظر أن يتم اتصال تليفونى طلبه ، ومن فوق السماعة . ولكن ك اضطر الى ان يتبع هذا الاذلال اذلالا آخر ، فقال :

ـ شكرا جزيلا ! ولكن ليس لدى للأسف وقت يوم الأحد ، فهناك مهمة التزمت بها .

وقال نائب المدير :

ـ يا للأسف !

والتفت الى الحديث التليفونى ، الذى كان فى هـذه اللحظة قد اتصل ، كان الحديث التليفونى قصيرا ، ولكن ك بقى حتى نهايته واقفا بجانب الجهاز مشتت الفكر فلما ختم نائب المدير الحديث ، فزع ك وقال ملتمسا شيئا من العذر لبقائه بدون ما فائدة :

ـ لقد تلقيت لتوى مكالمة تليفونية تطلب منى ان اذهب الى مكان ما ، ولـكن المتكلم نسى أن يقول لى الساعة التى أحضر فيها .

وقال نائب المدير :

ـ فاتصل به لتسأل .

وقال ك : ليس هذا الأمر شديد الأهمية .

قال هذا على الرغم من ان اعتذاره السابق والذى كان فى حد ذاته معيبا ، يزداد بهذه العبارة ضعفا . وتكلم نائب المدير وهو فى طريق الانصراف عن امور اخرى غير الدعوة واكره ك نفسه على الاجابة ، ولكنه كان بصفة أساسية يفكر فى ان افضل شيء هو ان يذهب

الى هناك في الساعة التاسعة صباحا ، لأن المحاكم اعتادت في أيام الأسبوع العادية ان تبدأ فيها.

كان الجو يوم الأحد جوا معتما . وكان ك متعبا جدا لانه بقي في الحانة الى وقت متأخر بالليل لحفل أقامه رواد المنضدة التي اعتاد أن يجلس اليها . واوشك أن يضيع الموعد بالاستغراق في النوم . وارتدى ملابسه على عجل دون ان يكون لديه وقت ليفكر ولينظم مخططاته المختلفة التي توصل اليها أثناء الأسبوع ، وجرى دون أن يتناول طعام الأفطار الى الضاحية التي عينت له . ومن الغريب انه ، على الرغم من أنه لم يكن لديه وقت للتلفت حواليه ، التقى بالموظفين الثلاثة الذين اشتركوا في مسألته ، رابنشتاينر وكوليش وكامينر . كان الاثنان الأولان يركبان الترام الذى يقطع خطه طريق ك ، أما كامينر فكان جالسا في شرفة مقهى ، وانحنى في الوقت الذى مر فيه ك بالضبط فوق الدرابزين يتطلع اليه بفضول . ولا شك أن الثلاثة تابعوه بأبصارهم وتعجبوا من ان رئيسهم يجرى في الشارع فقد تملك ك عناد ما منعه من أن يستقل اى وسيلة من وسائل المواصلات ، لأنه كان يعاف كل مساعدة غريبة مهما صغرت في هذه القضية الخاصة به ، كذلك لم يشأ أن يستعين بأحد حتى لايكون عليه أن يحكى له شيئا عن المسألة مهما كان من الضآلة، ثم انه لم يحس أقل رغبة في ان يذل نفسه أمام لجنة التحقيق بان يحافظ على المواعيد في دقة مسرفة . ولكنه راح يجرى الآن ، في الطريق ليصل في الساعة التاسعة ما امكن ، على الرغم من أنه لم يكن قد استدعى لساعة بعينها .

كان ك قد فكر انه سيتعرف على البيت من بعيد بعلامة ما لم يتصورها بوضوح أو بحركة خاصة امام المدخل . ولكن شارع يوليوس الذى كان مفروضا ان يقوم فيه البيت ، والذى وقف ك عند بدايته لحظة ، كان يضم على جانبيه كليهما بيوتا توشك ان تكون متخذة على نمط واحد ، بيوتا عالية رمادية يسكنها فقراء

بالأجر . كانت معظم النوافذ فى هذا الوقت ، يوم الأحـد صـباحا غاصة بالناس ، برجال لا يلبسون شيئا فوق القمصان ويدخنون او يحملون بين أيديهم أطفالا صـغارا بحذروعطف عند حافةالنوافذ . وكانت هناك نوافذ أخرى ممتلئة الى أعلاها بفرش السراير وكانت تظهر من فوقها راس امراة منكوشة الشـعر . وكان الناس ينادى بعضهم البعض عبر الحارة ، وقد أدى نداء من هذا النوع ب ك الى ضحكة كبيرة . وكانت هناك فى الشـارع ، محلات بقالة مختلفة موزعة بانتظام ، منخفضة على مستوى الشارع ، يصل الناس اليها بهبوط درجات سلم قليلة . كانت النسـاء تدخل وتخرج أو تقف فوق الدرج وتثرثر . وجاء بائع فاكهة ينادى على بضاعته ويعرضها على من بالنوافذ ، واوشك ، فى شروده الذى يشـبه شرود ك ، ان يصدم ك بعربته ويقلبه . ثم بدأ جهاز جراموفون عتيق فى عزف شيء بطريقة قاتلة .

وتوغل ك فى الحارة ببطء ، كما لو كان عنده متسع من الوقت ، أو كما لو كان قاضى التحقيق يراه من نافذة من هذه النوافذ ويعلم أنه قد وصل . كانت الساعة تشير الى بعد التاسعة بقليل . كان البيت بعيدا بعدا واضحا ، وكان ممتدا امتدادا يوشـك أن يكون خارجا عن المألوف ، وكان المدخل خاصة عاليا واسعا ، ويبـدو أنه كان مخصصا لدخول الشـحنات المنقولة بسيارات النقل والخاصـة بالمحلات التجارية المختلفة ، التى تحيط بالفناء الكبير والتى كانت الآن مغلقة ، وكانت هذه المحلات تحمل لافتات باسم الشركات التى تملكها ، وكان ك يعرف عددا منها من عمله فى البنك . ووقف عند مدخل الفناء قليلا على خلاف عادته فى الاهتمـام بكل هـذه النواحى الخارجية اهتماما دقيقا . وكان هناك قريبا منه رجل حافى القدمين يجلس على صندوق يقرأ فى جريدة . وكان هناك صبيان يتأرجحان على عربة يد . ووقفت امام مضخة ماء بنت صغيرة السن ضعيفة البدن فى قميص النوم وكانت تنظر الى ك بينما انساب المـاء من

المضخة في الوعاء الذى أتت به . وكان في ركن من أركان الفناء حبل مد بين سباكين ، علقت عليه الملابس المغسولة لتجف . ووقف رجل في الفناء يدبر العمل من أسفل بصيحات يطلقها .

واتجه ك الى السلم . ليصل الى حجرة التحقيق ، ثم ما لبث ان وقف ساكنا ، لأنه رأى على هذا السلم مداخل ثلاثة أخرى توصل الى سلالم ، هذا بالاضافة الى ممر صغير بدا في نهاية الفناء وكأنما كن يوصل الى فناء ثان . واغتاظ ك لأنهم لم يبينوا له مكان الحجرة بالضبط ، لقد عاملوه باهمال أو استهتار عجيب ونوى على ان يذكر ذلك في التحقيق بوضوح وبصوت عال. واخيرا صعد الدرج وداعبت فكره ذكرى كلمة الحارس «ڤيلليم» اليه ان الذنب يجتذب المحكمة واستنتج من هذه الكلمة ان تكون حجرة التحقيق عند السلم الذى اختاره مصادفة .

وأقلق اثناء صعوده كثيرا من الأولاد كانوا يلعبون على السلم ، وتطلعوا اليه بالشر عندما شق صفهم . وقال في نفسه : « اذا حدث وكان على ان احضر الى هذا المكان مرة ثانية ، فلا بد أن احضر معى اما حلويات لأكسبهم بها أو عصا لأضربهم بها . » وكان عليه قبل الوصول الى الدور الأول أن يقف هنيهة الى ان تتم كرة من تلك التى كان الأولاد يلعبون بها مشوارها . وكان صبيان صغيران وجهاهما ملتويان كأوجه كبار الأشقياء يمسكان ببنطلونه في هذه الأثناء. ولو انه هزهما ليبعدهما عنه لأصابهما بأذى ، وكان يخشى صراخهما .

وبدأت عملية البحث الحقيقية في الدور الأول . ولما لم يكن ك يستطيع ان يسأل عن لجنة التحقيق ، فقد اخترع شخصية نجار أسماه لانتس ــ وقد خطر الاسم بباله لأن الضابط ابن أخى السيدة جروباخ كان يسمى بهذا الأسم ــ واراد أن يسأل في كل المساكن هل يسكن بها نجار اسمه لانتس ، ليتيح لنفسه امكانية التطلع داخل الحجرة . وقد تبين بعد ذلك أن التطلع داخل الحجرات أمر

ممكن حتى بدون ذلك في اغلب الأحوال ، لأن كل الأبواب تقريبا كانت مفتوحة ، وكان الاولاد يدخلون ويخرجون منها . كانت تلك الحجرات بصفة عامة حجرات صغيرة ، لها شباك واحد ، وكان السكان يطبخون طعامهم فيها أيضا . وكان بعض النساء بها يحملن على ذراعهن اطفالا رضعا ، ويعملن باليد الأخرى في الطهى . وكانت هناك بنات مراهقات لا يرتدين على ما يبدو سوى مرايل ، ويجرين هنا وهناك بمنتهى النشاط . وكانت هناك في كل الحجرات مضاجع ، مايزال بها بعض الناس ، كان يرقد بها مرضى او نيام ، أو اناس يمددون بكامل ثيابهم . وكان ك يقرع ابواب المساكن المغلقة ويسأل عما اذا كان النجار لانتس يسكن فيها . وكثيرا ماكانت امراة تفتح الباب وتسمع السؤال وتلتفت في الحجرة الى أحد فينهض من السرير وتقول له :

ـ هذا السيد يسأل هل يسكن هنا النجار لانتس ؟

ويسأل الناهض من السرير :

ـ النجار لانتس ؟

فيقول ك : نعم ... رغم انه تبين بدون شك أن لجنة التحقيق ليست هنا، وان مهمته هنا قد انتهت . وكان هناك كثيرون يصدقون أن ك مهتم جدا بالعثور على النجار لانتس ، وكانوا يطيلون التفكير ، ويذكرون اسم نجار آخر غير لانتس ، او يذكرون اسما بينه وبين لانتس شبه بعيد ، او كانوا يسالون عند الجيران أو يرافقون ك الى سكن بعيد يعتقدون انمثل هذا الرجل ربما يسكن فيه من الباطن أو أن فيه من يستطيع أن يعطى بيانات احسن من تلك التى يعرفونها . وفى النهاية اصبح لا يسال بنفسه الا قليلا ، واصبح يسير وراء مرشديه خلال الأدوار . وندم على خطته التى لاحت له فى أول الأمر عملية جدا . ولما بلغ مطلع الدور الخامس قرر أن يقطع عن البحث واستأذن من العامل الشاب اللطيف الذى اراد ان يقوده الى ما بعد ذلك ، ونزل . ثم مالبث ان غضب من ان

الجهدالجهيد الذىبذله لم يوصله الىنتيجة ، وعاد مرة اخرىوقرع اول باب فى الدور الخامس . كان اول شيء رآه فى الحجرةالصغيرة ساعة حائط كبيرة تشير الى الساعة العاشرة . وسأل :

ـ هل يسكن هنا نجار اسمه لانتس ؟

وقالت امرأة ذات عينين سوداوين لامعتين كانت منهمكة فى غسل ملابس طفل فى طشيت غسيل :

ـ هناك اذا سمحت .

واشارت بيدها المبتلة الى باب الحجرة المجاورة وكان مفتوحا. وظن ك وهو يدخل انه يدخل على اجتماع. كانت هناكمجموعة متزاحمة من الناس ـ لم يهتم أحد منها بالداخل ـ تملأ حجرة متوسطة السعة لها نافذتان ، ولها قرب السقف مباشرة دهليز يحيط بها ، كان هو أيضا يغص بالناس ، وكان من بالدهليز يقفون منحنين تلتصق بروؤسهم وظهورهم بالسقف . وخرج ك ثانية لأن هواء المكان كان ثقيلا عليه ، وقال للمرأة الشابة التى يبدو انها لم تحسن فهم سؤاله :

ـ لقد سألتك عن نجار اسمه لانتس ؟ فقالت :

ـ نعم ، ادخل من فضلك ؟

وربما لم يكن ليتبعها لو لم تتجه اليه المرأة وتمسك مقبض الباب وتقول :

ـ بعد أن تدخل سأقفل الباب فلا ينبغى أن يدخل آخر بعدك.

وقال ك : هذا شيء معقول جدا .

ثم دخل مرة اخرى .

كان هناك رجلان يتحادثان عند الباب مباشرة ـ وكان أحدهما يؤدى بيديه المبسوطتين الى بعيد حركة عد النقود ، وكان الآخر ينظر فى عينيه بحدة ـ امتدت من بينهما يد وامسكت ك . كانت تلك اليد يد شاب صغير احمر الوجنتين ، قال : تعال ، تعال ! وتركه ك يقوده ، وتبين أن هناك بين المجموعة المتزاحمة

الملاحقة طريق ضيق جدا ربما كان يفصل بين حزبين ، يؤيد ذلك الاحتمال أن ك لم يكد يجد فى الصفوف الأمامية يمينا وشمالا وجها يتجه اليه ، بل رأى ظهور رجال يتجهون باحاديثهم وحركاتهم الى اناس من حزبهم . كانت الغالبية ترتدى الملابس السوداء ؛ ترتدى اثوابا احتفالية طويلة قديمة فضفاضة تتدلى الى الأرض . كانت هذه الملابس هى الشيء الذى أذهل ك ، أما كل شيء عدا ذلك فقد اعتبره ك اجتماعا سياسيا للحى .

اما النهاية الأخرى للقاعة التى اقتيد ك اليها ، فكانت فيها منضدة صغيرة قائمة بانحراف على منصة منخفضة تغص هى الأخرى بالناس ، وجلس وراء المنضدة قرب حافة المنصة رجل قصير سمين لاهث كان فى تلك اللحظة يتحدث ضاحكا ضحكة عالية الى رجل يقف خلفه كان يسند كوعه على مسند الكرسى الوثير ويعقد ساقيه . وكان الرجل أحيانا يقذف ذراعه فى الهواء وكأنه يرسم صورة كاريكاتورية لبعض الناس . ووجد الشاب الذى ساق ك الى هذا المكان صعوبة كبيرة فى ابلاغ الخبر . فقد شب مرتين على أطراف أصابعه وحاول أن يعلن شيئا ولكن الرجل الجالس فوق المنصة لم يلتفت اليه . ولم يلتفت اليه الا بعد أن وجهه أحد الواقفين فى المنصة الى الشاب ، فانحنى اليه واستمع الى بلاغه الذى قاله له بصوت خفيض . ثم أخرج الرجل ساعته ونظر بسرعة الى ك وقال : كان ينبغى عليك أن تكون هنا قبل ساعة وخمس دقائق .

أراد ك أن يجيب بشيء ، ولكنه لم يجد فرصة لذلك ، اذ ما كاد الرجل يتكلم ، حتى علت همهمة عامة فى الجزء الأيمن من القاعة . وأعاد الرجل كلامه بصوت أعلى : كان ينبغى عليك أن تكون هنا قبل ساعة وخمس دقائق .

ثم خفض عينيه الى القاعة بسرعة . وفى الحال اشتدت الهمهمة بها ، ولم تنته الا تدريجيا ، لأن الرجل كف عن الكلام .

وخيم الآن على القاعة سكون اكثر من السكون الذى كان يخيم عليها عندما دخل ك . الا اولئك الذين وقفوا فى الدهليز لم يكفوا عن بث التعليقات . وبدا هؤلاء الناس ، على قدر ما أمكن الاستدلال فى وسط الغيام والدخان والغبار ، يرتدون ثيابا أقبح من ثياب من تحتهم . وكان من بينهم من احضر شلتة وضعها بين راسه وبين السقف حتى لا تصاب راسه بجروح من فرط الضغط والاحتكاك بالسقف .

كان ك قد قرر أن يلاحظ اكثر مما يتكلم ، ولهذا صرف النظر عن أن يدفع عن نفسه تهمة التأخر المزعوم ، واكتفى بالقول : اذا صح اننى تأخرت فى الحضور ، فأنا على أية حال الآن هنا .

وتبع ذلك من الجانب الأيمن ذاته تصفيق استحسان . وفكر ك :«هؤلاء اناس من السهل استمالتهم »،ولم يقلقه الا السكون فى الجانب الأيسر من القاعة ، وهو الجانب الذى كان خلفه مباشرة والذى لم يرتفع فيه الا تصفيق فردى قليل . وفكر فيما يمكنه أن يقوله ليستميل الجميع دفعة واحدة ، أو ان لم يمكن هذا ، فليستميل الآخرين على الأقل من حين لآخر .

وقال الرجل : نعم ، ولكنى لم أعد ملتزما الآن بأخذ اقوالك .

وعادت الهمهمة وكانت هذه المرة غير مفهومة لأن الرجل استمر وقد أشار الى الناس بالصمت .

ـ ولكنى سأفعل ذلك اليوم فقط على سبيل الاستثناء . ولا ينبغى أن يتكرر مثل هذا الغياب مرة اخرى . والآن تقدم !

وقفز أحدهم تاركا المنصة وبهذا أصبح فيهامكان خال لـ ك ، وتسلق ك اليه . ووقف ملتصقا بالمنضدة ، وكان الجمع المتزاحم خلفه كبيرا حتى انه كان عليه أن يقاوم ضغطه حتى لا يقلب منضدة قاضى التحقيق بل وربما القاضى نفسه من المنصة .

ولم يكن قاضى التحقيق يهتم بهذا ، بل كان يجلس مطمئنا

مرتاحا فى كرسيه الوثير ويتناول ، بعد أن قال للرجل الواقف خلفه كلمة ختامية ، كراسة مذكرات هى كل ما على المنضدة . كانت هذه الكراسة من نوع كراسات المدارس ، قديمــــة ، لا شـــكل لها من شدة التقليب فيها .

وقال قاضى التحقيق : هكذا !

وقلب فى الكراسة ثم اتجه بنبرة التقرير الى ك سائلا : انت مبيض حيطان ؟

وقال ك : لا . بل انا وكيل ببنك كبير .

وتبع هذه الاجابة فى حزب اليمين بالقاعة ضحك كان خالصا لدرجة ان ك اشـــترك فيه . واســـتند الناس بأيديهم على ركبهم وظلوا ينتفضون من الضحك كما ينتفض الانسان عندما تصيبه أزمات السعال . بل كان هناك من بين من فى الدهليز من اشترك فى الضحك . وحاول قاضى التحقيق ، الذى استبد به الغضب ، وبدا كأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا ضد النـــاس فى القـــاعة ، أن ينتقم ممن بالدهليز ، فهب واقفا ، وهدد من بالدهليز وتدلت فى هذه الأثناء حواجبه التى لم تكن تلفت النظر عادة ، كثيفة سوداء ضخمة فوق عينيه .

وكان نصف القاعة اليسارى ما يزال ساكنا . كان الناس فيه يقفون صفوفا ، يوجهون وجوههم ناحية المنصة ، وينصتون الى الكلمات ، التى يتبادلها من فوقهم بهدوء مثل الهدوء الذى ينصتون به الى صخب الحزب الآخر ، بل ويسمحون بأن يشترك أفراد من بينهم مع الحزب الآخر من حين لآخر فى بعض التصرفات . ولعل أصحاب الحزب اليســـارى ، الذين كانوا أقل عـــددا ، كانوا فى الحقيقة ونفس الأمر مجردين من الأهمية مثلهم مثل أصحاب الحزب اليمينى ، ولكن هدوءهم فى التصرف جعلهم يظهرون أكثر اهمية . فلما بدأ ك الآن فى الكلام ، كان موقنا من أنه يتحدث فى اتجاههم .

وقال ك : السؤال الذى وجهته إلى ، يا سيادة قاضى التحقيق ،

هل انا مبيض حيطان ـ او بعبارة اصح القرار الذى قررته ، فانت لم تسال ، بل قررت ذلك من اعلا منصتك تقريرا ـ شىء مميز لطريقة التحقيق الذى يجرى ضدى كله . ويمكنك أن تعترض على كلامى بأن هذا التحقيق ليس تحقيقا على الاطلاق ، وستكون على حق فى هذا فهو لا يعتبر تحقيقا الا عندما أعترف انا بانه تحقيق . وانا فى هذه اللحظة عندما اقرر بانه تحقيق لا افعل ذلك الا على سبيل الشفقة او نحو ذلك . فما يمكن أن يحس الانسان حيال هذا التحقيق الا بالشفقة ، اذا شاء أن ياخذه فى الاعتبار . وانا لا اقول أن هذا التحقيق دنىء ، ولكنى أضع أمامكم كلمة دنىء هذه لتتعرفوا بانفسكم على هديها على الأمر .

وقطع ك كلامه ونظر الى القاعة تحته . كان كل ما قاله حادا ، اشد حدة مما كان هو نفسه ينوى ، ولكنه كان صحيحا . وكان يستحق أن ينال استحسانا من هنا أو هناك ، ولكن الجميع كانوا سكوتا ، ويبدو انهم كانوا ينتظرون البقية مشتاقين ، وربما كان هناك فى هذا السكون انفجار يتأهب ليضع لكل شىء نهاية . وفجاة حدث شىء مقلق ، فقد انفرج الباب فى نهاية القاعة ودخلت منه الغسالة الشابة التى يبدو انها كانت قد فرغت من الغسيل ، فاجتذبت نظرات البعض اليها ، رغم الحيطة التى اخذت نفسها بها . الا قاضى التحقيق ، فقد فعل ما أثلج صدر ك ، أذ تصرف على نحو يوحى بأن الكلمات مسته فى الحال . كان حتى تلك اللحظة يستمع وهو واقف ، لأن خطاب ك فاجأه ، ولم يكن قد استعد الا للدهليز واهله . اما الآن فقد بدأ يجلس تدريجيا ، كانما أراد الا يلحظ جلوسه أحد . وتناول الكراسة الصغيرة من جديد .. تناولها على ما يبدو ليهدىء بها تعبير وجهه .

واستمر ك فى الكلام : لن يفيدك هذا شيئا ، حتى كراستك يا سيادة القاضى تؤكد ما اقوله .

وقد تملك ك الرضا لأنه لم يكن يسمع فى هذا الاجتماع الغريب سوى كلماته الهادئة ، وأخذته الجراة فأخذ من قاضى التحقيق الكراسة ، ورفعها الىأعلى ممسكا بورقةمن وسطها بأطراف اصابعه كأنما يعافها ، بحيث تدلت من الجانبين الأوراق المبقعة ،المصفرة الحافة ، المكتوبة كتابة ضيقة . وقال وهو يترك الكراسة تسقط على المنضدة :

ــ هذه هى ملفات قاضى التحقيق ! استمر فى القراءة فيها يا سيادة قاضى التحقيق ما شئت ، فأنا لا اخاف، فعلا من هـذا الذنب ، على الرغم من اننى لا اعرف ما هو ، ولهذا فأنا لا أستطيع ان امسك صحيفته الا باصبعين ولن امسها بيدى .

وامسك قاضى التحقيق بالكراسة الصفيرةبعد ان وقعت على المنضدة ، ورتبها ما استطاع واخرجها ليقرامنها،ولا يمكن أن يكون هذا الا دلالة على الاذلال العميق الذى أصابه ، أو ما ينبغى أن يفهم تصرفه هذا الا على انه دلالة على الاذلال العميق .

كانت اوجــه النــاس فى الصــف الأول موجهــة الى ك فى شــغف ، فتطــلع ك اليهم هنيهــة . كانوا جميعــا رجالا متقــدمين فى السن ، وكان بعضــهم ذوى لحى بيضاء . هل كان هــؤلاء يا ترى هم أصــحاب القــول الفصــل ، الذين يستطيعون أن يؤثروا على الجمع كله ، ذلك الجمع الذى لم يخرج حتى بعد اذلال قاضى التحقيق عن البلادة التى هوى اليها بعد خطاب ك ؟

واستمر ك فى الكلام بصوت اكثر انخفاضا عن ذى قبل وهو يتفحص وجوه الصف الأمامى ليرى تأثير كلامه المتسم بشىء من الشدة فيها : ان ما حدث لى ، هو حالة فردية لا اكثر ، ولهـذا فهو ليس عظيم الأهمية ، خاصة واننى لا احمله محملا صعبا ، ولكنه مع ذلك دليل على أن الطريقة التى اتبعت معى طريقة تتبع مع كثيرين . وانا هنا اقف من اجل هؤلاء لا من أجلى .

ورفع ك صوته دون عمد . وصفق فى مكان ما رجل رفع يديه اثناء ذلك وصاح : احسنت ! ولم لا ؟ احسنت ، احسنت !

اما الجالسون فى الصف الأول فقد مدوا أصابعهم الى لحاهم ولم يلتفت أى منهم الى الخلف بسبب هذه الصيحة . كذلك ك لم يعلق عليها اهمية وان كان قد ازداد بها شجاعة . واصبح الآن لا يجد من الضرورى أن يصفق الجميع له بالاستحسان .. كان يكفيه ان يرى ان الراى العام بدا يفكر فى الموضوع وان هناك من يمكن اجتذابه بالاقناع فى بعض الأحيان لا فى كلها .

وقال ك استنادا على هذه الفكرة التى طرات له : لست أريد ان القى نجاح الخطباء ، ولعله شيء لا سبيل عندى لنيله . والظاهر ان السيد قاضى التحقيق يخطب احسن بكثير منى ، فهذا شيء من صميم مهنته . ان ما أريده هو المناقشة العامة لفساد عام . اسمعوا : لقد اعتقلت منذ نحو عشرة أيام ، وأنا أضحك من واقعة الاعتقال فى حد ذاتها ، ولكن هذا الضحك شيء لامكان له هنا. لقد فوجئت بهجوم على وانا فى الفراش فى وقت مبكر ، ربما كان لدى من اعتقلونى أمر ـ وهذا شيء لم يعد بناء على ما قاله السيد قاضى التحقيق مستبعدا ـ باعتقال مبيض حيطان لعله برىء مثلى تماما ، فاختارونى انا . كانت الحجرة الجانبية يشغلها اثنان من الحراس الغلاظ ، ولو كنت انا واحدا من قطاع الطرق الخطيرين ، لكان من الواجب ان اعامل معاملة أفضل من المعاملة التى عاملونى بها . لقد كان هذان الحارسان علاوة على ذلك من الرعاع عديمى الأخلاق ، فملأ اذنى بالكلام الفارغ وارادا أن أقدم لهما رشوة ، وارادا ان يأخذوا منى ملابسى بالحيلة بعد أن سردا على من الادعاءات ما سردا ، وارادا ان يبتزا منى المال بحجة احضار افطار لى بعد ان التهما طعام إفطارى بلا حياء امام عينى . ولم ينته ما فعلوه بى عند هذا الحد . لقد اخذونى الى حجرة ثالثة لامثل امام المفتش . كانت

تلك الحجرة حجرة آنسة اقدرها جدا ، وكان على أن ارى كيف دنست الحجرة بسببى ، بدون ذنب منى ، نتيجة لوجودى ووجود الحارسين والمفتش بها . لم يكن من السهل ان يبقى الانسان هادئا . ولكنى تمكنت من البقاء هادئا ، وسالت المفتش بمنتهى الهدوء ـ ولو كان هنا لأكد كلامى ـ عن سبب اعتقالى . فبماذا اجاب هذا المفتش الذى اراه الآن فى مخيلتى وهو جالس فى الكرسى الاثير الذى يخص الآنسة المذكورة جلوسا يمثل به العجرفة السخيفة ؟ سادتى ، لم يجب فى الحقيقة بشىء ، ربما لم يكن بالفعل يعلم السبب ، لقد اعتقلنى ورضى باعتقالى . لا لقد فعل اكثر من هذا ، فقد ادخل فى حجرة هذه الآنسة ثلاثة موظفين حقراء من البنك الذى أعمل به ، عمدوا الى لمس صور فوتوغرافية هى ملك الآنسة ، والى احداث الاضطراب فيها . كان وجود هؤلاء الموظفين يرمى الى هدف آخر طبعا . كان عليهم هم وصاحبة البنسيون وخادمتها أن يشيعوا خبر اعتقالى ، وأن يضروا بسمعتى العامة وأن يهزوا مكانتى فى البنك بصفة خاصة . ولكنهم لم يوفقوا فى اى شىء من هذا اقل توفيق ، حتى صاحبة البنسيون التى اسكن لديها ، وهى انسانة بسيطة جدا ـ وسأذكر اسمها هنا بالتشريف ، السيدة جروباخ ـ حتى السيدة جروباخ كانت من الفطنة بحيث فهمت أن هذا الاعتقال لا يعنى اكثر من تهجم من نوع التهجم الذى يقوم به صبية الحارة الذين لا يجدون من يرعاهم . انا اكرر : ان ما حدث لى من جراء الموضوع كله لا يتجاوز ضروبا من الحرج والغضب العابر . أما كان من الممكن أن يؤدى الى نتائج ازكى بكثير ؟

فلما سكت ك هنا ، ونظر الى قاضى التحقيق الساكن ، ظن انه لاحظ أن القاضى أعطى بنظرة منه اشارة الى واحد فى الجمع المتزاحم . فابتسم ك وقال :

ـ والآن يعطي قاضي التحقيق وهو بجواري واحدا منكم اشارة سرية ، وهذا يعني ان فيكم اناس يوجهون من هنا ، يوجهون من أعلا . ولست أعرف هل ستؤدي هذه الاشارة الى عاصفة من الاستحسان او الى عاصفة من الاستنكار . وانا أتخلى عامدا بعد ان كشفت أمرها من قبل أن تجرى ، عن معرفة النتيجة التى كانت ستؤدى اليها . فهذا شيء لا يهمنى على الاطلاق ، وانا اخول للسيد قاضي التحقيق علنا حق اصدار الأوامر الى موظفيه المأجورين لا باشارة سرية بل بكلمات واضحة ، بأن يقول مثلا : صفروا الآن ! او يقول : صفقوا الآن ! .

وتحرك قاضي التحقيق هنا وهناك فى كرسيه الوثير ، اما عن حيرة وارتباك واما عن فقدان صبر ، وانحنى عليه الرجل الواقف خلفه والذى كان قد تكلم معه من قبل ، مرة ثانية اما ليشجعه بصفة عامة واما ليقدم اليه نصيحة خاصة . اما الناس فى القاعة فكانوا يتحدثون بصوت منخفض ولكن بهمة ، واختلط الحزبان اللذان كان يبدو من قبل أن رأييهما مختلفان كل الاختلاف ،وأشار بعض الأفراد متفرقين الى ك باصبعهم ، وأشار البعض الآخر الى القاضي.كان الدخان المخيم كالضباب يعوق الأبصار فى الحجرة الى أقصى درجة ، حتى انه كان يحول حتى دون ملاحظة دقيقة للواقفين الى بعيد . ولابد ان هذا الدخان كان يضايق رواد الدهليز بصفة خاصة ، وكانوا مضطرين ، بالطبع وهم ينظرون مترددين متلصصين الى القاضي ، الى توجيه أسئلة بصوت منخفض الى المشتركين فى الاجتماع ، ليلموا بمعلومات ادق عن مجريات الأمور . وكانت الاجابات توجه اليهم بصوت منخفض كذلك ومن وراء اليدين المتخذتين كحاجز ساتر .

وقال ك : لقد أوشكت على الختام .

وضرب بقبضته على المائدة فلم يكن هنـــاك جرس لحفظ النظام . فتباعدت راسا القاضي ومستشاره فى فزع ، وقال ك :

ـ الموضوع كله لا صلة بيني وبينه ، ولذلك فأنا أحكم عليه في هدوء ، ويمكنكم اذا كنتم فى هذه المحكمة المزعومة تهتمون بشيء، ان تفيدوا فائدة كبيرة من الانصات الى ما اقوله . أما مناقشاتكم المتبادلة فيما بينكم بخصوص ما أعرض له من أمور ، فأرجوكم أن تؤجلوها الى وقت آخر ، فليس لدى وقت واريد أن انصرف بعد قليل .

وساد السكون فى الحال ، فقد تمكن ك من الســـيطرة على الجمع المجتمع بسرعة . لم يعد هناك من يتصايحون فى اضطراب كما كانت الحال فى مبدأ الأمر ، بل لم يعد هناك حتى من يصفق للاستحسان ، ولـكن النـــاس بدوا مقتنعين أو فى طريقهم الى الاقتنـــاع .

وقال ك بصوت منخفض جداً لأن الانصات المتلهف من جانب الحاضرين جميعا كان يسره ، وكان الصوت المنخفض يحدث وسط السكون حفيفا يثير حماس المتكلم أكثر مما يفعل اعنف استحسان:

ـ ليس من شك ، فى أن وراء تصرفات هذه المحكمة فى موضوعى أعنى وراء اعتقالى ووراء التحقيق الذى يجرى معى اليوم ، منظمة كبيرة . منظمة لا تشغل الحرس المرتشين والمفتشين والقضـــاة التافهين لذين قد يتصفون فىاحسن الظروف بالتواضع ، فحسب بل تستعين علاوة على ذلك بقضاء عال وقضـــاء من أعلى درجة وحاشية ضخمة لا مفر منها ، لا يحصيها العد من خدم وكتبـــة وعسكر ومساعدين ، وربما من الجلادين ، وأنا لا اتردد عن نطق هذه الـكلمة . وما هو هدف هذه المنظمة يا حضرات الســـادة ؟ هدفها يتلخص فى اعتقال الأبرياء واجراء تحقيق معهم لا معنى

له وغالبا ما يكون هذا التحقيق ، كما فى حالتى ، بلا نتيجة .. وكيف يمكن وقد اتسم الـكل فى مجموعه بالسخف تحاشي أقبح فساد للموظفين ؟ هذا محال ، وما يمكن حتى لأسـمى قاض ان يحققه فى نفسه . ولهذا يحاول الحراس ان ينتزعوا من المعتقلين ملابسهم من ابدانهم ، ولهذا يعتدى المفتشون على حرمات المساكن الغريبة ، ولهذا تخنق الجماعات الـكاملة أناسا أبرياء وتفضل ذلك على أن تحقق معهم . ولقد تحدث الحارسان الى عن قسم الأمانات الذى يودع فيه المعتقلون متاعهم ، وكم أود لو رايت أماكن الأمانات تلك ، التى يتعفن فيها مال المعتقلين الذى كسبوه بجهد جهيد ، اذا لم يكن موظفو قسم الأمانات اللصوص قد سرقوه .

وانطلقت صيحة من نهاية القاعة قطعت على ك كلامه ، فظلل عينيه بيديه ليتمكن من الرؤية ، لأن ضوء النهار المعتم كان يصبغ دخان القاعة بلون أبيض ويحول دون الرؤية .

راى ك الغسالة التى تبين بعد دخولها القاعة بقليل انها تمثل اقلاقا جوهريا ، ولم يكن من الممكن أن يعرف الآن هل كانت هى المذنبة أم لم تكن . كل ما رآه ك أن رجلا جـذبها الى ركن من الأركان عند الباب وضمها الى صدره هناك . ولم تكن هى التى صاحت ، بل الرجل ، الذى كان يفغر فاه ، وينظر الى السقف . وتجمع بعض الناس فى دائرة صغيرة حول الاثنـين ، وبدا رواد الدهليز كأنهم متحمسين لما حدث لأنه وضـع حدا للجد الذى أدخله ك فى الاجتماع . واراد ك تحت ضغط الانطباع الأول أن يجرى من القاعة على الفور ، ولعل الجميع كانوا مهتمـين بأن يسود النظام وان يخرج الاثنـان من القاعة ، ولـكن الصفوف الأمامية قباله ظلت جامدة ، فلم يتحرك منها أحد ، ولم يفسح أحد منها سبيلا أمام ك . بل العكس لقد عاقوه عن الحركة ، ورفع كبار السن أذرعتهم لحجزه ، وامتدت يد ما من الخلف ، لم يعرف

ك لمن كانت ـ فلم يكن لديه وقت لينظر خلفه ـ وأمسكت بياقته.
ولم يعد ك يفكر أساسا فى الرجـــل والمرأة ، بل كان يحس كأن
حريته حددت ، كأن الناس يجدون فى أمر اعتقـــاله ، وقفز من
المنصة الى القاعة تحته دون أن يأخذ اعتبارا لأى شىء . وهـكذا
وقف وجها لوجه أمام الجمع المتراحم . هل أصاب فى حكمه على
الناس ؟ هل نسب الى خطبته تأثيرا أكبر مما كان لها ؟ هل كان
الناس أثناء كلامه قد تحوروا ، ثم سئموا التحور الآن عندما وصل
الى الاستنتاجات النهائية ؟ ماهذه الوجوه المحيطة به ! عيون صغيرة
سوداء تتلصص هنا وهناك ، وجنات تتدلى الى أسفل كوجنات
السكارى ، لحى جامدة هزيلة لو مد الانسان أصابعه فيها ، لـكان
كمن يصنع المخالب ، لا كمن يدس أصابعه فى لحى . وأكتشف ك
تحت اللحى ـ وهـــذا هو الاكتشاف الحقيقى الذى قام به ك ـ
شـــارات تلمع فوق ياقات الثياب ، شـــارات مختلفة الألوان
والأحجام . كانوا جميعا ، على قدر ما كان الناظر يرى، يحملون هذه
الشارات. كانوا جميعا جماعة واحدة ، بالحزبين الظاهريين يمينا
ويسارا . وعندما التفت ك الى الخلف فجأة رأى نفس الشـــارات
على ياقة قاضى التحقيق الذى جلس واضعا يديه فى حجره وينظر
الى أسفل بهدوء . وصاح ك : هكذا ! ..

ورفع ذراعيه الى أعلى ، فقـــد كان الاكتشاف الجديد الذى
اكتشفه يريد براحا : لقد عرفت الآن انكم جميعا موظفون ، انكم
انتم العصابة الفاسدة التى كنت أهاجمها ! لقد تزاحمتم هنا فى
هيئة المستمعين المشمشمين ، وكونتم أحزابا ظاهرية ، وصفق
حزب منكم ليمتحننى ، لقد أردتم ان تتعلموا كيف يـكون المكر
بالأبرياء ! ولم يكن وجودكم هنا ، على ما آمل ، بغير فائدة ، فاما
انكم تحدثتم فيما بينكم فى أن أحدا توقـــع منكم أن تدافعوا عن
البراءة ، واما ـ دعنى والا ضربتك !

بهذه العبارة صاح ك في وجه شيخ مرتعد كان قد اندفع قريبا منه :

ــ واما انكم قد تعلمتم بالفعل شيئا . واتمنى لكم أن تسعدوا به في صنعتكم .

وتناول ك قبعته بسرعة ، وكانت على حافة مائدة هناك ، واندفع وسط سكون شامل ، وهو سكون المفاجاة الكاملة ، الى باب الخروج . ويبدو أن قاضي التحقيق كان أسرع من ك ، لأنه كان ينتظره بالباب . وقال القاضي : لحظة من فضلك !

ووقف ك ولكنه لم يتطلع الى قاضي التحقيق ، بل الى الباب الذي أمسك بمقبضه . وقال قاضي التحقيق :

ــ لم أرد الا ان ألفت نظرك الى أنك اليوم ــ ولعل هذا لم يتضح لك بعد ــ قد تجردت من التفوق الذي يضفيه الاستجواب على المعتقل في كل حال .

وضحك ك للباب وصاح : يا أنذال ، أنا متنازل لكم عن الاستجوابات كلها ! .

وفتح الباب ونزل الدرج مسرعا ، وثار بعد خروجه ضجيج في هذا الاجتماع الذي عاد الى سابق حيويته والذي كان على ما يبدو يناقش الوقائع على طريقة التلاميذ .

الفصل الثالث

• فى قاعة الاجتماع الخالية
• الطالب
• مكاتب المحكمة

وانتظر ك طوال الأسبوع التالى من يوم الى يوم أن يأتيه بلاغ جديد ، ولم يكن يستطيع أن يصدق أنهم أخذوا كلمته فى التنازل عن الاستجوابات بمعناها الحرفى . ولما لم يأت البلاغ حتى مساء السبت ، اعتبر نفسه مدعوا فى صمت للمثول فى الوقت نفسه وفى المكان نفسه . ولهذا ذهب يوم الأحد الى هناك مرة ثانية ، ولم يتعثر هذه المرة لا فى السلالم ولا فى الأروقة . وحياه بعض الواقفين بأبوابهم ممن تذكروه ولكنه لم يكن فى حاجة الى السؤال والاستعلام ، بل ذهب مباشرة الى الباب المطلوب . فلما قرع الباب ، انفتح على الفور ، وأراد أن يذهب الى الحجرة المجاورة مباشرة دون أن يلتفت الى المرأة التى يعرفها والتى ظلت واقفة عند الباب . وقالت المرأة : لن تنعقد اليوم جلسة ! .

وسأل ك وهو لا يريد أن يصدقها : ولم لا تنعقد اليوم جلسة ؟ ..

واقنعته المرأة بذلك بأن فتحت له باب الحجرة الجانبية .. كانت الحجرة بالفعل خالية وكانت تبدو وهى خالية أكثر بؤسا مما بدت يوم الأحد الماضى . ورأى ك فوق المائدة التى ظلت فى

مكانها دون تغير ، بعض الكتب . وسأل ك : هل يمكن أن اشاهد هذه الكتب ؟.

لم يسأل هذا السؤال عن فضول وانما لأنه لم يرد أن يكون قد اتى الى هنا دون ما فائدة . وقالت المرأة : لا .

واغلقت الباب وأضافت : هذا شيء غير مسموح به . فالكتب ملك لقاضي التحقيق .

فقال ك : هكذا !

وأومأ برأسه ثم أردف : هذه الكتب بلا شك كتب قانونية ، ويبدو ان اسلوب هذه المحكمة ليس فقط ادانة الانسان بريئا ولكن ادانته جاهلا أيضا .

وقالت المرأة دون أن تفهمه تماما : لا بد أن الأمر كذلك .

وقال ك : اذن فلأذهب الآن من حيث اتيت .

وسألت المرأة : هل تحب أن ابلغ السيد قاضي التحقيق شيئا ؟

وسأل ك : هل تعرفينه ؟

فقالت المرأة : طبعا ، فزوجي خادم بالمحكمة .

وتبين ك الآن ، والآن فقط ، أن الحجرة التى لم يكن بها فى المرة الماضية سوى طست غسيل حجرة مؤثثة ، كاملة التأثيث .
ولاحظت المرأة دهشته وقالت : نعم ، ان لنا سكنا مجانيا هنا ، ولكن علينا فى أيام انعقاد الجلسات أن نخلى الحجرات ، ووظيفة زوجى لها كما ترى بعض العيوب. وقال ك وهو ينظر اليها غاضبا:

ـ لست أدهش من الحجرة بقدر ما أدهش لأنك متزوجة ! .

وسالت المرأة : هل تراك تشير الى واقعة الجلسة الماضية التى عطلتك بها وأن تلقى كلمتك ؟ .

فقال ك : طبعا ، واليوم انتهت هذه الواقعة وواراها النسيان تقريبا ، ولكنها فى ذلك الوقت غاظتنى غيظا شديدا . وهاأنتذى تقولين بلسانك إنك متزوجة .

وقالت : لم تكن مقاطعتى كلمتك آنذاك فى غير صالحك . فقد كان الحكم الذى تكون فيما بعد بشأنك ضدك .

فقال ك مبعدا الانتباه عن هذا الموضوع : ربما ، ولكن هذا لا يصلح عذرا لك .

فقالت المرأة : انما يعذرنى كل من يعرفونى ، هـذا الرجل الذى عانقنى فى ذلك اليوم ، رجل يلاحقنى منذ وقت طويل .. وربما لم أكن بصفة عامة امرأة مغرية جذابة ، ولكنى هكذا بالنسبة له . وليس هناك سبيل لحمايتى منه . حتى زوجى قبل هـذا الوضع . ومادام يريد أن يبقى على وظيفته ، فعليه ان يرضى به ، لأن هذا الرجل طالب وينتظر له أن يصل الى سلطة كبيرة . انه دائما يلاحقنى ، حتى اليوم ، قبل أن تأتى بقليل ، كان عنـدى وانصرف .

وقال ك : هذا شيء ككل شيء عندكم وليس فيــه غرابة أو مفاجأة لى :

وسألت المرأة ببطء وتمعن : لعلك تريد أن تصلح بعض الأمور هنا ؟ ..

وكانت كأنما تقول شيئا خطيرا على ك ، خطيرا عليها ثم قالت :

ـ لقد استنتجت هذا من خطبتك التى أعجبتنى أنا شخصيا. على اننى لم اسمع من خطبتك الا جزءا فقط،اذ فاتنى منها أولها، وفى ختامها كنت راقدة مع الطالب على الأرض .

ثم قالت بعد هنيهة : الأمور هنا منفرة !

وامسكت بيد ك ، ثم قالت : هل تعتقد انك ســـتوفق فى احداث شيء من الاصلاح ؟

وابتسم ك وقلب يده قليلا فى يديها الناعمتين ، ثم قال :

ـ فى الحقيقة انه ليس من شأنى أن أنفذ اصلاحات هنا كما تقولين ، ولعلك لو قلت ذلك لقاضى التحقيق مثلا تلقين منـــه السخرية أو العقوبة . والحقيقة اننى لم ادس نفسى فى هذه الأمور طائعا مختارا ، وما كانت حاجة هذه المحكمة الى الاصلاح لتقض مضجعى . ولــكنى اضطررت للتدخل نظرا لمـا زعـــم من اننى معتقل ـ فأنا كما يقولون معتقل ـ اضطررت للتدخل بسببى انا . ولكنى ، اذا كنت استطيع أن أفيدك بشيء ، مستعد عن طيب خاطر لفعله . وأنا لن أفعل ذلك اتبــاعا لوصيـــة حب الآخرين فحسب ، ولكن لأنك تستطيعين مساعدتى أيضا .

وسألت المرأة : وكيف يمكنني مساعدتك ؟

فقال : بأن تطلعيني مثلا على الكتب التي على المنضدة هناك.

فصاحت المرأة وجذبته وراءها مسرعة أشد سرعة : أفعل بكل تأكيد ! .

كانت تلك الكتب كتبا هالكة ، وكان غلاف أحدها في الوسط محطما تحطيما يوشك أن يكون كاملا ، وكانت قطعة معلقة بعضها بالبعض بواسطة خيوط .

وقال ك وهو يهز رأسه : ما أقذر كل شيء هنا !

ونظفت المرأة بمريلتها التراب من الكتب على الأقل سطحيا قبل أن يمد ك يده اليها . وفتح ك الكتاب العلوي ، فلاحت له صورة فاجرة فيها رجل وامرأة يجلسان عاريين على أريكة ، وكان هدف الرسام الدنيء واضحا للعيان ، ولكن سوء مهارته كان من الشدة بحيث لم يظهر في الصورة سوى رجلا وامرأة ، يبرزان منها كجسدين ، ويجلسان جلسة معتدلة مفرطة في الاعتدال ، وينظر أحدهما الى الآخر في عسر شديد لخطأ تصميم المنظور . لم يستمر ك في التقليب في الكتاب ، بل فتح صفحة العنوان في الكتاب التالي ، فاذا هي رواية بعنوان : « الآلام التي كان على جريته أن تعانيها من زوجها هانس » .

فقال ك : هذه هي كتب القانون التي تدرس هنا ! وهؤلاء الناس هم الذين يحاكمونني !

وقالت المرأة : سأساعدك

فقال ك : اتريدين مساعدتي ؟ هل تستطيعين فعلا مساعدتي دون أن تزجي بنفسك في الخطر ؟ لقد قلت منذ قليل أن زوجك خاضع لرؤسائه اشد الخضوع .

فقالت المرأة : ورغم ذلك فانا لا اخاف الخطر الا حيث أريد ان اخافه . تعال ! .

واشارت الى المنصة ورجته ان يجلس معها على الدرجة الموصلة اليها . وقالت بعد ان جلسا وهى تنظر الى وجه ك من اسفل :

ـ ان لك عينين سوداوين جميلتين ، والناس يقولون لى ان عينى جميلتان ايضا ، ولكن عينيك اجمل بكثير من عينى . وقد لفتا نظرى على الفور عندما رأيتك للمرة الأولى تدخل هنا . وكانتا هما السبب الذى من اجله عدت الى حجرة الاجتماع هنا مرة ثانية ، وهو شىء لا افعله أبدا ، لأنه محرم على على نحو ما .

وفكر ك ، هذا اذن هو كل ما عندها ، انها تعرض نفسها على ، انها فاسدة فساد الجميع هنا حواليها ، ولقد شبعت من موظفى المحكمة وهو شىء يستطيع الانسان تصوره ، ولهذا ترحب بكل غريب وتستحسن عينيه . ونهض ك صامتا كما لو كان قد عبر عن افكاره بصوت عال فاوضح للمرأة بهذا موقفه . وقال : لا أعتقد انك تستطيعين مساعدتى . فمن يريد مساعدتى حقا ، لابد أن يكون على علاقة بكبار الموظفين . اما انت فلا شك انك لا تعرفين سوى صغار الموظفين الذين يضطرب المكان هنا بأعداد كبيرة منهم . هؤلاء تعرفينهم معرفة جيدة بلا شك وتستطيعين ان تسيرى لديهم بعض الأمور . هذا ما لا أشك فيه ، ولكن أعظم شىء يمكن ان يحققه المرء عن طريقهم هو بالنسبة للنتيجة النهائية للقضية شىء تافه كل التفاهة . أما أنت فلا تجنين فى هذه الأثناء بسبب تدخلك هذا الا فقدان نفر من الأصدقاء . وهذا ما لا اريده . استمرى على علاقتك بهؤلاء الناس ، فهذا شىء لا محيص لك عنه على ما يبدو لى ، وانا لا اقول هذا بلا اسى ، لأنك ـ وهنا احب أن أرد لك مدحك فى على نحو ما ـ تعجبيننى ، خاصة عندما تتطلعين الى بحزن ، كما

تفعلـــــين الآن ، دون ان يكون لديك سبب يدعوك الى ذلك . انك تدخلين ضمن الجماعة التى على أن أكافحها ، ولكنك تنعمين بالوجود فيها ، بل انك تحبين الطالب ، وان لم تكونى تحبينه فانت على الأقل تفضلينه على زوجك . هذا شيء يســهل على الانسان استنتاجه من كلامك .

فصاحت : لا .

ولكنها ظلت جالسة ومدت يدها الى يد ك ، فلم ينتزعها منها بالسرعة الكافية . وقالت : لا يصح أن تنصرف الآن ، لا يصح أن تنصرف الآن وقد كونت عنى حكما خاطئا . وهل كنت تستطيع فعــلا أن تنصرف الآن عنى ؟ هل أنا فى الحقيقــة عارية عن القيمة الى درجة انك لا تريد أن تتكرم على بالبقاء معى هنيهة ؟

وقال ك : انك تخطئين فهمى . وجلس ثم اردف يقول :

ــ ان كنت تهتمين فعلا بان ابقى هنا ، فانا ابقى هنا عن طيب خاطر ، فلدى متسع من الوقت ، لأنى اتيت الى هنا وأنا أتوقع ان تكون المحاكمة قائمة . ولقد أردت بما قلته ان ارجوك الا تفعلى شيئا من اجلى فى قضيتى . ولا ينبغى أن يسوءك حتى هذا ، اذا تصورت أننى غير مهتم بنهاية القضية مطلقا واننى ســاسخر من الحكم . هذا على فرض أن القضية ستنتهى فعلا الى نهاية حقيقية وهو الأمر الذى أشك فيه أكثر الشك . فانا أعتقد أن القضية ــنتيجة لكسل أو سهو أو ربما حتى نتيجة لخوف الموظفين ــ قد أوقفت بالفعل أو ستوقف عما قريب . على انه من الممكن بطبيعة الحال أن يتظاهروا بالاستمرار فى القضية على أمل الحصول على رشوة كبيرة ، ولكن أملهم سيضيع هباء ، وهذا شيء أقوله من الآن ، لأننى لا اقدم رشوة على الاطلاق الى كائن من كان . وانك لتقدمين لى صنيعا ، إذا انت ابلغت قاضى التحقيق او أى شخص آخر يحب

اذاعة الأخبار الهامة ، أننى لن أقلم رشوة بأى حال من الأحوال ومهما كانت الحيل التى ستستعمل معى . . وما أعلم حضرات السادة بها ! يمكنك أن تقولى لهم بصراحة ان هذا شىء ميئوس منه تماما . على انهم لابد قد لاحظوا هذا من قبل ، فان لم يكن ، فأنا لست مهتما اهتماما كبيرا بأن يحيطوا به الآن علما . وكل ما فى الأمر ، انهم عندما يعلمون هــــذا ، سيوفرون على أنفسهم الجهــــد ، وسيوفرون على ضروبا من الحرج ، أحب أن أحملها على عاتقى لأننى أعلم أن كل حرج هو بمثابة ضربة مسددة لضروب الحــرج الأخرى . وأنا كفيل بأن يصير الأمر الى هذا الحد . هل تعرفين قاضى التحقيق ؟ .

فقالت المرأة : طبعا ، وقد فكرت فيه أول ما فكرت عنــدما عرضت عليك أن أساعدك . ولم أكن أعلم انه من صغار الموظفين ، ولكن ما دمت أنت الذى تقول هذا ، فيحتمل أن تكون على حق . ومع ذلك فأنا أعتقد أن التقرير الذى يرفعه الى من هم فوقه له على أية حال تأثيره . وهو يكتب تقارير كثــيرة . لقــد قلت أن الموظفين كسالى ، ولكنهم ليسوا جميعا كسالى بلا شك ، وبخاصة قاضى التحقيق هذا ، فانه يكتب كثــيرا جــدا . ففى يوم الأحد الماضى ، على سبيل المثال ، استمرت الجلسة الى أن أوشك المساء . وانصرف الجميع ، الا قاضى التحقيق فقد بقى فى القاعة ، وطلب منى مصباحا ، ولم يكن لدى سوى مصباح المطبخ الصغير ، ولكنه رضى به وبدأ على الفور فى الكتابة . وكان زوجى فى هذه الأثناء قد حضر ــ وكان ذلك اليــوم يوم اجازته ــ وأحضرنا الأثاث ، وفرشنا حجرتنا ، ثم جاء جيران لزيارتنا وجلسنا نتحــدث فى ضوء شمعة ونسينا القاضى وذهبنا الى الفــراش ونمنا . وفجأة بالليل ، ولابد أن الوقت كان متأخرا جدا ، صحوت فاذا بقاضى التحقيق يقف بجانب السرير ويحجز بيده نور المصباح بحيث لا يقع

نوره على زوجى.. وكان هذامن جانبهاحتياطا لاداعى له لأن زوجى ينام نوما عميقا لا يوقظه منه نور المصباح . وكنت فزعة لدرجة اننى اوشكت على أن أصرخ ، ولكن قاضى التحقيق كان لطيفا جدا فنبهنى الى الحذر، وهمس الى قائلا انه ظل حتى هذه الساعة يكتب وانه يفيد الى مصباحى وانه لن ينسى ابدا منظرى وانا نائمة . اردت بهذا كله أن أقول لك ان قاضى التحقيق يكتب بالفعل تقريرات كثيرة وخاصة عنك ، لأن أستجوابك كان بلا شك موضوعا من الموضوعات الرئيسية لجلسة يوم الأحد . وهذه التقريرات المطولة لا يمكن ان تكون عديمة المعنى والأثر تماما . ثم انك تستطيع أن تستنتج من هذه الواقعة أن قاضى التحقيق يطلب ودى ، واننى فى الفترة الأولى من علاقتنا - ولابد انه لم يتنبه الى الا مؤخرا - حيث يمكننى أن أكون ذات تأثير قوى عليه . أما انه مهتم جدا بى ، فشيء لدى عنه الآن أدلة أخرى . فقد ارسل الى امس مع الطالب الذى يثق فيه ثقة كبيرة ويتخذه له مساعدا ، هدية من الجوارب الحريرية ، زاعما انها مكافأة لى على ترتيبى حجرة الاجتماعات . ولكن هذا الزعم ليس الا حجة ملفقة . فترتيب الحجرة عملى وواجبى وزوجى يتقاضى عليه أجرا . والجوارب التى تلقيتها جميلة ، أنظر - ومدت ساقيها ورفعت الثوب حتى الركبتين ونظرت هى نفسها الى الجوارب - ثم راحت تقول :

- انها حقيقة جوارب جميلة ، ولكنها بالغة الرقة ولا تناسبنى.

وفجأة سكتت ووضعت يدها على يد ك وكأنها تريد أن تهدئه ثم همست اليه : صه ، ان بيرتولد ينظر الينا .

ورفع ك نظره ببطء . كان بباب حجرة الاجتماعات شاب واقف .. كان قصير القامة ، ذا ساقين غير مستقيمين تماما ، يحاول ان يضفى على نفسه هيبة باتخاذ لحية قصيرة هزيلة محمرة اللون ، لا يكف عن دس أصابعه فيها . ونظر ك اليه بشغف ، لقد

كان هو الطالب الأول فى العلوم القانونية المجهولة ، الذى سبق أن لقيه ك فى ظرف انسانى نوعا ما . . كان رجلا يحتمل ان يصل الى مناصب عالية . ويبدو أن الطالب لم يهتم ب ك على الاطلاق ، واشار بأصبع واحد أخرجه من لحيته ، الى المرأة ، ثم ذهب الى النافذة فانحنت المرأة فوق ك وهمست اليه :

ـ ارجوك أشد الرجاء الا تغضب منى ، والا تسىء الحكم على ، فلابد أن أذهب الآن اليه ، الى هذا الانسان البشع . انظر الى ساقيه على الأقل ! ولكنى ساعود حالا ، ثم سأذهب معك ، ان شئت أن تأخذنى ، سأذهب الى حيث تشاء ، ويمكنك أن تفعل بى ما تشاء ، فسأسعد اذا تمكنت من الابتعاد عن هنا أطول وقت ممكن ، وليتنى أتمكن من الابتعاد عن هنا الى الأبد .

وكانت لا تزال تداعب يد ك ، حينما قفزت وعدت الى النافذة ، ومد ك يده فى الهواء ليمسكها دون ما ارادة منه . كانت المـرأة تغريه فعلا ، وما كان رغم التفكير الطويل يجد سببا قويا يمنعه من أن يستسلم للاغراء . طرأ بباله اعتراض عابر بأن هذه المرأة ربما تريد اصطياده للمحكمة ، ولكنه ما لبث أن نحى عنه هذا الاعتراض بغير جهد . فبأى وسيلة يمكنها أن تصطاده ؟ الم يظل على الدوام حرا طليقا ، حتى كان فى استطاعته أن يحطم المحكمة ، فيمـا يخصه ، كلما شاء ؟ أما كان يستطيع أن يمنح نفسـه هذا القدر الضئيل من الثقة ؟ ثم أن عرضها عليه مساعدته كان عرضا صادقا مخلصا وربما لم يكن عديم القيمة . ولعله لم يكن هناك انتقام من قاضى التحقيق وبطانته أشد من أن يجردهم من هذه المرأة وأن يضمها اليه هو . وربما أمكن أن يحدث ذات مرة أن يعكف قاضى التحقيق عن كتابة تقريرات كاذبة عن ك ويبذل فيه الجهد الجهيد حتى وقت متأخر من الليل ثم يجد سرير المرأة خاويا . ويجده خاويا لأنها أصبحت ملكا لـ ك ، لأن هذه المرأة الواقفة الآن عند

النافذة ، هذا الجسم انيانع البض الدافيء فى هذا الثوب الأسمر المصنوع من نسيج غليظ سميك ، قد أصـــبح بتمامه ملكا لـ ك وحده .

فلما فرغ ك على هذا النحو من التخلص من كل الاعتراضات التى ثارت فى نفسه ضد المراة ، طال عليه حديث الاثنين الخفيض عند النافذة ، فدق ببز رجله على المنضدة ثم دق عليها بعد ذلك بقبضته . وتطلع الطالب من فوق كتف المراة الى ك قليلا ، ولكنه لم يخرج عن سكونه ، بل على العكس اقترب من المراة واحتضنها . وخفضت المراة راسها بشدة كانها تنصت اليه باهتمام ، فقبلهـــا عندما انثنت قبلة طبعها على رقبتها دون أن يكف عن الكلام بشكل جوهرى . ورأى ك أن ذلك هو الطغيان يمارسه الطالب على المراة بعد شكواهااليه، فنهض وراح يقطعالحجرة جيئة وذهابا. وافكروهو يختلس الى الطالب نظـرات جانبيــة ، كيف يتخلص منه بأسرع ما يمكن . ولذلك ضـــاق ك بالطالب عنـــدما قال له على سـبيل الملاحظة . ويبدو أن حركة ك جيئة وذهابا ، وما تحورت اليه أحيانا من خبط الأرض ، قد اقلقت الطالب :

ـ اذا كان صبرك قد نفد ، فيمكنك أن تذهب . ولو انك ذهبت من قبل ، لما افتقدك أحد . بل كان الواجب عليك أن تنصرف ، خاصة عندما دخلت إنا ، وأن تنصرف بأسرع ما يمكن ! .

ربما بث الطالب فى هـــذه الملاحظة كل ما أمكنـــه من غيظ ، ولكنها كانت على أية حال تمتلىء بكل عجرفة موظف المحكمة فى المستقبل عندما يتحدث الى متهم لا يروق له . وظل ك يقف قريبا منه وقال :

ـ اما انى قد نفد صبرى فهذا صحيح ، ولكن أسهل وسيلة للتغلب على نفاذ الصبر هذا هي أن تنصرف انت عنا . فاذا كنت

قد أتيت الى هنا بقصد الدراسة ـ فقد سمعت أنك طالب ـ فأنا افســح لك عن طيب خاطر مكانا ، وانصرف من هنا أنا والمراة . وسيكون عليك أن تدرس كثيرا قبل أن تصبح قاضيا . وانا وان لم أكن قد أصبت حتى الآن علما دقيقا بالمحاكم ، أعتقد ان الانسان لا يبلغ فيها الغاية بالخطب السمجة التى تجيد أنت تدبيجها وعلى نحو مجرد من الحياء .

وقال الطالب وكأنه أراد أن يقدم الى ك تفسيرا لكلمته المهينة :

ـ ما كان ينبغى أن يتركوه هكذا حرا طليقا ، لقد كان هذا خطأ كبيرا ! ولقد قلت هــذا لقاضى التحقيق . قلت له انه ينبغى على الأقل أن يحجز فى حجرته بين جلسة الاستجواب والأخرى . ولكن قاضى التحقيق له أحوال لا أصل فيها الى فهمه .

وقال ك : كلام لا طائل وراءه ! .

ومد يده ناحية المراة وقال : تعالى ! .

فقال الطالب : هكذا ! لا ، لا ، لن تنالها !

ورفعها على ذراعه بقوة لم يكن احد يتوقع أنها لديه ، وجرى بها منثنى الجسم الى الباب وهو ينظر اليها بحنان . كان فى تصرفه خوف من ك لا مراء فيه ، ولكنه مع ذلك تجاسر على استفزازه بأن استعمل يده الأخرى فى مداعبة ذراع المراة وضمه اليه . وجرى ك الى جانبه بضع خطوات وتأهب للامساك به ، وربما لخنقه اذا دعا الأمر . وهنا قالت المراة :

ـ لا جدوى من ذلك ، ان قاضى التحقيق أرسله ليأخذنى اليه ، فليس لى ان اذهب معك . فهذا الشاب الصغير البشع ـ ومسحت بيدها على وجه الطالب ـ فهذا الشاب الصغير البشع لن يتركنى .

وصاح ك : وأنت ألا تريدين أن تتحررى ؟!

ووضع يده فوق كتف الطالب ، فوجه الطالب أسنانه ناحيتها لعضها . فصاحت المرأة : لا ، لا تفعل .

ودافعت عن ك بيديها : لا ، لا لا تلجأ الى هذا ، فيم تفكر ؟! ان هذا كفيل بأن يتسبب فى هلاكى ، دعه ، ارجوك دعه . لا تمسه فانه انما ينفذ أمر قاضى التحقيق ويحملنى اليه .

فقال ك : اذن فله أن يعدو ما شاء ، ولست أريد أن ارى وجهك مرة اخرى ابدا .

واستبد الغضب بـ ك من جراء خيبة الأمل فسدد لكمة الى الطالب اصابته فى ظهره ، وتعثر الطالب قليلا نتيجة لها ، ولكنه من فرط فرحته لعدم وقوعه ، زاد فى القفز الى أعلا بالحمل الذى على ذراعه . وتبعهما ك ببطء ، وعرف أن هذه هى الهزيمة الأولى الأكيدة التى لحقت به على يد هؤلاء الناس . ولم يكن هناك سبب للخوف ، فما لقى الهزيمة الا لأنه التمس المعركة التماسا . ولو انه بقى بالبيت واستمر فى حياته على النحو المألوف ، لكان أعلى من اى واحد من هؤلاء الناس الف درجة ، ولاستطاع أن يبعده من سبيله برفسة من قدمه . وتصور منظرا هو اشد المناظر مهزلة ان جرى ، تصور الطالب الهزيل ، هذا الطفل المنفوخ ، هذا الـ «أبو ذقن» ذو الساقين الملويين، يركع أمام فراش الزه ، ويعقد يديه متوسلا اليها أن تمن عليه وتفىء عليه بحظوة . وقد أعجب هذا المشهد ك جدا الى درجة انه قرر أن يأخذ الطالب الى الزه مرة اذا سنحت اية فرصة تمكنه من ذلك .

واسرع ك وقد تملكته رغبة فى الاستطلاع الى الباب ، يريد أن يرى الى أين تحمل المرأة ، فلا يمكن أن يحملها الطالب ويعبر

بها الشارع . وتبين ك أن الطريق أقصر بكثير مما تصـــور . كان هناك فى مواجهة المسكن بالضبط سلم خشبى ضيق ، لعله يوصل الى غرف الكراكيب التى تتخذ فوق الأسطح ، يستقيم ثم ينحنى مرة فلا يرى الناظر غايته . وحمل الطالب المراة فوق هذا السلم صاعدا ببطء شديد وتأوه ، لأن الجرى كان قد اضعفه . وحيت المراة ك بيدها وحاولت بحركة ضم وارسال من كتفيها ان تبين انها بريئة من عملية الخطف هذه ، ولكن حركتها لم تكن تعبر عن كثير من الأسف . وتطلع ك اليها بوجه مجرد من التعبير وكأنها امراة غريبة ، فلم يشأ لا ان يعبر عن خيبة ولا أن يعبر عن انه يستطيع ان يتغلب على الخيبة فى يسر .

كان الاثنان قد تواريا ، وكان ك لا يزال يقف بالباب . وصار عليه ان يؤمن بأن المراة لم تخنه فحسب ، بل وكذبت عليه كذلك عندما قالت له انها محمولة الى قاضى التحقيق . فما يمكن أن يكون قاضى التحقيق جالسا فوق السطح ينتظرها هناك ولم يكن السلم الخشبى يفصح عن شىء مهما أطال الانسان النظر اليه . وفجأة تبين ك ورقة صغيرة معلقة عند مدخل السلم ، فذهب اليها فوجد مكتوبا عليها بخط متعثر غير مدرب كخط الأطفال « الطريق الى مكاتب المحكمة » . هنا على سطح بيت كهذا يسكنه الناس بالايجار تتخذ مكاتب المحكمة ؟ لم يكن هذا وضعا من شأنه أن يوحى بكثير من الاحترام ، وان كان من شأنه أن يهدىء من روع المتهم أن يتصور مدى قلة الأموال الموضوعة تحت تصرف هذه المحكمة ، حتى انها تضع مكاتبها هناك حيث كان مستأجروا الشقق وهم أنفسهم من اشد الناس فقرا ، يلقون بكراكيبهم المهملة . على انه لم يكن من المستبعد ان يكون قد وضع تحت تصرف المحكمة ما يكفى من المال ، ولكن الموظفين انقضوا عليه قبل أن يستخدم فى غايات المحكمة . كان هذا الراى بحسب الخبرات التى اتيحت لـ ك حتى الآن أمرا

محتملا جدا. كان مثل هذا الحظ من شأن المحكمة مهينا لكرامة المتهم؛ ولكنه كان في حقيقته أكثر تهدئة لنفسه مما لو كانت المحكمة فقيرة الى المال فحسب. وفهم ك الآن لماذا خجلت هيئة المحكمة من أن تستدعيه الى مكانها فوق السطح اثناء الاستجواب الأول وفضلت أن تنغص عليه وتضايقه في مسكنه. فما أعظم الفرق بين مكان ك ومكان القاضي! في حين يجلس القاضي على السطح، يجلس هو في البنك في حجرة كبيرة لها حجرة امامية ذات نافذة زجاجية هائلة يطل منها على ميدان المدينة الذى يعج بالحركة والنشاط. ولكنه لا يربح ارباحا اضافية من الرشاوى أو الاختلاسات ولا يستطيع أن يكلف خادمه بأن يحمل اليه امراة الى المكتب وذلك شيء كان ك يحب أن ينزل عنه، على الأقل في هذه الحياة.

وكان ك لا يزال يقف أمام اللافتة الورقية؛ عندما صعد أحدهم السلم، ونظر الى داخل حجرة المعيشة من خلال الباب المفتوح الذى كان يمكن من خلاله أيضا التطلع الى حجرة الاجتماعات، وسأل الرجل في نهاية الأمر عما اذا كان راى امراة منذ قليل. وسأل ك: أنت خادم المحكمة، هه؟.

فقال الرجل: نعم، آه، أنت المتهم ك، هأنذا أتعرف عليك ايضا، مرحبا بك!.

ومد يده لمصافحة ك، وهو شيء ما كان ك يتوقعه، وقال الخادم لما صمت ك: ولكن اليوم ليس موعد انعقاد جلسة.

وقال ك: اعلم هذا.

ونظر الى الثوب المدني الذى يرتديه خادم المحكمة والذى لم يكن يحمل من الشارات الدالة على الوظيفة الا زرارين مذهبين الى جانب الأزرار العادية الأخرى، يبدو انه اقتلعها من معطف ضابط قديم.

ـ لقد تحدثت مع زوجتك منذ قليل . وهى ليست الآن هنا . فقد حملها الطالب الى قاضى التحقيق .

وقال خادم المحكمة : لقد رأيت ! انهم دائما يأخذونها منى ! واليوم هو يوم الأحد ، ولست مكلفا بأداء عمل ، ولكنهم ارسلونى بعيدا بخبر لا فائدة منه ، لا لشىء الا لابعادى . ثم انهم لا يرسلونى الى مكان بعيد جدا ، مما يجعلنى آمل فى أن أعود فى الوقت المناسب ان عجلت الخطى . وهكذا اعدو بأقصى سرعة أقدر عليها ، وأصيح عبر فتحة الباب الى الديوان الذى ارسلت اليه بالخبر وقد انقطعت انفاسى ، فلا يكاد أحد يفهم كلامى ، ثم أعود عدوا ، ولكن الطالب يكون قد تعجل أسرع منى فطريقه أقصر من طريقى اذ ليس امامه الا السلم ينزل عليه من السطح الى هنا . لو لم أكن خاضعا للمحكمة الى هذه الدرجة ، لقذفت بالطالب الى الحائط وهشمته تهشيما . هنا بجانب هذه اللافتة . هذا شىء لا أنفك أحلم به . أحلم به هنا راقدا فوق الأرضية ، ملطوعا محصورا يمد ذراعيه ويفرد أصابعه ، ويلوى ساقيه الملتويتين المدورتين ، وقد تناثرت حواليه بقع الدماء . هذا حلم لا يزال حلما .

وسأل ك مبتسما : أليست هناك وسيلة أخرى تستعين بها ؟

فقال خادم المحكمة : لا أعرف لى وسيلة أخرى . وها هو ذا الأمر يزداد قبحا .. كان الطالب حتى الآن يحملها الى نفسه ، أما الآن ، وهو شىء طالما توقعته ، فهو يحملها الى قاضى التحقيق كذلك .

وسأل ك : أليس لزوجتك شىء من ذنب فى هذا ؟

وكان على ك عند هذا السؤال ان يكره نفسه اكراها لشدة الغيرة التى أحس بها الآن .

وقال خادم المحكمة : هذا ما لا شك فيه . بل أن ذنبها هو اكبر الذنب . فهى التى تعلقت به . اما هو فهو يلاحق كل النساء . وقد القى به فى هذا البيت وحده خارج خمس شقق كان قد تسلل اليها خلسة . ولكن زوجتى هى أجمل امراة فى هذا البيت كله ، وليس لى أنا بالذات أن أدافع عن نفسى .

فقال ك : اذا كان الأمر كذلك فليس هناك وسيلة تستعين بها على حالك .

وقال خادم المحكمة : ولم لا ؟ لابد من ان ينهال أحدهم على الطالب ضربا ، وهو جبان ، عندما يحاول أن يلمس زوجتى ، فلا يعود الى التجرؤ على هذا . ولكن ليس لى أن أفعل هذا أنا ، وليس هناك من يقدم لى هذه الخدمة ، لأن الجميع يخافون سطوته . لا يمكن أن يفعل هذا الا رجل مثلك .

فسأل ك مندهشا : لماذا أنا اذن ؟

فقال خادم المحكمة : لأنك متهم !

فقال ك : نعم ، ولكن هذا سببا ادعى بى الى أن أزيد خوفا ، فاذا كان لهذا الطالب تأثير على نهاية القضية ، فلا شك فى أن له كذلك تأثيره على التحقيق الأولى .

فقال خادم المحكمة : نعم ، هذا شىء مؤكد .

قالها وكأنه يؤمن بأن راى ك صائب تماما كرأيه هو ، ثم اردف : وليست عندنا فى العادة قضايا مقطوعة الأمل .

فقال ك : لست أرى رأيك ، ولكن هذا لا ينبغى أن يحول بينى وبين التصرف مع الطالب بما ينبغى من حين لآخر .

وقال خادم المحكمة وكأنه يقول شيئا متكلفا : سأكون شاكرا لك على صنيعك معترفا لى بجميلك . وبدأ فى الحقيقة غير مصدق لامكانية تحقق أعظم امنية له .

وأردف ك يقول : ربما استحق موظفون آخرون المعاملة نفسها ، أو ربما كلهم .

فقال خادم المحكمة وكأنه يقول كلاما طبيعيا : نعم ، نعم .

ثم نظر الى ك نظرة ثقة لم ينظرها من قبل رغم كل الود الذى اصطنعه ، ثم أضاف : ان الانسان ليجد هنا دائما ما يثير ثائرته .

ولاح له هذا الحديث ثقيلا نوعا ما يدل على ذلك أنه قطعه وهو يقول : على الآن أن أبلغ ديوان المحكمة اننى عدت . أتريد أن تأتى معى ؟ .

فقال ك : ليس لى عمل هناك .

فقال الرجل : يمكنك أن تشاهد مكاتب ديوان المحكمة . ولن يلتفت اليك أحد .

فسأل ك مترددا وقد أخذته رغبة شديدة فى الذهاب معه :

ـ هل تستحق المشاهدة والتطلع ؟

وقال خادم المحكمة : اعتقدت أنها تهمك .

فقال ك فى النهاية : حسنا ! سأذهب معك .

وصعد السلم أسرع من خادم المحكمة .

وأوشك ك أن يقع عند المدخل فقد كانت هناك وراء الباب درجة مرتفعة . فقال : انهم لا يهتمون بالجمهور كثيرا .

فقال خادم المحكمة : أنهم لا يهتمون بأحد على الاطلاق . انظر الى حجرة الانتظار مثلا .

كان هناك ممر طويل ، فيه أبواب مصنوعة من الخشب الخام توصل الى المكاتب المختلفة المتخذة فوق السطح . وعلى الرغم من انه لم يكن هناك فتحة مباشرة لادخال الضوء ، فلم يكن الممر مظلما حالك الظلمة ، لأن بعض المكاتب كانت تنتمى ناحية الممر ، لا بجدار كامل من الألواح المتصلة ، بل بحاجز من قضبان متشابكة يصل الى السقف ، وينفذ من خلاله شيء من ضوء ، ويرى الناظر من خلاله بعض الموظفين متفرقين يجلسون الى مكاتبهم أو يقفون بالحاجز ويتطلعون الى الناس بالممر من بين فتحات الحاجز ذى القضبان المتشابكة . ولم يكن بالممر ، ربما لأن اليوم كان يوم الاحد ، الا قليل من الناس . وكان هؤلاء الناس يظهرون فى هيئة متواضعة جدا . كانوا يجلسون على أبعاد منتظمة الواحد من الآخر على دكتين خشبيتين طويلتين موضوعتين على جانبى الممر . كانوا جميعا مهملين هندامهم ، على الرغم من أن أغلبهم كانوا ، استنتاجا من تعبير الوجه والهيئة وشكل اللحية وغير ذلك من تفصيلات قليلة دقيقة طفيفة ، من الطبقات العالية بالمجتمع . ونظرا لأنه لم يكن هناك مشاجب لتعليق الملابس والقبعات فقد وضعوا ، وربما اتبع الواحد منهم مثل الآخر ، قبعاتهم تحت الدكة . وما أن رأى أولئك الذين يجلسون قرب الباب ك وخادم المحكمة ، يظهران حتى هبوا واقفين للتحية ، فلما رأى الباقون هذا ، اعتقدوا أن عليهم أن يحيوا القادمين هم كذلك ، وهكذا وقف الجميع عندما مر عليهم الاثنان تحية لهما . ولم يقف هؤلاء وقفة كاملة ، بل كانوا يقفون بظهر منحن وركب مثنية وكأنهم متسولين . وانتظر ك خادم المحكمة الذى كان يسير خلفه قليلا وقال له : ما اشد ذلة هؤلاء !

فقال الخادم : نعم ،انهم متهمون ، كل أولئك الذين تراهم هنا متهمون .

وقال ك : حقا ! اذن فهم زملائى .

والتفت الى أولهم وكان رجلا طويلا نحيفا يكاد شعره أن يكون اشيبا كله . وساله ك بأدب : ماذا تنتظر هنا ؟ .

ولكن السؤال غير المتوقع أصاب الرجل بالارتباك ، وحز ذلك فى نفس ك على نحو شديد ، لأن الرجل بدا له من ذوى الخبرة بأمور الدنيا يستطيع بلا شك أن يتمالك نفسه فى غير هذا الظرف ، ولا يفرط بسهولة فى الرفعة التى أتيحت له فوق الكثيرين . لم يستطع هذا الرجل أن يجيب هنا على سؤال بسيط هكذا ، وتطلع الى الآخرين كأنما كانوا مكلفين بواجب معاونته ، وكأنما كان من غير الممكن أن يطالبه أحد بجواب سؤال اذا امتنعت عنه هذه المعونة . عند ذاك اقبل خادم المحكمة وقال ليهدىء الرجل ويشجعه : السيد يسألك فقط عن الشىء الذى تنتظره . فأجبه .

وأدى صوت خادم المحكمة ، الذى يظهر أنه كان معروفا لديه ، الى نتيجة أفضل ، وبدأ الرجل يقول :

ـ أنا انتظر . .

ثم تعثر . ويبدو أنه اختار هذه البداية ليجيب بدقة على السؤال الملقى ، ولكنه لم يجد البقية . وكان عدد من المنتظرين قد اقترب وأحاط بالمجموعة ، فقال لهم خادم المحكمة :

ـ ابعدوا ! افسحوا الممر ! .

وتحركوا قليلا الى الخلف ، ولكنهم لم يعودوا الى اماكنهم السابقة . وفى هذه الاثناء كان الرجل الذى القى عليه السؤال قد استجمع شتات نفسه وراح يجيب حتى بابتسامة صغيرة :

ـ لقد قدمت منذ شهر طلبات اثبات خاصة بقضيتى وأنا انتظر أن تنجز .

وقال ك : يبدو انك تبذل جهدا كبيرا .

فقال الرجل : نعم . فالقضية قضيتى .

فقال ك : ليس كل انسان يفكر كما تفكر ، فأنا مثلا متهم أيضا ، ولكنى بحق ما آمل فى سعادة الآخرة ، لم اتقدم بطلب اثبات ، ولم اقم باى شىء من هذا النوع . هل تعتبر هذا ضروريا ؟

فقال الرجل وقد عاد الى الاضطراب كل الاضطراب : لا اعرف على وجه التحديد .

ويبدو انه ظن ان ك يمزح معه ، ولعله يفضل ، خشية الوقوع فى اى خطأ جديد ، أن يعيد اجابته السابقة برمتها ، ولكنه اكتفى أمام نظرة ك المتعجلة بأن قال : أنا من ناحيتى قدمت طلبات اثبات .

وسأل ك : لعلك لا تصدق اننى متهم ؟

وقال الرجل : آه عفوا ، بل بكل تأكيد .

ثم انتحى جانبا ، وكانت اجابته لا تمتلىء بالايمان بل بالخوف .

وسأل ك : انت اذن لا تصدقنى ؟

وأمسك بذراع الرجل ، وقد استفزه على نحو لا شعورى كيانه المتواضع المتذلل ، وكأنما أراد بامساكه اياه أن يرغمه على تصديقه . ولكنه لم يرد أن يحدث به ألما ، واكتفى بأن تعدى عليه على نحو رفيق جدا ، ومع ذلك فقد صرخ الرجل ، وكأن ك امسكه بكماشتين متأججتين نارا ، ولم يمسكه باصبعين . وسئمه ك نهائيا نتيجة لهذا الصراخ المضحك . اذا لم يكن الناس يصدقون انه متهم ، فلا بأس . بل ربما كان الرجل يخاله من القضاة . وامسك ك بالرجل

الآن مسكة قوية فعلا ليودعه ، ودفعه الى المقعد واستأنف سيره . وقال خادم المحكمة : غالبية المتهمين حساسون على هذا النحو الذى رأيته .

والى الخلف منهم كان المنتظرون قد تجمعوا كلهم تقريبا حول الرجل الذى كان قد كف عن الصراخ ، ويظهر أنهم راحوا يستجوبونه عن تفصيلات الحادثة ويدققون فى السؤال . واقبل على ك حارس عرف ك أنه حارس لأنه كان يتخذ سيفا ، غمده ، على ما يبدو على الأقل من لونه ، مصنوع من الالومنيوم . ودهش ك لذلك بل ومد يده نحوه . وسأل الحارس الذى أقبل بسبب الضياح ، عما حدث . واجتهد خادم المحكمة فى تهدئته بكلمات ، ولكن الحارس أعلن انه يريد أن يستوضح الأمر بنفسه ، والقى تحية واستأنف السير بخطوات سريعة جدا ، قصيرة جدا ، ويبدو أن مرضا فى مفاصله كان يفرض عليه سعة معينة للخطوة .

ولم يطل ب ك الاهتمام بهذا الرجل والجماعة الواقفة بالممر ، خاصة وانه رأى عند منتصف الممر تقريبا امكانية الانعطاف الى يمين من خلال فتحة غير ذات باب . وتفاهم مع خادم المحكمة فى أمر هذه الطريق وهل هى الطريق الصحيحة ، فأومأ خادم المحكمة بالموافقة ، وانعطف ك فعلا فى هذا المنعطف . كان ك يستثقل أن يسير دائما قبل خادم المحكمة بخطوة أو بخطوتين ، فقد أوشك هذا أن يبدو ، على الأقل فى هذا المكان ، وكأنه يساق به متهما . ولهذا كان كثيرا ما ينتظر خادم المحكمة ، ولكن خادم المحكمة كان لا يلبث أن يعود الى تأخره . واخيرا قال ك لينهى ما به من حرج :

ـ لقد رأيت ما هنا وأريد الآن أن انصرف .

وقال خادم المحكمة بدون أدني ارتباك : ولكنك لم تر كل شيء بعد .

فقال ك وكان قد بدأ بالفعل يحس بالتعب : لا أريد أن أرى كل شيء ، أريد أن أنصرف ، كيف يصل الانسان الى المخرج ؟

وسال خادم المحكمة مندهشا : عسى الا تكون قد تهت هنا بهذه السرعة ؟ اذهب حتى المنعطف ثم اتجه يمينا بطول الممر دون حيد فتصل الى الباب .

وقال ك : تعال معى . أرنى الطريق ، فسوف أخطئه ، وما أكثر الطرق هنا .

وقال خادم المحكمة وقد اصطنع الآن لهجة اللوم : انها الطريق الوحيدة . ولا يمكننى أن أسير معك ، فلابد أن أحمل البلاغ الى غايته ، ولقد فقدت بسببك حتى الآن وقتا كثيرا .

وأعاد ك الكلام بلهجة أكثر حدة وكأنما أمسك خادم المحكمة متلبسا بكذبة : تعال معى !

وهمس اليه خادم المحكمة قائلا : لا تصح هكذا ! فهنا مكاتب فى كل مكان . اذا لم تكن تريد أن تعود بمفردك ، فسر معى شيئا من طريقى أو انتظر هنا حتى أفرغ من مأموريتى فأعود بك عن طيب خاطر .

وقال ك : لا ، لا ! لن أنتظر ، ولابد أن تأتى معى الآن .

ولم يكن ك دار ببصره فى المكان الذى بلغه الآن ، فلما انفتح باب من الأبواب الخشبية الجانبية الكثيرة تطلع الى داخله . وأتت من الباب فتاة لا بد أنها خرجت نتيجة لصياح ك ، وسألت :

ـ ماذا يرغب السيد ؟

وفى ظلمة خلفها غير حالكة ظهر رجل على بعد يقترب . وتطلع ك الى خادم المحكمة . كان خادم المحكمة قد قال له انه لن يلتفت

اليه فى الديوان احد ، ولقد أقبل أثنان الآن ، ولن يمر الا وقت قليل وتتنبه اليه جماعة الموظفين كلها وتلتمس منه تفسيرا لوجوده . والتفسير الوحيد المقبول هو انه متهم وانه يريد أن يعرف موعد جلسة التحقيق القادمة . ولكن هذا التفسير هو بالضبط التفسير الذى لم يكن يريد أن يقدمه ، خاصة وانه غير مطابق للحقيقة ، فهو انما أتى بدافع الفضول ، أو بدافع الحاجة ـ وهو ما لا يمكن تقديمه كتفسير ـ الحاجة الى تبين ان هـذه المحكمة منفرة من داخلها بقدر ما هى منفرة من خارجها . واستصوب ك التقدير الاخير ، فهو لم يرد أن يستمر فى التوغل الى الداخل ، وقد كفاه الضيق مما قد رآه حتى الآن ، ولم يكن فى تلك اللحظة بالذات فى حالة نفسية تسمح له بأن يتقدم ناحية كل موظف عظيم يمكن أن يبرز من وراء كل باب . كان يريد أن ينصرف ، اما بمصاحبة خادم المحكمة ، أو بمفرده ان احتاج الأمر .

ولكن وقوفه صامتا صمت الأخرس لابد قد لفت اليه الأنظار ، وبالفعل تطلعت اليه الفتاة وتطلع اليه خادم المحكمة على نحو يكاد يوحى بأن تغيرا عظيما سيطرأ عليه حتما وأنهما يريدان ملاحظته حتى لايفلت منهما . وهاهوذاالرجل،الذى كان ك قد رآهعلى بعدمنذ برهة يقف بالباب المنخفض ، ويتعلق بالعرق الخشبى بالسقف أعلاه ويتأرجح قليلا فوق أصابع قدميه كمتفرج نفذ صبره . وتبينت الفتاة قبل الآخرين ان تصرف ك يرجع الى وعكة خفيفة الت به ، فأتته بكرسى ذى مساند وسألته : الا تريد ان تجلس ؟

وجلس ك فى الحال واسند كوعيه على المسندين حتى يتمالك نفسه . وسألته الفتاة : لقد أصابتك دوخة خفيفة ، أليس كذلك ؟

كان وجهها الآن قريبا منه . وتبين ك انه يحمل تعبيرا قاسيا كالذي تحمله أوجه غير قليل من النساء فى ريعان الصبا . وقالت

له : لا تشغل بالك ، فما ألم بك ليس بالشيء غير المألوف هنا ؛ فكل انسان تقريبا يصاب بمثل هذه الدوخة عندما يأتي الى هنا لأول مرة . هل انت هنا للمرة الأولى ؟ اذن فما بك ليس بالشيء غير المألوف . فالشمس هنا تسطع حارة على هيكل السقف فيسخن الخشب ، والخشب الساخن هو الذى يجعل الهواء ثقيلا مقبضا . والمكان لهذا السبب مكان لا يصلح لمكاتب الديوان ، وان كان يتميز بميزات عظيمة ، اذا غضضنا النظر عن هذا العيب . أما فيما يتعلق بالهواء ، فهو في فترات تزاحم المتقاضين ، وهو شيء يوشك أن يتكرر كل يوم ، غير صالح للتنفس تقريبا . فاذا أخذت في اعتبارك أن الغسيل كثيرا ما يعلق هنا ليجف — فما يمكن ان يحظر على المستأجرين حظرا باتا أن يعلقوا غسيلهم ليجف — فلا عجب أن يصيبك قليل من الدوخة . ولكن الانسان يتعود بمضى المدة على هذا الهواء تعودا جيدا جدا . فاذا عدت الى هنا للمرة الثانية أو الثالثة فلن تحس ما بالهواء من ثقل . هل تحسنت الآن ؟

ولم يجب ك بشيء، فقد ساءه ان يسلمه هذا الضعف المفاجيء الى هؤلاء الناس ، واحس بحالته تزداد سوءا ، ولا تتحسن بعد ان علم أسباب وعكته . وقد احست الفتاة بذلك على الفور ، وتناولت عصا ملتوية كانت مستندة الى الحائط وخبطت بها النافذة الصغيرة التى كانت فوق ك مباشرة وكانت تطل على العراء ، حتى تدخل شيئا من الهواء الطلق ينعش ك ولكن سناجا (١) كثيرا جدا دخل من النافذة جعل الفتاة تقفل النافذة من جديد على الفور، واضطرت الى تنظيف يدى ك بالمنديل، لأن ك كان من التعب بحيث لم يستطع أن يقوم بذلك بنفسه . ولعل ك كان يرحب بالبقاء في هذا المكان

---

(١) الهباب .

الى أن ينال من القوة ما يكفي للانصراف ، ولكن هذا الانصراف كان ينبغى أن يتعجل بقدر قلة الاهتمام به .

وقالت الفتاة : لا يمكن أن تبقى هنا ، فأنت هنا تعوق المرور .
وسأل ك بعينيه عن المرور الذى تعنى أنه يعوقه .

وقالت الفتاة لـ ك : إذا شئت فأنا آخذك الى حجرة المرضى .

ونظرت الى الرجل الذى بالباب والذى اقترب وقالت : ساعدنى من فضلك .

ولكن ك لم يقبل الذهاب الى حجرة المرضى ، لقد كان الشيء الذى أراد أن يتحاشاه هو أن يؤخذ الى بعيد ، فكلما أبعد ، كلما زاد حنقه . لهذا قال : انا الآن أستطيع المشي.

ووقف يرتعش لأن الجلوس اللين كان قد عوده على الراحة .
ولكنه لم يستطع أن يقيم بدنه ، فقال وهو يهز راسه : لا استطيع .

وعاد الى الجلوس وهو يطلق الزفرات . وتذكر ك خادم المحكمة الذى كان على أية حال يستطيع أن يخرجه الى الخارج بسهولة ، ولكن خادم المحكمة لابد قد انصرف منذ مدة طويلة ، وتطلع ك بين الفتاة والرجل وكانا يقفان أمامه ، ولكنه لم يستطع أن يجد خادم المحكمة .

وقال الرجل ، الذى كان يلبس ثيابا انيقة يلفت النظر منها جاكتة رمادية تنتهى بطرفين مدببين : اعتقد ان دوخة السيد سببها الجو ولهذا فان الأفضل والمستحب الا ناخذه الى حجرة المرضى أولا ، بل أن نخرجه خارج الديوان كله مباشرة .

وصاح ك : هو ذاك ! .

وأوشك من شدة فرحه ان يقطع على الرجل كلامه ، وأردف يقول : ستستحسن حالتى على الفور بلا شك ، وانا لست على ما قد يبدو على من الوهن ، انما أحتاج الى من يسندنى قليلا تحت ابطى ، ولن يكون فى ذلك تعب عليه ، خاصة وان الطريق ليست طويلة . خذونى الى الباب ، وسأقعد قليلا على الدرج حتى استرد قواى ، فأنا لا أعانى من ازمات الدوخة بتاتا ، وان ما ألم بى الآن ليدهشنى كل الدهشة . وأنا موظف انا ايضا ومعتادعلى جوالمكاتب ولكن يبدو انه هنا فظيع جدا كما قلتم انتم بانفسكم . فهل تتكرمون باقتيادى قليلا ، فقد استبد بى الدوار ، وكلما نهضت وحدى احسست بدوخة .

ورفع كتفيه ليسهل على الاثنين مهمة سنده من تحت ابطيه .

الا ان الرجل لم يستجب للالتماس ، بل ابقى يديه فى جيبى البنطلون وضحك بصوت عال . وقال للفتاة : اترين ، لقد اصبت المراد . ما بالسيد ضيق من هنا فقط ، لا ضيق عام .

وابتسمت الفتاة ، وقرعت الرجل بأطراف أصابعها برفق فوق ذراعه كأنما سمح لنفسه بمزاح شديد مفرط فى الشدة مع ك .
ولكن الرجل قال وهو لا يزال يضحك : لكن ما ظنك ، فى اننى سآخذ السيد فعلا الى الخارج .

فقالت الفتاة وهى تخفض رأسها الرقيق لحظة : اذن فخير .

وعادت الفتاة تقول لـ ك الذى تملكه الحزن وراح يحملق أمامه ويلوح كأنه فى غير حاجة الى تفسير : لا تعلق على هذا الضحك أهمية فائقة ، فهذا السيد ــ اظن أن لى أن أقدمك ؟ ــ (وسمح لها السيد بحركة من يده) ــ هو المختص بالاستعلامات . انه يقدم للمتقاضين المعلومات التى يحتاجون اليها ، ولما كانت محكمتنا غير

مشهورة جدا بين الأهالى ، فان الاستعلامات المطلوبة كثيرة . انه يعرف الجواب على كل سؤال ، ويمكنك ان احببت ان تجزبه فى هذا . وليست هذه الميزة هى ميزته الوحيدة ، فله ميزة ثانية هى الهندام الأنيق . وقد رأينا ، اعنى نحن الموظفين ، ذات مرة ان موظف الاستعلامات الذى يتعامل مع الجمهور دائما والذى هو أول من يحتك بهم لابد ان يعطى انطباعا أولا كريما فألبسناه هنداما انيقا . أما نحن ، بقية الموظفين ، فنحن كما ترى فى حالتى ، نلبس للأسف الملابس القبيحة جدا التى تقادم عهدها . على انه ليس هناك فائدة كبيرة فى انفاق شيء على الملبس، لأننا نظل فى المكاتب هنا بدون انقطاع تقريبا ، فنحن ننام هنا . ولكننا ، كما قلت ، رأينا من الضرورى أن يكون موظف الاستعلامات حسن الهندام . ولما لم يكن من الممكن الحصول على ملابس جميلة له من الادارة ، لأنها غريبة المسلك فى مثل هذه الامور ، جمعنا المال نحن ، واسهم المتقاضون بشيء ، واشترينا له هذه الملابس الجميلة وغيرها . وبهذا يكون لديه ما يلزم لاعطاء انطباع طيب . ولكنه يتلف كل شيء بضحكه ويفزع الناس .

وقال السيد ساخرا : هو ذاك ! ولكننى يا آنسة لا أفهم لماذا تقصين على السيد كل خصوصياتنا ، او على الأحرى لماذا تفرضينها عليه ، فهو لا يريد أن يحيط بها علما على الاطلاق . انظرى اليه كيف يجلس مشغولا بأموره هو .

ولم يكن لدى ك حتى مجرد الرغبة فى الاعتراض ، وربما كانت نية الفتاة طيبة ، وكانت تتجه الى الترويح عنه ، أو تمكينه من استجماع نفسه ، ولكن الوسيلة التى توسلت بها كانت مخطئة .

وقالت الفتاة : لابد أن أشرح له معنى ضحك . فقد كان ضحكك مهينا .

وقال : أعتقد انه سيصفح عن أهانات أشد من هذه ، اذا أنا اخذته فى النهاية الى الخارج .

ولم يقل ك شيئا ، بل لم يرفع بصره الى اعلا وقبل أن يتحدث الاثنان عنه كأنهما يتحدثان عن شيء من الأشياء ، بل كان ذلك هو احب امر الى نفسه . وفجأة أحس بيد موظف الاستعلامات على أحد ذراعيه ويد الفتاة على الآخر .

وقال موظف الاستعلامات : هيا اذن ، أيها الرجل الضعيف !

وقال ك وقد أخذه فرح مفاجىء : أشكركما شكرا جزيلا ! .

ونهض ببطء وساق هو اليدين الغريبتين الى الموضعين اللذين يحتاج فيهما الى أكثر المساندة .

وقالت الفتاة هامسة فى أذن ك ، عندما اقتربوا من الممر :

ـ لقد بدا لك الأمر كانى كنت مهتمة اهتماما خاصا بوضع موظف الاستعلامات فى ضوء مسرف فى الخير ، ولكنى ارجو أن تصدقنى ، فما أردت الا أن أقول الحقيقة . ان قلبه غير قاس . وليس من واجبه أن يأخذ المتقاضين المرضى الخارج ، ومع ذلك فهو يأخذهم كما ترى . وربما لم يكن بيننا أحد قاسى القلب ، وربما أردنا جميعا أن نعين الناس عن طيب خاطر ، ولكننا كموظفين فى المحكمة نكتسب بسهولة مظهر من قست قلوبهم وصدوا عن معونة الناس . اننى أعانى من هذا وأتألم منه .

وسأل موظف الاستعلامات : أما تريد أن تجلس هنا قليلا ؟

وكانوا عندذاك فى الممر أمام المتهم الذى كان ك قد كلمه من قبل ، وخجل ك منه أو أوشك أن يخجل منه . كان من قبل يقف أمامه قائما نشيطا ، أما الآن فقد سنده اثنان . وراح موظف الإستعلامات

يؤرجح قبعته على أصابعه المفرقة المشددة ، واضطربت تسريحة شعره وتدلى الشعر على جبينه المبلل بالعرق . ولكن المتهم لاح كأنه لم يلحظ شيئا من هذا ، ووقف ذليلا امام موظف الاستعلامات الذي تجاوزه ببصره ، وحاول أن يعتذر عن وجوده فقال :

ـ انني اعلم أن البت في طلباتي لن يتم اليوم ولكنني مع ذلك أتيت ، لأنني فكرت انني أستطيع أن انتظر هنا ، فاليوم يوم الأحد ، ولدي وقت ، ولست أقلق أحدا .

وقال موظف الاستعلامات : لا عليك ان تلتمس عذرا لذلك بهذا النحو الشديد ، وان اهتمامك لشيء جدير بالمدح والتقدير . حقيقة انك تشغل مكانا هنا بلا جدوى ولـــكنني مع ذلك ، ومادام الأمر لن يثقــل على ، لن امنعك من متابعة ســير قضيتك بدقة . وان الانسان عندما يكون قد رأى كيف يهمل البعض واجبهم على نحو معيب ، يتعلم أن يتذرع مع امثالك بالصبر . اجلس .

وهمست الفتاة في اذن ك : يا لقدرته على التفاهم مع أصحاب القضايا !

واوما ك براسه ، ولكنه ما لبث أن انتفض عندما عاد موظف الاستعلامات يسأله : الا تريد أن تجلس هنا ؟

وقال ك : لا ، لا أريد أن أستريح .

قال ك هذا باكثر ما استطاع من اصرار ، والحقيقة انه لو جلس لاستراح ولتحسنت حالته . وكان ك كالمصاب بدوار البحر ، يظن نفسه فوق سفينة تضطرب على بحر عاصف . كان يحس كأن الماء يرتطم بالجدران الخشبية ، وكأن لجة فوارة تندفع من أعماق الممـر مثل الماء المرتد ، وكان الممر يتارجح عرضا فيصعد أصحاب القضايا المنتظرون ويهبطون . وما كان أشد غموض هدوء الفتاة والرجل

اللذين قاداه واصعبه على فهمه ! كان قد استسلم لهما ،ولو تركاه، لانقلب كاللوح . كانت عيونهما الصغيرة تطلق نظرات حادة هنا وهناك ، وكان ك يحس بخطواتهما المنتظمة دون ان يشارك فيها ، لأنهما كانا يحملانه من خطوة الى خطوة . وفى النهاية لاحظ انهما يكلمانه ، ولكنه لم يفهمهما ، كان لا يسمع الا الضوضاء التى ملأت كل شيء والتى نفذت خلالها نغمة عالية غير مفهومة تدوى كأنها من نفير .

وهمس ك : ارفعا صوتكما .

وخفض رأسه وخجل من نفسه لأنه عرف أنهما كانا يتكلمان بصوت عال بما فيه الكفاية وان استحال عليه الفهم . وأخيرا هل عليه تيار من الهواء المنعش ، كأن الجدار أمامه انشق ، وسمع جانبه صوتا يقول :

ـ انه يريد ان يخرج ، وها نحن أولاء نقول له مائة مرة: هذا هو الباب الخارجي وهو لا يتحرك ! .

ولاحظ ك انه امام الباب الخارجي وان الفتاة فتحته . وأحس كان قوته كلها عادت اليه دفعة واحدة . واراد ان ينال جرعة اولى يتذوقها من الحرية ، فتقدم الى درجة من درجات السلم فورا ، وودع مرافقيه اللذين كانا ينظران اليه من أعلا. وكرر عبارة: «شكرا جزيلا» ،وكرر مصافحتهما،ولم يكف عن ذلك الا عندما اعتقد انه راى ، انهما وقد تعودا على هواء المكاتب ، لم يحتملا الهواء النقى نسبيا الذى اتى من ناحية السلم . لم يستطع الاثنان الاجابة او كادا الا يستطيعان الاجابة ، واوشكت الفتاة ان تنقلب ، لو لم يعجل ك بقفل الباب بغاية السرعة . ووقف ك لحظة ساكنا ، واصلح شعره مستعينا بمرآة صغيرة كانت فى جيبه ، ووضع قبعته على راسه، وكانت على اول بسطة للسلم ـ ولابد أن موظف الاستعلامات قذف بها الى هناك ـ ثم نزل السلم مسرعا ، نشيطا يقفز قفزات طويلة ،

حتى أوشك أن يخاف من خفته . لم تكن حالته الصحية الجيدة قد عودته من قبل على ازمات مباغتة من هذا النوع قط . فهل اراد جسمه أن يثور عليه وأن يعد له قضية جديدة ، وهو لم يحتمل القديمة الا بشق الأنفس ؟ ولم يرفض ك الفكرة التى خطرت له بأن يذهب فى أقرب فرصة الى طبيب ، ثم انه أراد على إية حال ـ وهذا أمر كان يكفيه فيه أن يشـــاور نفســـه ـ أن يستخدم صباح أيام الآحاد القادمة على نحو افضل .

الفصل الرابع

• صديقة الآنسة بورستنر

استحال على ك فى الفترة التالية أن يكلم الآنسة بورستنر حتى أقل الكلام . ولقد جرب بطرق مختلفة أن يقترب منها ، ولكنها كانت دائما تعرف كيف ترده . كان يأتى الى البيت بعد أن يفرغ من المكتب ، فيبقى بالحجرة دون أن يضىء النور ، ويجلس على الأريكة فلا يشتغل الا بشىء واحد هو مراقبة الحجرة الأمامية . فاذا مرت الخادمة واغلقت باب الحجرة التى تظنها خالية ، انتظر هنيهة وفتح الباب من جديد . وكان فى الصباح ينهض قبل موعد نهوضه بساعة ، عله أن يلقى الآنسة بورستنر وحدها وهى خارجة الى المكتب . ولكن هذه المحاولات فشلت جميعها . فكتب اليها خطابا أرسله الى المكتب وآخر أرسله الى المسكن ، حاول فيه أن يبرر موقفه ، وعرض فيه استعداده لاصلاح الأمر بأى شىء ترضاه ، ووعدها بألا يتجاوز معها أبدا الحدود التى ترسمها له ، ورجاها أن تمنحه شيئا واحدا فقط هو امكانية الحديث اليها خاصة وانه لا يستطيع أن يفعل شيئا لدى السيدة جروباخ دون

---

(١) لا يتفق النقاد على مكان هذا الفصل ، بعضهم يجعله الرابع ، وبعضهم يؤخره . وقد وضعناه فى هذا المكان اتباعا للنسخة التى ترجمنا عنها . [المترجم]

ان يكون قد تشاور معها من قبل ، وختم خطابه بقوله انه سيكون يوم الأحد القادم في الحجرة طوال النهار ينتظر اشـــارة منها تجعله يؤمل في تحقيق رجائه او توضـــح له على الأقل ، لمـاذا لا تستطيع أن تحقق رجاءه رغم وعده بالالتزام بكل ما تطلبه . ولم يرجع البريد الخطابين اليه ، ولكنه لم يحمل اليـــه ايضـا ردا . اما في يوم الأحد فقد اتت اشارة تحمـل من الوضـوح الشيء الـكافي . فقد لاحظ ك في وقت جد مبكر بالنظر من خلال ثقب المفتاح ان هناك غريبة في الحجرة الأمامية ، ما لبثت إن اتضحت. كانت هناك مدرسة لفة المـانية تنتقل بمتاعها للسكنى في حجرة الآنسة بورستنر ، كانت تلك المدرسة المانية وتدعى مونتـــاج ، وكانت فتاة ضعيفة البنية شاحبة الوجه ، تعرج قليلا ، وكانت تسكن في حجرة خاصة بها حتى ذلك الوقت . ورآهـــا ك تجر قدميها ساعات طوال في الحجرة الأمامية . كانت دائما تتـذكر قطعة من ملابس او مفرشا صغيرا أو كتابا نسيته ، فتعود لتحضره خاصة وتحمله الى السكن الجديد .

فلما أحضرت السيدة جروباخ طعام الافطار ـ وكانت منـذ اغضبت ك غضبا شديدا لا توكل الى الخادمة اقل خـدمة ـ لم

يستطيع ك أن يمنع نفسه من التحدث اليها لأول منذ خمسة أيام . سألها وهو يصب القهوة : ماهـــذا الصخب اليوم فى الحجـرة الأمامية ؟ اما يمكن اسكاته ؟ هل ينبغى ان ينظم المتاع فى الحجرات فى يوم الأحد بالذات ؟ .

وعلى الرغم من أن ك لم يرفع بصره الى السيدة جروباخ ، فقد احس بانها التقطت انفاسها كأنما انزاح عن صدرها شيء ثقيل .. اذ انهاحملت هذه الأسئلة رغم قسوتها على انهاصفح!وبدايةمحاورة تنتهى الى الصفح . وقالت : ليس هناك متاع ينظم يا سيد ك ، بل ان الآنســة مونتاج تنتقل للسكنى مع الآنسة بورستنر ، وهى تحمل اشياءها الى هناك .

ولم تضف شيئا بل انتظرت لترى كيف يقبل ك كلامها ، وهل يسمح لها بالاسترسال فى الحديث . ولـكن ك ابتلاها باختبار وراح يقلب القهوة بالملعقة مستغرقا فى التفكير ، وصمت . ثم رفع بصره اليها وقال : هل نحيت عنك شكك القـــديم فى الآنســة بورستنر ؟ .

وصاحت السيدة جروباخ التى كانت تنتظر هذا السؤال دون غيره وبسطت يديها الى ك : يا سيد ك ، لقد تشددت فى تأويل ملاحظة يسيرة ، عابرة ، قلتها لك اخيرا . وانا لم أفكر ولا من أبعد بعد ، فى أن أسيء اليك أو الى أى انسان آخر . وانك لتعـرفنى يا سيد ك منذ وقت طويل ، يكفى لتكون مقتنعا بهذا . وانت لاتعلم مدى الألم الذى تألمته فى الأيام الأخيرة ! انا اتقول على سكانى ! وانت ، تقول ان على أن انذرك بالاخـلاء ! انذرك انت بالاخلاء ! واختنق هتافها الأخير بالدموع ، ورفعت مريلتهـــا الى وجههـا وهى تولول .

وقال ك : لا تبكى يا سيدة جروباخ .

ونظر من النافذة الى الخارج ، ولم يكن يفكر الا فى الآنسة بورستنر وفى أنها أدخلت فتاة اجنبية الى حجرتها . وعاد ك يقول عندما دار الى الحجرة ورأى السيدة جروباخ مستمرة فى البكاء : لا تبكى . كذلك أنا لم أقصد فى ذلك الوقت الى العنف . إذن فكلانا فهم صاحبه على نحو خطأ . وهذا شىء يمكن أن يحدث بين الأصدقاء القدامى مرة .

وأنزلت السيدة جروباخ المريلة تحت عينيها قليلا لترى هل صفا ك لها فعلا . وقال ك : نعم ، هذا ما يحدث !

وتجرأ الآن . استنتاجا من هيئة السيدة جروباخ الدالة على ان الضابط لم يكشف لها شيئا ، على أن يضيف : اتعتقدين فعلا اننى قد اعاديك بسبب بنت غريبة ؟ .

وقالت السيدة جروباخ : هذا هو لب الموضوع يا سيد ك .

لقد كانت تلك مصيبة السيدة جروباخ . كانت اذا أحست بنفسها على نحو ما اكثر حرية وانطلاقا، تقول على الفور شيئا يفتقر الى الفطنة . وأردفت : كنت دائما أسأل نفسى : لماذا يهتم السيد ك بالآنسة بورستنر الى هذه الدرجة ؟ لماذا يتشاجر بسببها معى ، على الرغم من أنه يعلم ان كل كلمة غضب منه تنفى النوم كل النوم عن عينى ؟ وانا لم أقل على الآنسة الا ما رأيته بعينى رأسى .

ولم يقل ك شيئا عن هذا ، كان الأحرى به أن يطردها من الحجرة عند أول كلمة ، ولكن هذا هو الشىء الذى لم يكن يريده واكتفى بأن شرب القهوة وجعل السيدة جروباخ تحس بأنها كالزيادة غير المرغوب فيها . وتناهى الى الأسماع من الخارج مرة أخرى صوت خطى الآنسة مونتاج وهى تجر قدميها عبر الحجرة

الأماميه من أولها الى آخرها . وسأل ك وهو يشير الى الباب : اتسمعينها ؟.

وقالت السيدة جروباخ وهى تتنهد : نعم . لقد أردت أن أساعدها ، وأن اكلف الخادمة بمساعدتها ، ولكنها عنيدة وتريد ان تنتقل بنفسها . وأنا مندهشة للآنسة بورستنر . اننى كثيرا ما استثقل وجود الآنسة مونتاج عندى مستأجرة ، وهى تضمها اليها الى حد اقتسامها معها حجرتها !

وقال ك وهو يفتت بقايا السكر فى الفنجـــان : ما ينبغى أن يقلقك هذا . هل تلحق بك نتيجة لهذا خسارة ؟

وقالت السيدة جروباخ : لا ، بل ان الأمر فى حد ذاته حبيب الى نفسى تماما ، لاننى بهذا انال حجرة خالية أسكن فيها ابن أختى الضابط . ولقد ظللت مدة طويلة اخشى ان يكـــون قـــد اقلقك خلال الأيام التى اضطررت فيها الى اعطائه حجرة المعيشة المجاورة لينام فيها . فهو لا يولى الآخرين الكثير من الاكتراث . وقال ك وقد نهض واقفا :

ـ ما هذه الخواطر العجيبة ! هذا أمر لا اتكلم فيه مطلقـــا . ويبدو انك تخالييننى مفرط الحساسية ، لاننى لا احتمل تجولات الآنسة مونتاج ـ ها هى ذى الآن تعود .

وتصورت السيدة جروباخ نفسها عاجزة وقالت :

ـ هل ينبغى على، يا سيد ك ، أن أقول لها أن تؤجل نقـل ما بقى من متاعها الى يوم آخر ؟ ان اردت هذا ، فعلته على الفور . وقال ك :

ـ ولكنها ستنتقل الى حجرة الآنسة بورستنر . وقالت السيدة جروباخ :

ـ نعم .

ولم تفهم تماما ما قاله ك .. وعاد ك يقول :

ـ اذن فلابد ان تنقل حاجياتها الى الحجرة .

واكتفت السيدة جروباخ بان اومأت براسها . واثارت حيرتها الصامتة، التى لم تبد فى ظاهرها مختلفة عن العناد، اثارت ك اثارة اشد وطأة . وراح يقطع الحجرة من الشباك الى الباب جيئة وذهابا وحال بذلك بين السيدة جروباخ وبين امكانية الابتعاد ، ولعلها ـ لو لم يفعل ـ كانت قد ابتعدت .

وكان ك قد بلغ الباب مرة عندما قرعه قارع . كانت الخادمة تحمل الى ك خبرا هو ان الآنسة مونتاج تود ان تقول له كلمتين وانها لذلك ترجوه أن ياتى الى حجرة المائـــدة حيث تنتظره . وانصت ك باهتمام وتفكير الى الخادمة ، ثم التفت بنظرة توشـك ان تكون ساخرة الى السيدة جروباخ وقد تملكها الرعب . ولاحت هذه النظرة كأنها تقول ان ك تنبأ منذ وقت طويل بهذه الـدعوة وانها تتناسب أعظم التناسب مع التعذيب الذى تحتم عليـه أن يعانيه صباح هذا الأحد من سكان السيدة جروباخ . ورد الخادمة باجابة هى أنه سيأتى فورا ثم ذهب الى دولاب الملابس ليغير ثوبه، ولم يوجه اجابة الى السيدة جروباخ، التى كانت تشكو بصوت خفيض من الانسانة المقلقة، الا رجاء بأن تحمل آنية الافطار الى بعيد .

وقالت السيدة جروباخ: انك تكاد الا تكون قد مسست من الافطار شيئا .

وصاح ك : خذيها من هنا .

واحس كأن كل شيء قد امتزج على نحو ما بالآنسة مونتـاج واصبح لهذا السبب مقيتا .

فلما سار خلال الحجرة الأمامية تطلع الى باب حجرة الآنسة بورستنر المقفل . ولكنه لم يكن مدعوا الى هذه الحجرة ، بل الى حجرة المائدة ، التى فتح بابها عنوة دون أن يقرع .

كانت تلك الحجرة حجرة طويلة جدا ، ولكنها كانت ضيقة ، وكان لها شباك واحد . ولم يكن بهامن المكان الا ما كفى لوضع دولابين على جانبى الباب فى الركنين بميل ، بينما ابتلعت مائدة الطعام الطويلة بقية المكان كله ابتلاعا فكانت تبدأ من قرب الباب وتصل الى الشباك الكبير فتلمسه تقريبا وتجعل من العسير على الناس بلوغه . وكانت المائدة معدة بصحون وفضيات لأربعة اشخاص لأن غالبية السكان كانوا يأكلون فيها يوم الأحد .

وعندما دخل ك اقبلت الآنسة مونتاج من ناحية النافذة اليه تسير بطول المائدة . وتبادلا تحية صامتة ، ثم قالت الآنسة مونتاج وقد اقامت رأسها أكثر مما اعتادت : لا أعرف هل تعرفنى .

وتطلع ك اليها محدقا وقال : بكل تأكيد ، انك تسكنين منذ مدة طويلة عند السيدة جروباخ .

وقالت الآنسة مونتاج : ولكنك ، على ما اعتقد ، لا تشغل بالك كثيرا بالبنسيون .

وقال ك : لا .

وقالت الآنسة مونتاج : ألا تريد أن تجلس ؟

وسحب الاثنان فى صمت كرسيين وثيرين على طرفى المائدة البعيدين ، وجلسا أحدهما فى مقابلة الآخر . ولكن الآنسة نهضت فى الحال مرة اخرى لأنها كانت قد نسيت حقيبة يدها الصغيرة على قاعدة الشباك وذهبت لاحضارها . وهكذا جرت قدميها من أول الحجرة الى آخرها . فلما عادت بالحقيبة تهزها هزا رفيقا، قالت : أريد أن اتكلم كلمتين بتكليف من صديقتى . ولقد كانت تريد أن تأتى بنفسها ، ولكنها احست اليوم بوعكة بسيطة ، وترجوك أن تقبل عذرها وأن تسمعنى بدلا منها ، وقد كلفتنى بأن

اقول لك انها ما كانت ستتحدث اليك بأكثر مما سأتحدث به اليك وانا على العكس ، اعتقد اننى استطيع ان اقول لك أكثر منهـا ، لأننى الى حد ما لست طرفا فى الموضوع .. الا ترى هذا الراى أنت ايضا ؟.

واجاب لك : وما الخبر ؟ .

وقد تعجب من أن عينى الآنسة مونتاج كانتا موجهتين باستمرار الى شفتيه . لقد كانت بهذا تفترض سيطرة على ما سوف يقوله. وقال : يبدو أن الآنسة بورستنر ترفض المقابلة الشخصية التى رجوتها أن تمنحنى اياها .

وقالت الآنسة مونتاج : هذا صحيح ، أو على الأحرى ، ليس صحيحا ، فقد استعملت عبارة شديدة الحدة . والمألوف هو أن مقابلات التصافى لا تجرى بموافقة ، ولا يحدث فى أمرها عكس هذا . ولكن الذى يمكن أن يحدث هو أن يعتبر المرء مقابلات التصافى غير ضرورية ، وهذه هى الحال هنا .. والآن ، بعد أن سمعت ملاحظتك ، يمكننى أن أتكلم معك بصراحة . لقد رجوت صديقتى ، تحريريا أو شفهيا بأن تسمح لك بلقاء .. وصديقتى ــ وهذا شيء أقل ما اقوله عنه اننى أستنتجته ــ تعلم الموضوع الذى طلبت له هذا اللقاء ، ولهذا فهى ، لأسباب لا أعلمها ، مقتنعة بأنه لن يكون من المفيد لأحد ، أن يتم هذا اللقاء فعلا .. وهى قد حكت لى بالأمس فقط ، وبطريقة عابرة جدا عن هذا الموضوع ، وقالت لى ، انك انت ايضا لا يمكن أن تكون مهتما على اية حال اهتماما كبيرا بهذا اللقاء ، لأنها تعتقد أنك لاشك قد فكرت هذه الفكرة بطريق المصادفة المحضة ، وانك ستتبين بدون حاجة الى تفسير او توضيح خاص ، ان لم يكن الآن فعما قريب ، أن الموضوع كله لا معنى له فى مجموعه . وقد اجبت أنا عليها قائلة ان هذا الكلام قد يكون صحيحا ، ولكننى أرى

أن من المفيد أن تبلغك برد صريح يوضح الأمر اكمل وضــوح . وعرضت عليهـــا أن أقوم أنا بهذه المهمة ، وقبلت بعــد شيء من التردد . وكل ما أرجوه أن اكون قد تصرفت بما يتفق مع وجهة نظرك . فانا اعلم ان أدنى ريبة في اتفه امر من شـــأنها ان تؤرق الانســان على الدوام ، فاذا ما تمكن الانســان ، كما في هذه الحالة من القضاء عليها بسهولة ، فالأفضل أن يفعل في الحال .

وقال ك من فوره : أشكرك .

ونهض مبطئا وتطلع الى الآنسة مونتاج ثم عبر ببصره فوق المــائدة ونفذ به الى خارج الشباك ـ وكان البيت المقابل غارقا في ضوء الشمس ـ ثم ذهب الى الباب .. وتبعته الآنسة مونتاج بضعة خطوات وكأنها لا تثق فيه تماما . فلما كانا أمام البــــاب اضطرا كلاهما الى أن يتراجعا ، لأنه انفتح ، ودخل منه الضابط لانتس . كان لانتس رجلا طويل القامة في نحو الأربعين من عمره ذا وجه كثير اللحم تكسوه السمرة .. وانحنى انحنـــاءة خفيفة ، للآنسة ول ك أيضا ، ثم اتجه الى الآنسة مونتاج وقبل يدها تعبيرا عن الاحترام . كان هذا الرجل بارعا في اصطناع مثــل هــذه الحركات . وقد برز تأدبه مع الآنسة مونتاج واضحا جليا بمقارنته بالمعاملة التى لقيتها من ك . ومع ذلك فلم يظهر على الآنسة مونتاج انها غضبت من ك ، لأنها ارادت ، كما خيل الى ك فلم يكن في حالة تسمح له بأن يكون على درجة ما من اللطف مع الضابط أو مع الآنسة مونتاج . وقد ادت القبلة التى تلقتها الآنســة مونتاج من الضابط لانتس الى تكوين حزب منهما ، يريد تحت ســـتار البراءة المفرطة والايثار الشديد أن يحول بين ك وبين الآنســـة بورستنر . واعتقد ك أنه لم يتبين هذا فحسب ، بل أنه تبـــين أيضا أن الآنسة مونتاج اختارت وسيلة جيدة لتحقيق غايتها وان كانت وسيلة ذات حدين . فقد بالغت في معنى وأهمية العلاقة

بين الآنسة بورستنر و ك ، وهولت قبل كل شيء آخر في اهمية اللقاء الذي التمسه ، وحاولت في الوقت نفسه أن تقلب الموضوع فصورت ك كأنه هو الذي يبالغ في كل شيء . لقد اخطأت الآنسة مونتاج ، فما اراد ك ان يبالغ في شيء ، لأنه كان يعلم أن الآنسة بورستنر بنت صغيرة تكتب على الآلة الكاتبة وانها لا تستطيع ان تقاومه مقاومة طويلة ، وتعمد في هذا الا يعمل حسابا لما سمعه من السيدة جروباخ عن الآنسة بورستنر . كل هذا قلبه ك في فكره وهو يخرج من الحجرة وهو لا يكاد يحيي احدا . واراد ان يدخل حجرته على التو ، ولكن ضحكة صغيرة من الآنسة مونتاج سمعها من ورائه ، اوحت اليه بفكرة هي انه ربما استطاع ان يفاجيء الاثنين ، الضابط والآنسة مونتاج من حيث لا ينتظران . فالتفت حواليه وانصت ليتبين هل يمكن أن يصدر عن حجرة من الحجرات المحيطة شيء قد يعرقله أو يعطله . كان السكون يعم المكان كله ، ولم يكن يصل الى السمع الا حديث حجرة المائدة وصوت السيدة جروباخ المنبعث من الممر الموصل الى المطبخ . كانت الفرصة تلوح سانحة ، فذهب ك الى باب حجرة الآنسة بوربستنر وقرع برفق . فلما لم يتحرك ساكن عاد يدق ، فلم تأت اجابة . هل كانت نائمة ؟ أم هل كانت فعلا متوعكة ؟ أم هل كانت تتنكر نفسها لسبب واحد هو أنها كانت تتوقع أن يكون ك ولا احد غيره هو الذي يقرع الباب برفق على هذا النحو ؟ واخذ ك بانها انما تنكر نفسها ، فاشتد في الدق على الباب ، فلما لم يجد الدق نفعا فتح الباب بحذر وبدون أن يتجرد من الشعور بانه يفعل شيئا لا حق له فيه ، لا ترجى منه فائدة . لم يكن بالحجرة احد . ولم تكن الحجرة تذكر الآن بالحجرة كما عرفها ك . كان بالحجرة عند الحائط سريران وضع احدهما تلو الآخر ، وثلاثة كراسي وثيرة قرب الباب عليها تلال من الملابس الخارجية والداخلية والبياضات ، ودولاب مفتوح . والظاهر أن الآنسة بورستنر كانت قد خرجت بينما كانت

الآنسة مونتاج تتكلم مع ك فى حجرة المائدة · ولم يبتئس ك بهذا لأنه كاد الا يتوقع أن يلتقى بالآنسة بورستنر بسهولة ، وما حاول هذه المحاولة الا على سـبيل معاندة الآنسة مونتاج .. وما كان اشد خجله عندما رأى ، وهو يقفل الباب الذى فتحه ، الآنسة مونتاج والضابط بباب حجرة المائدة المفتوح يتحدثان .. ربما كانا يقفان به ، منذ فتح ك الباب ، ولكنهما تحاشيا الظهور بأى مظهر اقد يوحى بانهما كانا يراقبانه ، بل تحادثا بصوت منخفض وتابعا حركات ك بنظراتهما على النحو الذى يصطنعه الناس عندما يجولون ببصرهم تائهين سارحين أثناء الحديث . ولكن هذه النظرات ثقلت على ك فاسرع يسير ملتصقا بالحائط الى حجرته .

الفصل الخامس

• الجــــــلاد

عندما مر ك فى امسية من الأمسيات التالية بالمر الذي يفصل مكتبه بالبنك عن السلم الرئيسي ـ وكان فى هــــذه المرة آخر العائدين الى منازلهم تقريبا ، اذ لم يكن هنـــاك سوى اثنين من الخدم فى قسم الشحن كانا لايزالان يعملان فى مجال ضـــوئى صغير لمصباح كهربائى ـ سمع وراء باب ، كان دائما يعتقد ان وراءه حجرة مهملات لم يحدث قط أن رآها ، آهات وانات .. فوقف مندهشا وانصت مرة أخرى ، حتى يتبين ما اذا كان قد اخطأ السمع ـ وساد السكون هنيهة ، ثم عادت الأنات مرة أخرى .. وأراد بادىء ذى بدء أن يستدعى واحدا من الخادمين ، فربمـا احتاج الى شاهد ، ولـكن فضولا هائلا عارما تملـكه ، ففتح باب الحجرة من فوره عنوة ، فاذا الحجرة كما تصور ، حجرة مهملات. كانت وراء عتبة الباب مطبوعات قديمة مهمـــلة وزجاجات مداد فخارية فارغة مقلوبة . أما الحجرة ذاتها فكان فيها رجال ثلاثة يقفون منحنين فى هذا المـكان ذى السقف المنخفض .. وكانت هناك شمعة مثبتة على راف تلقى عليهم بعض الضوء . وسأل ك بصوت منخفض يتسم باندفاع يصل الى حد الاضطراب : ماذا تفعلون هنا ؟ .

كان الرجل الذى بدا مسيطرا على الآخرين ، والذى كان اول من لفت النظر اليه ، مندسا فى ثياب جلدية سوداء ، لا تغطى الرقبة الى جزء عميق من الصدر وتدع الذراعين عاريين . لم يجب هذا الرجل بشىء · أما الاثنان الآخران فقد صاحا :

ـ يا سيد .. لقد حكم علينا بالجلد لأنك شكوتنا الى قاضى التحقيق ··

هنا تبين لـ أن الاثنين هما الحارسان فرانتس وڤيلليم ، وتبين أن الثالث يمسك بيده عصا ليجلدهما . وقال ك وهو يحملق فيهما :

ـ ولكننى لم أتقدم بشكوى ، بل رويت ما حدث بمسكنى فحسب . وانتما لم تتصرفا على اية حال على نحو لا يشوبه عيب.

وقال ڤيلليم بينما راح فرانتس يحاول على ما يبدو أن يختبىء وراءه من الرجل الثالث :

ـ يا سيد ، لو أنك علمت ضآلة الأجر الذى نحصل عليه ، لغيرت حكمك علينا · أنا عندى أسرة أقوم عليها وفرانتس يريد أن يتزوج ·· وكل واحد منا يحاول أن يثرى بأية طريقة ، ولكننا لا نصل الى الثراء بالعمل ، حتى ولو كان هذا العمل أشد الأعمال

اجهادا ومشقة . ولقد أغرتني ملابسك الداخلية الرقيقة .
والاستسلام لمثل هذا الاغراء شيء ممنوع على الحراس .. كان
كان مافعلناه مجانبا للحق ، ولكن التقاليد جرت على أن تؤول
الملابس الداخلية الى الحراس ، هكذا كانت التقاليد وهكذا
بقيت ، صدقني .. ثم أن هذا أمر بديهي ليس من الصعب فهمه .
فما فائدة هذه الأشياء بالنسبة لشخص حل به النحس واعتقل ؟
أما اذا هو تكلم عن هذا الأمر علنا وكشفه على الملأ ، فالنتيجة هي
عقاب الفاعلين .

ــ انا لم أكن أعلم بما تقولانه ، وأنا لم أطلب معاقبتكما على
الاطلاق ، كان الشيء الذي اهتممت به وحرصت عليه هو المبدأ .

والتفت فيلليم الى الحارس الآخر وقال : يافرانتس ، الم أقل
لك ان السيد لم يطالب بمعاقبتنا ؟ وهانتذا تسمع منه أنه لم يكن
يعلم مجرد العلم اننا سنعاقب حتما .

وقال الثالث لـ ك : لا تدع مثل هذا الكلام يؤثر عليك ،
فالعقاب عادل بقدر ما هو محتوم .

وقال فيلليم : لا تسمع له .

وقطع كلامه ليرفع يده بسرعة الى فمه بعد أن تلقى ضربة من
الجلاد عليها . ثم استأنفه قائلا : فنحن انما نعاقب لأنك شكوتنا .
ولو لم تفعل لما حدث لنا شيء ، حتى ولو علموا بما فعلناه ..
وهل يمكن أن يسمى هذا عدلا ؟ لقد اثبتنا كلانا ، وبخاصة انا ،
كفاءتنا الشديدة منذ وقت طويل كحارسين .. حتى انت لابد أن
تعترف بأننا من وجهة نظر السلطات قد قمنا في حالتك بمهمة
الحراسة جيدا ــ وكنا نأمل في أن نتقدم ولعلنا كنا على وشك
الترقي الى جلادين مثل هذا الجلاد الذي كان من حسن حظه أن
أحدا لم يشكو منه ، فمثل هذه الشكوى نادرة جدا . لقد ضاع
الآن كل شيء يا سيد ! لقد انسد سبيل الترقي أمامنا ، وسيكون

علينا أن نقوم بأعمال أقل درجة بكثير من عمل الحراسة ، وعلاوة على ذلك نتلقى هذا الجلد الفظيع الأليم .

وسأل ك : هل يمكن ان تحدث العصا مثل هذه الآلام ؟ .

وفحص ك العصا ولوح الجلاد بها أمامه . وقال ڤيلليم :

ــ علينا الآن أن نتعرى تماما .

فقال ك : آه ! هكذا .

وتطلع الى الجلاد وتفحصه ، فاذا هو رجل لفحته سمرة كسمرة البحارة ، وله وجه غض شرس . وسأله ك : هل هناك امكانية لتخليص الاثنين من الجلد ؟.

وقال الجلاد وهو يهز راسه مبتسما : لا .

وامر الحارسين : اخلعا ملابسكما .

ثم قال لـ ك : لا ينبغي أن تصدقهما في كل ما يقولان ، فقد اصابهما شيء من العته نتيجة لخوفهما من الجلد . فما قاله هذا ــ واشار الى ڤيلليم ــ عن امكانية التقدم في الوظيفة كلام مضحك جدا .. انظر اليه كم هو مكتنز البدن ! .. ان الجلدات الأولى لتختفي تماما في شحمه ! أتعلم لماذا اكتنز جسمه الى هذه الدرجة ؟ لأنه اعتاد أن يأخذ من المعتقلين طعام افطارهم ويلتهمه هو التهاما . الم يلتهم طعام افطارك انت ايضا ؟ واعود لما بدات به .. ان رجلا له مثل هذا الكرش لا يمكن أن يصبح بحال من الأحوال جلادا . هذا محال .

وقال ڤيلليم وكان قد فرغ لتوه من حل حزام بنطلونه :

ــ بل هناك جلادون في مثل حالي ؟.

فقال الجلاد : لا .

وضربه بالعصا على رقبته حتى أضطره الى أن ينكمش مدخلا راسه بين كتفيهما استطاع، ثم قال له: ليس لك أن تنصت الى الكلام، بل عليك أن تخلع ملابسك .

وقال ك : سأعطيك جائزة سخية اذا تركتهما وشأنهما . واخرج، بدون ان ينظر مرة أخرى الى الجلاد حافظة نقوده .. فمثل هذه الصفقات يحسن عقدها وقد أسبل الطرفان عيونهم .

فقال الجلاد : يظهر أنك تريد ان تقدم فى أنا ايضا شكوى ، وتتسبب لى ايضا فى الجلد ! لا ! لا !

وقال ك : بل كن عاقلا ، لو اننى كنت قد أردت ان ينال الاثنان العقاب لما تقدمت الآن لأشترى خلاصهما منك بمالى . كان فى امكانى أن أقفل الباب وأكف عن السمع والنظر واذهب الى البيت . ولكنى لا أفعل هذا ، بل يهمنى مخلصا ان أخلصهما ولو أنى كنت قد توقعت أنهما سيعاقبان أو على الأقل انهما يمكن أن يعاقبا ، لما ذكرت اسميهما بتاتا . فأنا لا اعتبرهما مذنبين .. المذنب هو المنظمة ، المذنب هم كبار الموظفين .

وصاح الحارسان : هو هذا .

وتلقيا على الفور ضربة على ظهريهما العاريين .

وقال ك : لو كنت تنزل بهذه العصا على قاض كبير لما منعتك من الضرب .

وجذب أثناء كلامه عصا الجلاد الى اسفل وكان الجلاد قد رفعها مرة اخرى واضاف : بل لكنت اعطيتك مالا لأقويك على تأدية هذا العمل العظيم .

وقال الجلاد : هذا الذى تقوله كلام له نغمة الصدق ، ولكنى لا اقبل أن يرشينى أحد .. لقد عينت لأجلد ، لهذا فانا اجلد .

وتقدم الحارس فرانتس ، الذى ربما كان يتوقع نهاية طيبة لتدخل ك فالتزم التحفظ ، الى ناحية الباب ، ولم يكن عليه من ثيابه سوى البنطلون ، وتعلق في ذراع ك راكعا وهمس اليه :

ـ اذا لم تكن تستطيع ان تخلصنا جميعا ، فجرب على الأقل ان تخلصنى انا . . فڤيلليم اكبر منى سنا ، وهو من كل ناحية اقل حساسية منى ، وقد تلقى منذ عدة أعوام عقوبة جلد خفيفة ، اما انا فلم انل حتى الآن عقوبة تنتقص من الشرف ، ولم افعل ما فعلته الا بتحريض ڤيلليم ، الذى هو بمثابة معلمى فى الخير والشر . وخطيبتى المسكينة تقف فى الشارع امام البنك تنتظر ماينتهى اليه أمرى ، وانا خجلان خجلا مشينا .

واستعان بثوب ك في تجفيف وجهه الذى فاضت عليه دموعه . وقال الجلاد : لن انتظر !

وتناول العصا بكلتا يديه وهوى على فرانتس بينما تكور ڤيلليم فى ركن وراح ينظر سرا دون أن يجرؤ على لفتة راس . وهنا انطلقت صرخة من فم فرانتس متصلة متجانسة ، ولاحت كأنها لم تصدر عن انسان بل عن آلة معذبة ، ودوى بها الممر كله ، ولابد أن المبنى كله سمعها .

وصاح ك : لا تصرخ .

فلم يستطع ازاء الصرخة ان يتمالك نفسه ، وبينما اتجه ببصره الى الناحية التي سيأتى منها الخادمان ، اصطدم بفرانتس صدمة خفيفة ولكن الصدمة كانت من القوة بحيث قلبته . كان فرانتس قد فقد الشعور فراح يتلمس موضع الأرض تلمس العاجز . . ولكنه لم يفلت من الضربات ، فقد تبعته العصا الى الأرض ، وبينما راح يتلوى تحتها ، راح طرفها يتأرجح بانتظام جيئة وذهابا .

وبدا احد الخادمين آتيا من بعيد ، وبدا بعده بعدة خطوات الخادم الآخر . واقفل ك الباب بسرعة واتجه الى النافذة المطلة على الفناء وفتحها . كان الصراخ قد انتهى تماما . واراد ان يحول بين الخادمين وبين القدوم فقال بصوت عال : أنا هنا .

وعاد صوت يقول : مساء الخير يا حضرة الوكيل . هل حدث شيء ؟

واجاب ك : لا . لا . لقد عوى كلب بالفناء .

ولما لم يتحرك الخادمان اضاف : يمكنكما الرجوع الى عملكما .

وانحنى من النافذة الى الخارج حتى لا يكون عليه أن يدخل في حديث مع الخادمين ، ولما عاد بعد هنيهة ينظر في الممر ، تبين انهما قد انصرفا . وبقى ك عند الشباك ، لم يجرؤ على العودة الى حجرة المهملات وكذلك لم يشأ ان يعود الى البيت . كان الفناء الذى أطل عليه فناء صغيرا مربعا حواليه مكاتب ، وكانت النوافذ الآن كلها مظلمة ، الا النوافذ العلوية فكانت تعكس ضوء القمر . وحاول ك بجهد جهيد أن ينفذ ببصره فى ظلمة بركن الفناء تداخلت فيها مجموعة من عربات اليد . كان ك يتألم لأنه لم يوفق الى الحيلولة دون جلد الرجلين ، ولكن الذنب لم يكن ذنبه فى فشل جهده ، فلو لم يكن أحدهما قد صرخ .. ولابد ان الضرب بلا شك قد آلمه ايلاما شديدا ، ولكن على الانسان رغم كل شيء ان يتمالك نفسه فى اللحظات الحاسمة ـ لو لم يكن قد صرخ ، لتمكن ك ، أو لكان من المحتمل جدا ان يتمكن ك ، من ايجاد وسيلة لاقناع الجلاد . واذا كانت طبقة الموظفين السفلى كلها من الرعاع ، فلماذا يكون الجلاد بالذات حالة استثنائية وهو الذى يقوم بأكثر الوظائف تجردا من الانسانية ؟ ولقد لاحظ جيدا

كيف لمعت عيناه عندما رأى الورقة المالية ، والظاهر أنه اصطنع الجد بالجلد ليزيد مبلغ الرشوة قليلا . وما كان ك ليقتصد في هذا السبيل ، فقد كان حريصا بالفعل على تخليص الحارسين ، ومادام قد بدأ يكافح فساد هذه المحكمة فقد كان من الطبيعي ان يسلط هجومه على هذه الناحية كذلك . ولكن كل شيء انتهى بطبيعة الحال عندما بدأ فرانتس يصرخ . فما كان يمكن ان يسمح ك بان يأتي الخادمان وربما يأتي كذلك من يعلم ومن لايعلم من الناس ، فيفاجئونه وهو يتفاوض مع الجماعة بحجرة المهملات . وتلك تضحية ليس هناك انسان يمكن أن يطلب من ك القيام بها . ولو أن ك كان قد نوى على التضحية فعلا ، لكان الأمر أكثر يسرا . اذن لخلع ملابسه ولقدم نفسه للجلاد ليضربه بدلا من الحارسين .. على أن الجلاد لم يكن بلا شك سيقبل هذه النيابة لأنه لم يكن سيفيد منها شيئا ، بل كان سيتجاوز فيها واجبه تجاوزا شديدا ، بل تجاوزا مضاعفا ، لأن ك ، طالما استمرت اجراءات مقاضاته ، كان حتما بالنسبة لموظفي المحكمة شخصا لا يصح التعدي عليه . الا انه لم يكن من المستبعد أن تطبق هنا أوامر خاصة . المهم ان ك لم يستطع أن يفعل شيئا أكثر من ان يقفل الباب ، وان لم يكن هذا يعني أن الخطر كل الخطر قد بعد عن ك تماما نتيجة لهذا العمل . أما انه قد قد صدم فرانتس في النهاية صدمة قلبته فشيء يؤسف له وليس له من مبرر الا الانفعال الذي تملكه» .

وسمع ك وقع خطى الخادمين على بعد . فأقفل الشباك لكي لا يلفت نظريهما اليه واتجه ناحية السلم الرئيسي . ووقف عند باب حجرة المهملات قليلا وانصت . كان الهدوء يخيم على المكان تماما ، ربما كان الرجل قد جلد الحارسين حتى ماتا ، فقد كانا في قبضته لا يفلتان . ولقد مد ك يده الى مقبض الباب ليفتحه ،

ثم ردها ثانية ، فما كان يستطيع الآن أن يعين أحداً ، وكان الخادمين يوشكان على الحضور ، فنوى أن يعود الى الحديث فى الموضوع مرة اخرى وان يعاقبهم العقاب الرادع ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وهبط ك الدرج الخارجى الفسيح للبنك وتفحص اثناء ذلك المادة بدقة ، فلم يجد قريبا ولا بعيدا فتاة يمكن أن تكون منتظرة قدوم أحد . وهكذا تأكد له كذب فرانتس عندما قال له ان عروسة تنتظره ، وان رأى فيها كذبه يصح التماس العفو والصفح عنها ، لأنها كانت تهدف الى اثارة مزيد من الشفقة .

وأتى اليوم التالى ولم يفارق الخارسان مخيلته . كان ك تائها إثناء العمل ، واضطر الى البقاء فى مكتبه فترة أطول من اليوم السابق لينجز العمل ، ولما عبر بحجرة المهملات وهو فى طريق عودته الى البيت ، فتحها وكأن تلك عادته ، وبدلا من أن يرى فيها ظلاما دامسا ، رأى ما لم يستطع تمالك نفسه حياله ! كان كل شيء على حاله لم يتغير ، كان كما وجده فى المساء السابق عندما فتح الباب ، المطبوعات وزجاجات الحبر وراء العتبة مباشرة ، الجلاد والعصا فى يده ، الحارسين وقد تجردا تماما من ثيابهما ، الشمعة فوق الرف ، وبدأ الحارسان فى الشكوى فصاحا : يا سيد ! ..

فأغلق ك الباب عنوة وضرب فوقه بقبضتيه وكأن ذلك يزيد اقفاله احكاما .. وجرى وهو يكاد يبكى الى الخدم وكانوا يعملون هادئين على آلة النسخ فكفوا عن العمل مندهشين وصاح فيهم :

ــ لابد أن تنظفوا حجرة المهملات ، فقد طال تركها على هذه الحال القذرة . اننا نغرق فى القذارة !

وكان الخدم على استعداد للقيام بهذا العمل فى اليوم التالى فاوما ك براسه موافقا . ولم يكن ك يستطيع ان يضطرهم الى القيام بهذا العمل فى هذا الوقت المتأخر من المساء ، وان كان قد قصد الى ذلك من مبدأ الأمر . وجلس هنيهة ، ليبقى الخدم على مقربة منه قليلا ، وخلط بعض النسخ بعضها فى بعض ، وهو يعتقد انه بهذا يدفع الخدم الى تصور انه يفحصها ، ثم انصرف لأنه فهم أن الخدم لم يتجزاوا على الانصراف معه فى الوقت نفسه ، وذهب الى البيت تعبانا مجردا من الأفكار .

الفصل السادس

• العـــــم
• لـيـــــنى

فى عصر يوم من الأيام ـ وكان ك مشغولا جدا قبل الانتهاء من انجاز البريد ـ اندس بين خادمين، كانا يحملان الى ك بعض الرسائل، عمه كارل ، وهو من صغار الملاك ، ودخل المكتب عليه · وأخذ ك ذعر أقل من الذعر الذى كان يأخذه منذ وقت طويل عندما يتصور مقدمه. كان قدوم العم فى هذه المرة شيئا مقررا يعرفه ك يقينا منذ نحو شهر · ولقد تخيل ك عمه في ذلك الوقت وهو يدخل عليه منحنيا قليلا ، حاملا القبعة الخوص المطبقة فى يسراه ، مادا اليه يمناه من بعيد ، دافعا اياها بسرعة لاتعبأ بشىء فوق المكتب ، قالبا كل شىء يصادفه فى طريقه رأسا على عقب · كان العم دائما على عجل ، لأن ثمة فكرة تعسة كانت تطارده وتصور له أن عليه أن يتمكن من قضاء كل مطالبه فى أثناء اقامته بالعاصمة ليوم واحد وألا يدع الى ذلك أية مكالمة أو صفقة أو متعة تعرض له مصادفة دون أن ينتهزها. وكان ك ملتزما حيالة عمه بالتزام من نوع خاص لأن هذا العم كان فيما مضى الوصى عليه فكان يحس أن عليه أن يساعده فى كل أمر ممكن وأن يستضيفه فى حجرته لقضاء ليلته . واعتاد ك أن يسميه « شـبح الريف » ·

وما كاد العم يفرغ من التحية ـ ولم يكن لديه وقت ليجلس فى الكرسى الوثير الذى دعاه ك الى الجلوس اليه ـ حتى رجا ك أن ينفردا

ويتحدثا معا حديثا قصيرا . وقال وهو يبلع ريقه بصعوبة : هذا شيء ضروري ، ضروري لتهدئتي !.

وصرف ك الخدم جميعا من الحجرة في الحال وأمرهم بألا يدعوا كائنا من كان يدخل عليه . وصاح العم عندما أصبحا وحدهما وقد جلس فوق المنضدة ووضع تحته، ليحسن جلسته، أوراقا مختلفة لم ينظر اليها : ما هذا الذي سمعته ، يا يوزف !؟.

وصمت ك فقد كان يعلم ما سيأتي به العم ، ثم ارتاح فجأة من العمل المجهد ، ولكنه استسلم لبلادة لطيفة وتطلع من خلال النافذة الى جانب الشارع المقابل ، فلم ير منه من مجلسه الا قطعة صغيرة مثلثة الشكل عبارة عن حائط غير ذي نوافذ قائم بين شرفتين من شرفات المحلات . وصاح العم رافعا ذراعيه : أنت تنظر من الشباك؟ أجبني يا يوزف ، بحق السماء ! هل صحيح ما سمعت ؟ هل يمكن أن يكون صحيحا ؟

وقال ك وقد انتزع نفسه من تشتت الفكر انتزاعا : يا عمي العزيز ، أنا لا أعرف ماذا تريد مني .

وقال العم محذرا : يا يوزف ! لقد كنت على قدرما أعرف عنك تقول الصدق دائما . فهل ينبغي أن افهم كلماتك الأخيرة على أنها علامة على تغير سيء أصابك ؟

وقال ك طيعا : اننى أتوقع واخمن ماتريد منى ، فالظاهر أنك سمعت عن قضيتى .

واجاب العم وهو يومىء برأسه بطيئا : هو هـذا . لقد سمعت عن قضيتك .

وسأل ك : وممن سمعت ؟

فقال العم : لقد كتبت (ارنا) (١) الى بهذا الخبر ، وهم لم تعد بالطبع على علاقة بك ، وأنت لا تهتم بها كثيرا للأسف ، ومع ذلك فقد علمت بالخبر . ولقد تلقيت الخطاب اليوم وأتيت الى هنا بطبيعة الحال على الفور . هكذا أتيت وليس لحضورى سبب غير هذا ، ولكنه يبدو سببا كافيا . ويمكنني أن أتلو عليك من الخطاب الجزء الذى يخصك . وأخرج الخطاب من حافظة نقوده وقال : هاهو ذا الخطاب. انها تقول فيه:«لم أر يوزف منذ مدة طويلة ، وقدذهبت فى الأسبوع الماضى الى البنك ولكن يوزف كان مشغولا الى درجة أنهم لم يسمحوا لى بالدخول اليه ، وانتظرت ما يقرب من الساعة ثم اضطررت الى الذهاب الى البيت لأحضر حصة العزف على البيانو . ولكم كنت أود أن اتحدث اليه ! وربما أتيحت لى عما قريب فرصة لذلك . وفى يوم عيد ميلادى أرسل الى علبة شوكولاته كبيرة ، وهذا شيء لطيف جدا منه . ولقد نسيت أن أكتب لكم عن الشوكولاته فى الخطاب الماضى ، ولقد تذكرت الآن عندما سألتمونى عنها . وينبغى أن تعلموا أن الشوكولاته تختفى فى البنسيون بسرعه ، فما يكاد الانسان يشعر بأنه قد تلقى شوكولاته كهدية حتى تكون قداختفت. أما يوزف ، فقد كنت أريد أن أقص عليكم شيئا من نبأه . وقد سبق أن ذكرت أنهم فى البنك لم يسمحوا لى بالدخول عليه ، لأنه كان فى ذلك الوقت بالضبط يتفاوض مع بعض الناس . وبعد أن انتظرت

---

(١) بكسر الالف .

فترة من الزمن هادئة، سألت أحد الخدم هل ستطول المفاوضات، فقال ان هذا محتمل ، لأنها على ما يبدو تدور حول القضية القائمة ضد السيد الوكيل . فسألته عن القضية ما أمرها ، وعما اذا كان لايخطىء، فقال انه لا يخطىء، وقال انها قضية، بل وقضية شديدة، ولكنه لا يعرف من أمرها أكثر من هذا . وقال انه شخصيا يود أن يساعد السيد الوكيل ، فهو رجل طيب وعادل ، ولكنه لا يعرف وسيلة الى ذلك ، وقال ان كل مايتمناه هو أن يهتم جماعة من أصحاب النفوذ بالأمر ، وانه متأكد من أن هذا سيحدث ، ومن أن الموضوع سينتهي الى نهاية طيبة . ولكن الموضوع - استنتاجا من مزاج السيد الوكيل - لا يسير على ما ينبغى . وبطبيعة الحال لم أعلق أهمية كبيرة هل هذا الكلام، وحاولت أن أهدىء الخادم الساذج، ومنعته من أن يتحدث أمام آخرين به ، وقلت له انني أعتبر الموضوع كله من ثرثرة الثرثارين . ومع ذلك ، فانه من الخير ، يا أبى العزيز، أن تهتم بالموضوع فى أثناء زيارتك القادمة ، وسيكون من السهل عليك أن تلم بمعلومات دقيقة وأن تتدخل فى الموضوع بمعونة معارفك الكثيرين ذوى النفوذ اذا احتاج الأمر . فاذا لم يحتج الأمر ، وهذا هو ما أراه أقرب الى الاحتمال ، فستكون زيارتك فرصة على الأقل تتمكن فيها ابنتك من معانقتك وما أسعدها بذلك» . وقال العم بعد أن فرغ من التلاوة وجفف الدموع من عينيه : انها بنت طيبة . وأومأ ك برأسه ، وكان ك قد نسى ارنا تماما نتيجة للاضطرابات المختلفة التى توالت عليه فى الآونة الأخيرة ، بل أنه نسى حتى عيد ميلادها ، ويبدو انها اخترعت حكاية الشوكولاته لحمايته من عمه وزوجة عمه . هذا تصرف مؤثر منها ، لن تجزيه تذاكر المسرح التى فكر فى أن يرسلها اليها من الآن فصاعدا ، ولكنه أحس أنه لا يصلح لزيارتها فى البنسيون وتجاذب أطراف الحديث معها، وهى تلميذة صغيرة السن فى الثامنة عشرة.

وسأل العم : وماذا تقول الآن ؟

ونسى كل الاضطراب والانفعال نتيجة للخطاب ، وبدأ كأنه يقرأه مرة ثانية .

وقال ك : نعم يا عمى . هذه هى الحقيقة .

وصاح العم : الحقيقة ؟ ما هذا الذى يعتبر حقيقة ؟ كيف يمكن أن يكون هذا حقيقة ؟ وما هى هذه القضية ؟ هل هى قضية من قضايا العقوبات ؟

وأجاب ك : قضية عقوبات !

وصاح العم وقد استمر صوته يعلو ويعلو : أتجلس هنا هادئا، وهناك قضية عقوبات تثقل كاهلك ؟

وقال ك وقد تملكه التعب : كلما زاد هدوئى ، كلما كان ذلك خيرا بالنسبة لنهايتها . لا تخش شيئا !

وصاح العم : هذا ما لا يمكن أن يهدئنى . يا يوزف ! يا عزيزى يوزف ! فكر فى نفسك ، فكر فى أقربائك ، فكر فى اسمنا الطيب. لقد كنت حتى الآن شرفا لنا ، وما يليق أن تصبح عارا علينا . موقفك هذا - ونظر الى ك مميلا رأسه - لا يعجبنى ، ليس هكذا يتصرف المتهم البرىء الذى ما زال متمالكا قواه . قص على الان بسرعة موضوع القضية حتى أستطيع أن أساعدك . لاشك أن موضوعها هو بطبيعة الحال البنك ؟

وقال ك وقد نهض واقفا : لا ! ولكنك تتكلم بصوت مرتفع جدا ياعمى العزيز ، والظاهر أن الخادم يقف بالباب وينصت . وهذا شىء يسوءنى . أليس الأفضل أن نذهب . وسأجيب على كل أسئلتك فى الخارج على أحسن ما استطيع . وانا أعلم تماما أننى مسئول أمام العائلة .

وصاح العم : هذا صحيح ! هذا صحيح جدا ! هيا يايوزف ، تعجل ، أسرع !

وقال ك : لابد أن أصدر أولا بعض التعليمات قبل أن تنصرف. واستدعى ك نائبه تلفونيا ، فدخل بعض لحظات قليلة ٠ وأشار اليه العم ، فى خضم انفعاله ، بيده بما يفيد أن ك هو الذى استدعاه، وهذا شيء ما كان يمكن أن يعلق به أدنى شك ٠ ووقف خلف مكتبه ، وشرح لنائبه الشاب ، بصوت خفيض مستعينا ببعض الأوراق ، ما ينبغى أن يتم اليوم فى غيابه .وكان نائبه هذا ينصت اليه ببرود ولكن بانتباه وقد أقلقهما العم أولا بوقوفه فاتحا عينيه بجوارها ثم بعضه شفتيه بطريقة عصبية بعد ذلك . لم يكن ينصت الى كلامهما بطبيعة الحال ، ولكن منظره الموحى بذلك كان يقلقهما بما فيه الكفاية ٠ ثم مالبث بعد ذلك أن تحرك يقطع الحجرة جيئة وذهابا ، وكان يقف تارة هنا وتارة هناك أمام نافذة أو صورة ، ويطلق أثناء ذلك صيحات مختلفة مستمرة مثل : هـذا شيء لا أستطيع أن افهمه على الاطلاق ! أو والآن قولوا لى عن النتيجة التى يصير اليها هذا الموضوع ! وتظاهر الشاب بأنه لا يلاحظ شيئا ، وانصت الى أوامر ك الى النهاية ، ودون مذكرات عن بعض الأشياء ثم انصرف بعد أن انحنى أمام ك وأمام العم الـذى كان فى تلك اللحظة مديرا اليه ظهره ، يطل من النافذة وقد مد يديه وكور الستائر تكويرا ٠ وما كاد الباب يغلق حتى صاح العم : لقد انصرف هذا الخليع أخيرا ، ويمكننا أن ننصرف نحن كذلك ! أخيرا !

لم تكن هناك وسيلة لحمل العم على أن يكف عن توجيه أسئلة خاصة بالقضية وهما يسيران في القاعة الأمامية التى تجمع فيها نفر من الموظفين والخدم والتى اجتازها الآن نائب المدير ٠ وبدأ العم كلامه بينما راح يجيب على انحناءات المحيطين به بانحناءة خفيفة : والآن يا يوزف ، قل لى بصراحة ، ما هى هذه القضية ؟

وقال ك كلاما لا يحمل أى معنى ، بل وضحك قليلا ، حتى بلغا السلم فقال لعمه انه لم يحب أن يتكلم بصراحة أمام الناس .

فقال العم : أصبت ! والآن تكلم .

واخذ ينصت الى ك وهو يميل برأسه ، ويدخن سيجارا بنفثات قصيرة سريعة .

وقال ك : القضية ، يا عمى ، هى أولا وقبل كل شيء آخر قضية تختلف تماما عن القضايا التى تعرض أمام المحكمة العادية .

فقال العم : هذا شيء قبيح !

وقال ك وهو يتطلع الى العم : كيف ؟

واعاد العم كلامه : اما أن هـذا شيء قبيـح ، فهـذا هو ما أراه . وكانا الآن يقفـان على السـلم الـكبير المنحـدر الى الشـارع ، ولما لاح البـواب وكأنه يرهف السـمع ، جذب ك عمه الى الشارع ، وابتلعهما المرور الكثيف. ولم يعد العم، الذى تعلق ب ك ، يسأل عن القضية بالحاح ، بل لقـد سـارا فى الطريق مسافة صامتين لا يقولان شيئا . وأخيرا سأل العم وقد وقف فجأة مما اضطر السائرين خلفهما الى الالتفاف مذعورين : ولكن كيف حدث هذا ؟ مثل هذه الأمور لا تأتى فجـأة ، انما تتطـور تطورا طويلا قبل أن تحدث ، ولابد أنه كانت هنـاك دلائل على ذلك ، فلماذا لم تكتب لى ؟ انك تعلم أننى افعل من أجلك كل شيء فأنا لا أزال على نحو ما الوصى عليك ولقد كنت الى يومنا هـذا فخورا بوصايتى عليك . وأنا بطبيعة الحال ساساعدك ، ولكن امر مساعدتك قد أصبح الآن ، بعد أن بدات القضية ، شيئاصعباجدا . وأفضل شيء يمكن أن تفعله الآن هو أن تأخذ اجازة قصيرة وتأتى الى الريف عندنا . ولقـد لاحظت الآن أنك نحفت وعجفت بعض الشيء ، والاقامة فى الريف كفيلة بأن تجعلك تسترد قواك ، وهذا

شيء له قيمته ، فهناك بلاشـــك جهود تنتظرك • كذلك سيؤدي ذهابك الى الريف الى انك ستكون على نحو ما بعيدا عن المحكمة • فالمحكمة لها هنا كل وسائل السلطة الممكنة وهي ستستعملها ضدك تلقائيا اذا دعت الى ذلك ضرورة • أما عندما تكـــون في الريف ، فسيكون على المحكمة أولا أن توفد اليك ممثليها أو أن تحـــاول التأثير عليك بطريق البريد والبرق والتليفون . وهذا من شـــأنه أن يضعف المفعول بطبيعة الحال ، وأن يدعك تلتقط أنفاسك وان لم يطلق سراحك •

وقال ك ـ وكان حديث العم قد جذبه قليلا الى طريق تفكيره : في استطاعه المحكمة أن تمنعني •

ورد العم مفكرا مهتما : لا أعتقد أنها ســـتفعل هذا . فان ما ستفقده من نفوذ بسبب رحيلك ليس من الضخامة بحيث يتعـــين عليها أن تمنعك •

فقال ك وقد أمسك بالعم من تحت ذراعه ليمنعه من الوقوف : لقد كنت أعتقد أنك ستجعل للموضـــوع كله من الأهمية أقل مما جعلت أنا له ، وهاأنتذا تهتم له أكثر مني .

وصاح العم : يوزف ! ـ وحاول أن يفلت منـــه لكي يستطيع الوقوف ولكن ك لم يتركه ـ يوزف ! لقد تغيرت ! لقد كنت دائما ذا قدره صائبة على الفهم ، فهل تخلت عنك الآن قدرتك هذه ؟ هل تريد أن تخسر القضية ؟ أتعرف ما يعني هذا ؟ ان هذا يعني انك ستمحي تماما ، وأن الأقارب جميعا سيجرون الى المصير نفســـه أو على الأقل الى الذلة ، الى أسفل سافلين • يوزف ، استجمـــع قواك • ان بلادتك توشك أن تفتك بعقلي فتكا • وان الانســـان عندما يتطلع اليك ، يوشك أن يصدق الحكمة القائلة : من عالج قضية له على هذا النحو ، فهذا معناه انه قد خسرها !

وقال ك : أي عمي العزيز ! لا فائدة من الانفعال ، والانفعال يتملكك أنت الآن ، ولكنه قد يملكني أنا كذلك • مثل هذه القضايا

لا يكسبها المرء بالانفعال ، ثق في خبراتى مرة ، كما احتـــرم أنا خبراتك ـ مهما بدت لى غريبة ـ احتراما يخالجنى الآن كذلك. ولما كنت ترى أن القضية ستجر العائية أيضا الى الويل والثبور ـ وهذا شيء أنا شخصيا لا أفهمه على الاطلاق ، ولكن فهمى هذا موضوع ثانوى ـ فاننى احب ان اتبعك فى كل امر . الا ان اجازة الريف لا تبدولى ، حسب تفكيرك ، أنت ، ذات فائدة ، لأنها ستحمل معنى الهرب والشعور بالاثم . هذا بالاضافة الى اننى هنا ، وان صحاننى أتعرض للملاحقة أكثر ، أستطيع أن أدفع بموضوعى الى الأمام أكثر مما لو كنت فى مكان آخر .

وقال العم بلهجة توحى بأنهما تقاربا أخيرا : هذا صحيح . ولقد اقترحت عليك هذا الاقتراح ، لاننى تصورت أن الموضوع ، اذا بقيت أنت هنا ، سيتعرض للضرر بسبب تهاونك فيه ولذلك استحسنت أن أقوم أنا بالعمل بذلك . أما اذا كنت تريد أن تقوم بالعمل بكل ما أوتيت من قوة ، فهذا بطبيعة الحال أفضل بكثير .

فقال ك :اذن فنحن متفقان فى هذا الموضوع . فهل لديك الآن اقتراح فيما يجب أن أعمله باديء ذى بدء ؟

فقال العم : لابد أن أفكر فى الموضوع بطبيعة الحال ، وينبغى ألا يغيب عن ذهنك أننى أقيم فى الريف منذ عشرين عاما بلا انقطاع تقريبا ، وأن حاسة الاستشعار تضعف حدتها اذا لم تعمل فى هذه الاتجاهات زمنا طويلا هكذا . ولقد ضعفت صـــلات مختلفة هامة كانت تربطنى بشخصيات قد تعرف فى هذا الموضـــوع أكثر مما أعرف ، وتفككت من تلقاء ذاتها . فأنا فى الريف كالمهجور كمـــا تعلم . والانسان لا يلاحظ هذا الا عندما تطرأ ظروف من هذا النوع ثم أن موضوعك أتانى على غير انتظار،وان كنت،وهذا شيء غريب، قد توقعت شيئا من القبيل بعد أن قرأت خطاب (ارنا) ، ثم عندما رأيتك اليوم عرفته معرفة توشك أن تكون أكيدة . ولكن هذا مالا

أهمية له • الشيء الذى يتسم بالأهمية أعظم الأهمية الآن هو عدم تضييع الوقت • وكان العم وهو مايزال يتكلم قد هب على أطراف أصابعة وأشار إلى سيارة وجذب ك خلفه الى داخلها وألقى فى الوقت نفسه الى سائق السيارة بعنوان • وقال : سنذهب الآن الى المحامى هولد ، وقد كان زميلا لى فى المدرسة . ولاشك فى أنك تعرف الاسم أنت أيضا ؟ هذا شيء عجيب !! فهو رجل مشهور بمرافعاته وبأنه محامى الفقراء • وأنا أثق فيه كانسان ثقة كبيرة •

وقال ك :

ـ أنا أرحب بكل ما تقوم به .

قال هذا على الرغم من ان الطريقة المتعجلة الملحة التى راح العم يعالج بها الموضوع ، كانت تسبب له الضيق . فلم يكن من المفرح جدا ان يذهب وهو متهم الى محامى الفقراء . وقال :

ـ لا أعرف أن الانسان فى مثل هذه الحالة يستطيع ان يلتمس أحد المحامين .

فقال العم : بل هذا شيء طبيعى ، هذا شيء بديهى . ولم لا ؟ والآن قص على كل ما جرى حتى أكون على علم دقيق بالقضية •

وبدأ ك فى الحال يسرد القصة ولا يخفى شيئا على الاطلاق ، وكانت صراحته التامة هى الاحتجاج الوحيد الذى استطاع أن يسمح لنفسه بتوجيهه الى رأى العم المتمثل فى أن القضية عار كبير. وأشار ك الى الانسة بورستنر مرة واحدة فقط وعلى نحو عابر ، ولكن هذا لم ينتقص من الصراحة التى أرادها ، فلم تكن للآنسة بورستنر أية صلة بالقضية • وبينما استغرق فى الرواية كان يطل من النافذة ويلاحظ أنهم يقتربون من تلك الضاحية التى كان بها ديوان المحكمة فلفت نظر العم الى هذا ، فلم يجد العم صلة لذلك بالموضوع تستحق الاهتمام • ووقفت السيارة أمام بيت أغبر • ودق

العم من فوره الجرس فى الدور الأرضى على أول باب رآه هناك ٠ وكشر عن أسنانه الكبيرة مبتسما أثناء انتظارهما وهمس : الساعة الآن الثامنة ، وهذا موعد غير مألوف لزيارة أصحاب القضايا. ولكن هولد لن يستاء منى لذلك ٠ وظهرت فى طاقة الباب عينان كبيرتان سوداوان تطلعتا هنيهة الى الضيفين ثم اختفتا ٠ ولكن الباب لم ينفتح ٠ وأكد العم و ك بعضهما لبعض واقعة مشاهدتهما عينين ٠

وقال العم : انها خادمة جديدة تخشى الغرباء ٠ ودق من جديد وظهرت العينان مرة أخرى ، وكان من الممكن فى هذه المرة أن يتبينا أنهما توشكان أن تكونا حزينتين ، وربما كان هذا تقدير خاطىء بسبب شعلة الغاز المفتوحة التى كانت تحترق قريبا من رأسيهما محدثة الكثير من الاصطكاك وباعثة القليل من الضوء ٠ وصاح العم وهو يضرب الباب بقبضته : افتحى ، نحن صديقا السيد المحامى ٠ وسمعا همسا من خلفهما : السيد المحامى مريض ٠ كان هناك فى نهاية الممر الصغير رجل يقف بباب ويرتدى معطف البيت هو الذى نطق بهذا الخبر وبصوت منخفض مسرف فى الانخفاض ٠

والتفت العم الذى كان الغيظ قد استبد به من جراء الانتظار الطويل ، التفت حوله فجأه وصاح : مريض ؟ تقول انه مريض ؟، واتجه الى الرجل يوشك أن يهدده وكأنما كان هو المرض بعينه ٠

وقال الرجل: «لقد فتح الباب» . . وأشار الى حجرة المحامى ثم لم اذيال معطفه وتوارى ٠ كان الباب قد فتح فعلا ، وظهرت بنت صغيرة ـ وتعرف ك على العينين السوداوين الجاحظتين قليلا ـ كانت ترتدى مريلة طويلة بيضاء ، وقفت فى الحجرة الامامية وكانت تحمل فى يدها شمعة ٠

وقال لها العم بدلا من التحية : فى المرة القادمة عليك أن تسرعى بفتح الباب ، فانحنت البنت بالتحية انحناءة صغيرة ٠ ثم قال ك الذى كان يدفع نفسه قليلا قليلا ناحية البنت : تعال يا يوزف !

وقالت البنت عندما رأت العم يسرع الى باب دون آن ينتظر . السيد المحامى مريض ! وكان ك لا يزال يتطلع الى البنت باعجاب بينما كانت هى قد لفت لتقفل باب حجرة المعيشة من جديد . كانت البنت ذات وجه مستدير يشبه فى شكله وجه العرائس ، ولم تكن الوجنتان هما وحدهما المدورتان ، بل كان الفودان وحواف الجبهة أيضا كذلك .

وصاح العم من جديد : يا يوزف ! ثم سأل البنت : هل هو مرض القلب ؟ .

فقالت البنت : أعتقد ذلك ، وكانت قد وجدت شيئا من الوقت لتتقدمهما وتفتح باب الحجرة . وفى ركن من الحجرة،لم يكن ضوء الشمعة قد نفذ اليه بعد ، ارتفع فى سرير وجه له لحية طويلة .

وسأل المحامى وكان ضوء الشمعة قد بهره فلم يتبين الضيف : يا لينى ، من الذى جاء ؟

وقال العم : أنا ألبرت ، صديقك القديم .

وقال المحامى : آه البرت ، ثم هوى من جديد فوق المخدات ، وكأنما لم يكن بحاجة الى التصنع فى هذه الزيارة .

وسأل العم : هل حالتك فعلا سيئة الى هذا الحد ؟ وجلس على حافة السرير، وأردف : أنا لا أعتقد هذا، فما بك أزمة من أزمات مرض القلب وستمر عابرة كالسابقات .

وقال المحامى بصوت منخفض : جائز . ولكنها أحد من كل الازمات التى طرأت على من قبل . نفسى ثقيل ، ونومى محال وقوتى تهن يوما بعد يوم .

وقال العم : هكذا ! ــ وكبس قبعته اللينة على ركبته بيده الضخمة ــ وأردف يقول : هذه انباء سيئة ! ولكن قل لى ، هل تلقى الرعاية الكافية ؟ فالجو هنا حزين جدا ، حالك جدا . ولقد

مروقت طويل منذ كنت هنا للمرة الأخيرة، وكان الجو هنا قدلاح آنذاك أكثر انشراحا . كذلك آنستك الصغيرة لاتبدو شديدة المرح، أولعلها تتصنع . وكانت البنت لا تزال تقف بالشمعة قريبا عند الباب . وكانت على قدر ما بينت نظرتها غير المحددة ، تنظر الى ك أكثر مما كانت تنظر الى العم ، حتى عندما بدأ العم يتحدث عنها • وارتاح ك في كرسى وثير دفعه على مقربة من البنت •

وقال المحامي : عندما يكون الانسان مريضا الى درجة مرضى ، فلابد له من الراحة . ولكنى لست حزينا . وصمت لحظة ثم عاد يقول : ولينى ترعانى جيدا ، فهى طيبة مجدة .

ولكن هذا الكلام لم يتمكن من اقناع العم ، الذى بدأ عليه التحزب ضد المرضة ، وهو ان لم يكن قد ردعلى المريض بشيء ، فقد لاحق المرضة بنظرات قاسية ، عندما اتجهت الآن الى السرير ، ووضعت الشمعة على المنضدة الصغيرة ثم انحت فوق المريض وهمست اليه بشيء وهى تنظم الوسائد • وأوشك العم أن ينسى كل اعتبار للمريض ، فهب واقفا وسار وراء المرضة هنا وهناك ، ولو أن العم أمسكها من الخلف بملابسها وجرها الى الخارج، لما اندهش ك لذلك . أما ك فقد راح يتطلع الى هذا المشهد كله هادئا ، بل وهو يرحب بمرض المحامى كل ترحيب • لم يكن ك قد استطاع أن يصمد للتحمس الذى اصطنعه عمه حيال قضيته ، ولهذا فقد تلقى بالترحاب النكسة التى أصابت هذا التحمس ، دون أن يضيف هو اليها أى شيء من ناحيته ، وقال العم ، ربما وهو يعمد الى اهانة الآنسة : يا آنسة .. دعينا هنيهة وحدنا ، فلدى مسألة شخصية أريد أن اناقشها مع صديقى .

وزادت المرضة من انحنائها على المريض وهى تبسط الملاءة بيدها عند الحائط ولفت رأسها وقالت بهدوء شديد ، فكان

كلامها آية على الفرق الواضح بين هدوئها وبين غضب العم الذى كان يتعثر فى الكلام تارة ثم ينطلق فى اسراف تارة أخرى :

ـ انك ترى أن السيد مريض ، وانه لايستطيع ان يناقش مسألتك الشخصية .

والظاهر انها كررت كلمات العم على سبيل التبسيط ولكن الانسان ، حتى اذا لم يكن على صلة بالموضوع ، يمكنه أن يحمل هذا التكرار محمل التهكم . وثار العم بطبيعة الحال وكأنه أصيب بوخزة أو ضربة : يا ملعونة !

انطلقت هذه الكلمة فى شهقة الانفعال المنفجر على نحو غير مفهوم تماما ، وفزع ك ، على الرغم من انه كان يتوقع شيئا من هذا القبيل ، وهرع الى عمه ، وهو ينوى نية مؤكدة أن يسد فمه بكلتا يديه . ولكن المريض نهض لحسن الحظ من وراء البنت ـ وكان العم عابس الوجه يبدو كأنه يبتلع شيئا بشمأ .. وقال هادئا : اننا لم نفقد العقل بعد بطبيعة الحال ، واذا لم يكن ما أطلبه ممكنا ، ما كنت طلبته ، من فضلك انصرفى الآن !

وقفت الممرضة قائمة عند الفراش ، ووجهها فى وجه العم ، وراحت ـ وهكذا اعتقد ك ـ تداعب بيدها يد المحامى . وقال المريض بلهجة لاشك تحمل الرجاء الملح : يمكنك ان تقول أمام لينى كل شىء .

فقال العم : ولكن المسألة لا تخصنى أنا ، ليس السر سرى أنا .

والتفت خلفه ، كأنه ينوى الا يدخل فى اية محادثات ، أو كأنه يمنح نفسه فترة تفكير صغيرة . وسأل المحامى بصوت محتضر وعاد يرقد حيث كان : مسألة من اذن ؟

فقال العم : ابن أخى ، ولقد أحضرته معى .

وقدمه قائلا : الوكيل يوزف ك .

فقال المريض وقد ازداد حيوية ومد يده لمصافحة ك :

ـ آه ، لا تؤاخذنى ، اننى لم الاحظ قط انك هنا . اذهبى يا لينى .

كانت عبارته الأخيرة موجهة الى الممرضة ، التى لم تمتنع هذه المرة ، ومد المحامى اليها يده لمصافحتها وكأنه يودعها لوقت طويل . وقال للعم وقد اقترب منه ناسيا ما جرى : انك اذن لم تأت الى لتعودنى ، بل أتيت فى عمل .

وبدا الأمر كأنما كان تصور المحامى الزيارة على انها عيادة له هو الذى أصابه بالشلل ، لأنه لاح الآن وافر القوة ، يستند على كوعه بلا انقطاع وهو مالا يقدر عليه الا ذو القوة وأخذ يشد من حين لحين فى خصلة بوسط لحيته . وقال العم :

ـ انك تبدو اكثر صحة ، منذ ابتعدت هذه الشيطانة .

ووقف عن الكلام ليهمس : اراهن انها تتصنت علينا .

وهب العم قافزا الى الباب ، ونظر ، ولكنه لم يجد وراء الباب أحدا ، فعاد دون أن يصاب بالخيبة ، لأن عدم تصنتها لاح له ذنبا أعظم درجة . وبدا على أية حال مغضبا . وقال المحامى :

ـ انك تخطىء الحكم عليها .

ولم يدافع عنها بأكثر من هذه العبارة ، ولعله أراد بهذا أن يعبر عن أنها ليست بحاجة الى أن يدافع عنها أحد . ثم أردف يقول بلهجة اكثر عطفا : أما فيما يختص بمسألة السيد ابن أخيك فاننى سأعتبر نفسى من السعداء اذا كفت قوتى لمعالجة هذه المهمة التى تتسم بصعوبة بالغة . والشىء الذى أخشاه ، هو أن قوتى قد لا تكفى ، ومع ذلك فلن أنصرف عن المحاولة . على

انه اذا حدث ولم أتمكن من الوفاء بها ، فمن الممكن الالتجاء الى شخص آخر . واريد ان اكون صريحا معك واقول ان القضية تهمنى جدا الى درجة اننى لا أستطيع ان اقرر صرف النظر عن الاشتراك فيها . واذا لم يتحمل قلبى مشقتها فانه على الأقل سيجد فيها فرصة كريمة يتوقف فيها عن الحياة .

وظن ك انه لم يفهم كلمة واحدة من هذه الخطبة كلها ، وتطلع الى العم يلتمس تفسيرا ، ولكن العم كان جالسا حاملا الشمعة فى يده على المنضدة الصغيرة التى كانت احدى زجاجات الدواء قد وقعت من فوقها وتدحرجت على السجادة ، يومىء براسه موافقا على كل شىء قاله المحامى ، وكان من حين لآخر ينظر الى ك ويدعوه الى اصطناع الموافقة نفسها . هل كان العم قد قص على المحامى من قبل شيئا عن القضية ؟ ولكن هذا محال ، فكل ما حدث من قبل ، ينقض هذا الاحتمال . ولهذا قال :

ـ لست افهم !..

وسأل المحامى مندهشا محتارا مثل ك : هه ، هل يحتمل ان اكون قد اسأت فهمك؟ أولعلى أكون قد عجلت بالأمر قبل ان اتلقاه . فيم تريد اذن محادثتى ؟ لقد كنت أعتقد ان الموضوع هو قضيتك .

وقال العم : طبعا .

ثم قال موجها الكلام الى ك : ماذا تريد ؟ .

فقال ك : نعم . ولكن من أين عرفت شيئا عنى وعن قضيتى ؟

فرد المحامى مبتسما : آه . انا محام ، وانا اختلف الى الدوائر القضائية ، واسمع الناس هناك يتحدثون عن قضايا

مختلفة ، واحفظ فى ذاكرتى منها القضايا الملفتة للنظر ، خاصة اذا كانت تخص ابن أخ صـــديق . ليس فى هـــذا مايدعـــو للاستغراب .

وعاد العم يسأل ك : ماذا تريد اذن ؟ انك قلق .

وسأل ك : انت تختلف الى دوائر تلك المحكمة ؟

فقال المحامى : نعم .

وقال العم : أنت تسأل كالأطفال

واضاف المحامى : والى من اختلف اذن اذا لم أختـــلف الى أناس من العاملين فى اختصاصى ؟

وكان للجملة نبرة توحى بأنها لا تقبل النقض .. فسكت ك ولم يرد بتاتا . كان يريد ان يقول له : انت تعمل فى المحـكمة التى بسراى العدالة ، لا فى المحكمة التى فوق السطح .

ولكنه لم يستطع ان يكره نفسه على النطق بذلك فعـــلا .. واستمر المحامى فى الكلام بلهجة تعنى انه يشرح شيئا بديهيـــا بكلام اضافى ولا داعى له : ولا تنس اننى بمخالطة هـذه الدوائر أحقق فوائد كبيرة لزبائنى ، فى اتجاهات كثيرة ، لا يصح ان يكثر الانسان الكلام فيها ، وأنا بطبيعة الحال نتيجة لمرضى الآن معوق بعض الشيء ، ولكنى مع ذلك أتلقى زيارات خيرة أصـــدقائى فى المحكمة واعرف منهم بعض الأخبار . بل اننى أعرف أخبارا أكثـر من آخرين من ذوى الصحة المتـازة ممن يقضون يومهـــم فى المحكمة كله . وانا على سبيل المثال اتلقى الآن زيارة لطيفـــة . وأشار الى ركن من أركان الحجرة مظلم . وسأل ك بلهجة توشـك أن تكـــون غليظـــة من هول المفـــاجاة : أين ؟ . وراح ك ينظر

حواليه محتارا ، فلم يكن ضوء الشمعة الصغيرة يصل الى الحائط المقابل أو يقترب منه . واذا بشيء يبدأ هناك في الحركة . ورفع العم الشمعة عاليا فظهر رجل متقدم في السن يجلس في ذلك الركن . لابد أنه لم يكن يتنفس مطلقا ، فلم يلحظ وجوده أحد طوال هذه المدة الطويلة . وهم الرجل بالوقوف متثاقلا ، ويبدو أنه كان غير راض على أن المحامى قد لفت الأنظار اليه . وبدا عليه كأنه يريد أن يصد بيديه ، التى كان يحركها كالجناحين القصيرين ، كل المقدمات والتحيات ، وكأنه لا يريد أن يقلق الحاضرين بوجوده يرجو ملحا العودة الى الظلام والى نسيان وجوده . ولكن هذا شيء لم يعد من الممكن اتاحته له . وقال المحامى على سبيل الشرح : لقد فاجأتمانا بحضوركما .

ولوح أثناء هذا الى السيد مشجعا اياه على التقدم ، فتقدم هذا ببطء وتردد وهو يدور ببصره فى المكان ولكن بنوع ما من الوقار .

وعاد المحامى يقول :

ـ السيد مدير الديوان .. آه .. معذرة، فأنالم أقدمكم بعضكم لبعض .. هذا هو صديقى البرت ك ، وهذا هو ابن أخيه ، الوكيل يوزف ك ، وهذا هو السيد مدير ديوان المحكمة .

كنت أقول ان السيد مدير المحكمة تكرم بزيارتى . ولا يستطيع تقدير قيمة هذه الزيارة الا العليم بالأمور ، الذى يعرف ضخامة عمل السيد مدير ديوان المحكمة . ولكنه رغم ذلك أتى الى ، وقد تحادثنا وديا ، على قدر ما سمح به ضعفى ، ونحن لم نمنع لينى من ادخال الضيوف علينا ، لأننا لم نكن نتوقع قدوم ضيوف . لقد كنا نريد أن نبقى وحدنا وجاءت لكمات قبضتك على الباب يا البرت ، فتأخر السيد مدير الديوان بكرسيه وبالمنضدة الى الركن ، وما دمنا

الآن ، اعنى اذا كانت هناك رغبــة فى ذلك ، نناقش مسألة عامة مشتركة فيحسن أن نجلس معا بعضنا قريبا من البعض . السيد مدير الديوان !

وقال المحامى العبارة الأخيرة بانحنــاءة من الرأس وابتســامة متواضعة وهو يشير الى كرسى وثير بجوار السرير .

وقال مدير الديوان بلهجة ودية : لن أستطيع للاسف أن أبقى الا بضع دقائق .

ثم جلس على الكرسى الوثير ونظر الى ساعته ، وراح يقول : فالأعمال تنادينى ، ولكنى مع ذلك لا أريد أن افوت فرصة التعرف على صديق لصديقى دون أن أنتهزها .

وانحنى برأسه قليلا ناحية العم الذى بدا مسرورا بالمعــرفة الجديدة ، والذى لم يكن بطبيعته يستطيع أن يعبر عن مشـــاعر الخضوع ، فأطلق مع كلمات مدير الديوان ضحكة حائرة ولــكن عالية . منظر قبيح !

وتمكن ك من ملاحظة كل شىء بهدوء لأن أحدا لم يكن يهتم به . لقد خرج مدير الديوان من مكمنه فملك ناصية الحديث وكانت تلك ، على ما بدا لـ ك عادته . وراح المحامى ، الذى بدا ضعفه السابق كأنما كان ضعفا متعمدا ليطرد به الزوار الجدد ، يسمع باهتمام ، واضعا كفه خلف أذنه . أما العم فكان حامل الشمعة ـ كان يضع الشمعة على فخذه قائمة ،وكان المحامى يكثرمن النظر اليه قلقا ـ كان قد تخلص مما الم به من ارتباك واصبح فى غاية البهجة، سعيدا بطريقة رئيس الديوان فى الكلام ، سعيدا بحركات يده اللطيفــة المموجة التى كان يصاحب كلامه بها . واما ك ، الذى كان مستندا الى عمود السرير، فقد أهمله رئيس الديوان ربما اهمالا تاما متعمدا،

واصبح دوره مع الشيخ المسن دور المستمع . على ان ك لم يكن يعلم الا قليلا بالموضوع الذى دار حوله الحديث ، فما لبث ان فكر تارة فى المرضة وفى المعاملة السيئة التى نالتها على يد العم ، وتارة فى مدير الديوان وهل سبق له ان رآه ذات مرة ، ربما فى الاجتماع عند جلسة التحقيق الأولى . وحتى اذا كان ك قد اخطأ فى التذكر ، فان مدير الديوان بشكله كان ينسجم مع شكل المشتركين فى الاجتماع ، الجالسين فى الصف الأول ، أولئك الرجال ذوى اللحى الهزيلة ، انسجاما ممتازا .

واتت ضجة من الحجرة الأمامية ، كأنها صوت تحطم آنية من الصينى ، جعلت الجميع يرهفون السمع .

ووقال ك : سأذهب لأرى ما حدث .

وخرج ببطء ، وكأنه يريد ان يعطى الآخرين فرصة ليطلبوا اليه ان يعود .

وما كاد يدخل الحجرة الأمامية ، ويسعى لتلمس الطريق وسط الظلام ، حتى حطت يد صغيرة على يده التى كان لا يزال يمسك بها الباب واقفلت الباب بهدوء .

كانت تلك هى المرضة . وهمست اليه : لم يحدث شىء ، لقد قذفت بصحن الى الحائط حتى اخرجك .

وقال ك مترددا مرتابا : لقد فكرت انا كذلك فيك .

فقالت المرضة : عظيم جدا ! تعال !

وسارا بضعة خطوات بلفا بعدها بابا من زجاج معتم فتحته المرضة امام ك . وقالت : ادخل .

كانت تلك الحجرة مكتب المحامى . وعلى قدر ما بدا منها فى ضوء القمر ، الذى كان يضىء مربعا صغيرا على الأرض عند كل نافذة من نوافذها الكبيرة ، كانت الحجرة مؤثثة بأثاث قديم ثقيل.

وقالت الممرضة : هنا .

وأشارت الى صندوق مظلم يتخذ كأريكة له مسند خشبى مزحرف بزخارف محفورة فيه . وعاد ك يدور فى الحجرة ببصره عندما جلس. كانت الحجرة حجرة عالية ، كبيرة، ولابد أن زبائن المحامى كانوا يحسون فى هذا المكان بأنهم ضالين ضائعين. واعتقد ك أنه يرى الخطوات الصغيرة التى يخطوها الزبائن الذين يزورون المحامى متقدمين ناحية المكتب الهائل . ثم نسى هذا ولم يعد له سوى عينان يرى بهما الممرضة التى جلست بجواره تلتصـــق به وتكاد تضغطه الى مسند الأريكة الجانبى . وقالت : لقد ظننت أنك ستخرج الى من تلقاء ذاتك ، دون أن أحتاج الى أن أناديك . شىء عجيب ! . فى أول الأمر عندما دخلت تطلعت الى ولم تبعد عنى بصرك ، ثم بعد ذلك تركتنى أنتظر . نادنى باسمى لينى .

وجاءت الجملة الأخيرة سريعة مباشرة وكأن الممرضة لم تكن تريد أن تضيع لحظة دون أن تستغلها فى هذه المحادثة .

وقال ك : على الرحب والسعة . أما الغرابة ، يا لينى ، فأمرها سهل الشرح . فقد كان على أولا أن أنصت الى ثرثرة الشيخ المسن ولم أستطع أن أنصرف بدون سـبب ، ثم اننى ، ثانيا ، لسـت جريئا ، بل خجولا ، هذا بالاضافة الى أننى لم أر فيك ما يجعلنى أعتقد انه من السهل نيلك بقفزة واحدة .

وقالت : ليس هذا صحيحا .

ووضعت ذراعها على المسند ونظرت الى ك ثم قالت :

ـ ولكنى لم اعجبك ، ويبدو اننى الآن ايضا لا أعجبك .

وقال ك وكأنه يتفادي شيئا : الاعجاب كلمه اقل بكثير !

فقالت مبتسمة : آه .

وأصابت لينى نتيجة لملاحظة ك ولهذا الهتاف تفوقا عليه . ولهذا صمت لحظة . وتعود ك على ظلام الحجرة ، فتمكن من اكتشاف تفصيلات مختلفة في الأثاث . ولفت نظره بصفة خاصة صورة كبيرة كانت معلقة على يمين الباب فانحنى الى الأمام ليراها على نحو أفضل . كانت الصورة تمثل رجلا فى ثوب القاضي ، يجلس فوق كرسي عرش عال ، كان تذهيبه يبرز من الصورة فى اكثر من موضع . أما الشيء الغريب في الصورة ، فهو ان هذا القاضى لم يكن جالسا فى سكون ووقار ، بل كان يضغط ذراعه الأيسر بقوة الى المسند الخلفى والمسند الجانبى ، تاركا ذراعه الأيمن طليقا تماما ، فلم يكن يمسك المسند الجانبى الآخر الا بالكف فقط ، وكأنه كان يريد فى اللحظة التالية أن يقفز بحركة عنيفة وربما ثائرة ليقول شيئا حاسما او ربما لينطق بحكم . وكان من الممكن أن يتصور الانسان ان المتهم يقبع عند قدميه عند السلم الذى ظهرت درجاته العلوية فى الصورة مغطاة بسجادة صفراء .

وقال ك وهو يشير باصبع الى الصورة : ربما كان هذا هو القاضى الذى يقاضينى .

وقالت لينى وهى ترفع بصرها الى الصورة :

ـ انا اعرفه ، فهو كثيرا ما يأتى الى هنا . والصورة من ايام صباه ، ولكنه لا يمكن ان يكون قد شابه الصورة فى أى وقت من الأوقات ، لأنه رجل قصير جدا يوشك أن يكون قزما . ومع ذلك فقد جعل المصور يمطه فى الصورة الى هذا الحد ، فهو

مغرور جدا غرورا جنونيا ، مثله فى ذلك مثـــل الجميع هنا ، وانا كذلك مغرورة ، ولست مسرورة على الاطلاق لأننى لم عجبك.

واجاب ك على ملاحظتها الأخيرة بأن عانقها وجـذبها اليه فأسندت رأسها هادئة فوق كتفيه . أما بقيـــــة كلامها فقـــد رد ك عليه بقوله : ما هى رتبته ؟

فقالت : انه قاضى تحقيق .

وأمسكت بيدك التى كان يطوقها بها وراحت تعبث بأنامله .

وقال ك خائبا : انه هو أيضا لا يزيد رتبة عن قاضى التحقيق . كبار الموظفين مختفون . ولكنه يجلس على كرسى عرش .

وقالت لينى وهى تميل بوجهها فوق يد ك : كل هذا تخريف . وهو فى الحقيقة يجلس فوق كرسى مطبخ عليه بردعة حصان قديمة مطبقة . ولكن هل ينبغى أن تفكر فى قضيتك بلا انقطاع ؟

كانت تلك جملة أضافتها الى ما سبق ببطء .

فقال ك : لا ، بتاتا ، بل انه يلوح اننى لا أفكر فيها الا أقل من القليل .

فقالت لينى : ليس هذا هو الخطأ الذى تتورط فيه. انما أنت لا تلين ، على قدر ما سمعت عنك .

وسأل ك : من هذا الذى قال عنى ذلك ؟

وأحس بجسمها على صدره ونظر الى شعرها الكثيف الأسمر المضفور . وأجابت لينى : اننى اذا أجبت على هذا السؤال ، اكون قد كشفت عن الكثير المفرط من الأسرار . لا تسأل من فضلك عن أسماء . والأفضل أن تتخلص من عيبك ، ولا تكن صارما لا تلين

فما يستطيع انسان أن يدافع عن نفسه أمام هذه المحكمــة ، بل ينبغي أن يقدم الانسان اليها اعترافا . فاعترف فى أول فرصة . عند ذاك تتاح امكانية الافلات ، وعند ذاك فقط . على أن هـــذا الافلات لا يمكن دون معونة آخرين ، ولا ينبغي أن يخيفك أمر هذه المعونة ، فسأقدمها أنا اليك .

وقال ك : انك تفهمين الكثير من أمر هذه المحكمة ومن أمر الوان الغش اللازمة لها .

ورفعها الى حجره لما رآها تضغط نفسها اليه ضغطا مفرطا .

وقالت : هذا حسن !

واعتدلت فى جلستها على حجره وسوت جونيلتها واصلحت وضع بلوزتها . ثم تعلقت بكلتا يديها فى رقبته مدة طويلة ، ثم مالت الى الخلف وتطلعت اليه طويلا .

وسأل ك على سبيل التجربة : واذا لم اعترف ، فلا يمكنك أن تعاونينني ؟

وفكر وهو يوشك على الدهشة : انني القى المعاونات ، الواحدة بعد الأخرى ، أولا الآنسة بورستنر ، ثم زوجة خادم المحكمة ، وأخيرا هذه الممرضة الصغيرة ، التى تبدو فى حاجة الى لا أعرف السبيل الى فهمها . انها لتجلس على حجرى وكأنه مكانها الصحيح الوحيد !

واجابت ليني : لا .

وهزت راسها ببطء ثم اضـافت : لن أسـتطيع عنـد ذاك مساعدتك . ولكنك لا تريد معاونتى ، وانت لا تهتم بها مطلقا ، فأنت عنيد لا تقتنع .

ثم سألت بعد هنيهة : هل لك عشيقة ؟

فقال ك : لا .

فقالت : بل لك !

فقال ك : نعم فعلا ! تصورى اننى أنكرها وأنا أحمل صورتها معى ..

ورجته أن يريها الصورة فأراها صورة الزه ، فتكورت على حجره وأخذت تدرس الصورة . كانت الصورة لقطـة لحظيـة ، اخذت لها بعد رقصة صاخبة من النوع الذى تحب أن تؤديه فى الحانه .

كانت جونيلتها طائرة دائرة مثنية حولها ، وكانت تضع يديها على ردفيها الجامدين وتنظر ضاحكة الى جانب وهى تشد رقبتها شدا . ولم يكن واضحا فى الصورة لمن تضحك .

وقالت لينى : انها تسرف فى تقميط نفسها .

وأشارت الى الموضع الذى يتضح فيه ذلك حسب رأيها . ثم قالت : انها لا تعجبنى ، فهى مرتبكة وخام ، ولكن ربما كانت معك لطيفة ورقيقة ، وهذا شىء يمكن أن يستنتجه الانسان من الصورة . فمثل هذه البنات الطويلات الجسيمات لا يعرفن فى الغالب شيئا أكثر من التلطف واصطناع الرقة . هل يمكن أن تضحى بنفسها من أجلك ؟

فقال ك : لا ، لاهى باللطيفة ولاهى بالرقيقة ، ولا يمكن أن تضحى بنفسها من اجلى . هذا الى اننى لم أطلب منها لا هذا ولا ذاك . بل اننى لم أنظر الى الصورة بدقة كما فعلت .

فقالت لينى : اذن فأنت لا تهتم بها كثـيرا ، وهى اذن ليست عشيقتك .

فقال ك : بلى ، فأنا لا ارجع فى كلامى .

فقالت لينى : لقد تكون عشيقتك ، ولكنك لن تحس بوحشة اليها اذا أنت فقدتها ، أو اخذت اخرى ، أنا مثلا ، بدلا منها .

فقال ك مبتسما : بلا شك ، هذا غير مستبعد ، ولكنها تمتاز عليك بميزة كبيرة ، فهى لا تعرف شيئا عن قضيتى ، وحتى لو عرفت عنها شيئا ، فلن تفكر فيها . ولن تحاول أن تغرينى باللين .

فقالت لينى : هذه ليست ميزة . واذا لم يكن لديها ميزات اخرى ، فلن افقد الأمل . هل بها اى عيب جسمانى ؟

فسأل ك : عيب جسمانى ؟

فقالت لينى : نعم ، فأنى بى مثلا هذا العيب ، انظر !.

وبسطت الأصبع الوسطى والبنصر ليدها اليمنى وباعدت بينهما ، فاذا غشاء يربطهما الى العقلة العليا من الأصابع القصيرة . ولم يتبين ك فى الظلام على الفور ما أرادت أن تريه اياه ، لهـذا اخذت يده الى الموضع ليتحسسه .

فقال ك : يا للعنة الطبيعة !

ثم أضاف بعد أن رأى اليد كلها : ما اجمل هذا المخلب !.

ونظرت لينى فى شيء من الفخر والزهو الى ك وهو يباعد مندهشا بين الاصبعين ويضمهما ، وينتهى فى النهاية بتقبيلهما عابرا وتركهما . فصاحت على الفور : آه ، لقد قبلتنى !

وتسلقت بسرعة على ركبها الى حجره وقد إفتحت فمها . وتطلع ك اليها وهو يوشك أن يكون مذهولا ، فعندما اقتربت منه الى هذه الدرجة فاحت منها رائحة مريرة مثيرة كالفلفل ، وتناولت رأسه

وانحنت عليه وعضت وقبلت رقبته ، وعضت حتى شعره . وكانت من حين الآخر تصيح : لقد استبدلتنى ، لقد استبدلتنى الآن !

وزلت ركبتها فأوشكت وهى تصيح صيحة صغيرة أن تقع على السجادة ، فضمها ك ، ليسندها الا تقع ، فانحدر اليها .

فقالت : أنت الآن لى .

وقالت : اليك هذا المفتاح، مفتاح البيت، تعال متى أردت .

كانت تلك كلماتها الأخيرة ، وأصابته قبلة منهـا غير محـددة الهدف ، أصابته على ظهره ، وهو فى طريق الانصراف . فلما خرج من باب البيت ، كانت الدنيا تمطر مطرا خفيفا . وأراد أن يذهب الى منتصف الشارع ربما ليرى لينى فى الشباك ، فاذا بالعم يرتمى من سيارة كانت تنتظر أمام البيت ولم يلحظ ك وجودها لشرود فكره ، وامسكه العم من ذراعيه وخبطه فى باب البيت وكأنه كان يريد أن يسمره فيه ، وصاح :

ــ يا ولد ! كيف أمكنك أن تفعل هذا ؟! لقد أفسدت قضيتك افسادا فظيعا وكانت سائرة فى طريق طيبة . أتتوارى مع بنت صغيرة قذرة ، ربما كانت على ما يبدو عشيقة المحامى وتظل ساعات طوال بعيدا عنا ؟! وليتك التمست حجة ملفقة ، أو ترددت ، لا ! لقـد خرجت اليها بلا استخفاء ، وبقيت معها . وكنا فى هذه الأثنـاء نجلس معا ، العم الذى يبذل الجهود من أجلك ، المحامى الذى نريد كسبه لك ، وقبل هذا وذاك رئيس الديوان ، هذا الرجل العظيم الذى له السيطرة التامة على قضيتك فى هذه المرحلة . كنا نريد أن نتشاور فى كيفية مساعدتك ، وأنا أضطر الى معاملة المحامى بحذر ، والمحامى يضطر الى معاملة مدير الديوان بحذر . كان هناك من الأسباب ما يكفى ليكون عليك أن تساعدنى ! ولكنك

بدلا من أن تفعل ذلك انصرفت الى بعيد . وما أصعب التستر على فعلة كفعلتك !

ولكن الرجلين كانا مهذبين محنكين ، فلم يتكلما بل ترفقا بى ، ولكنهما فى النهاية لم يستطيعا السيطرة على أنفسهما الى الأبد . ولما لم يستطيعا أن يتكلما فى الموضوع ، فقد لاذا بالصمت . وهكذا جلسنا دقائق صامتين نرهف السمع علك أن تعـود . ولـكن بلا جدوى . وأخيرا وقف مدير الديوان الذى كان لقد بقى مدة اطول مما كان يريد ، وودعنى وبه أسى على واضح للعيان ، فلم يتمكن من مساعدتى . ثم انتظر مدة بالباب فى لطف لا سبيل الى فهمه ، وأخيرا انصرف . وكنت بطبيعة الحال سعيدا لانصرافه ، لأن نفسى كان قد انقطع من فرط ما ألم بى . وأثر هذا كله على المحامى المريض على نحو أكثر شدة ، فلم يستطع الرجل الطيب أن يتكلم اطلاقا عندما ودعته لأنصرف . والظاهر أنك أسهمت بنصيب فى انهياره التام وأنك بما فعلت انما تعجل بموت رجل نحن فى حاجة ماسة اليه . أما أنا ، عمك ، فقد تركتنى هنا فى المطر ــ جس الى أى حد تبللت ملابسى ــ تركتنى ساعات طوال أعذب نفسى بألوان القلق .

الفصل السابع

• محـــام
• رجل صنـــاعـة
• مصـــور

فى صباح يوم من أيام الشتاء ـ كان الثلج يتساقط فى الخارج فى ضوء عكر ـ كان ك يجلس فى مكتبه متعبا أشـد التعب على الرغم من أن الساعة كانت مبكرة . وأعطى الخادم امرا بألا يدخل عليه أحدا نظرا لاشتغاله بعمل كبير ، حتى يحمى نفسه على الأقل من صغار الموظفين . ولكنه بدلا من أن يعمل ، أخذ يدور بكرسيه الوثير ، ودفع ببطء بعض الأشياء الموضوعة فوق المنضـدة ، ثم أسند ذراعه كله ممدودا على قرصة المنضدة دون علم منه ، وظل جالسا بلا حراك، وهو يميل برأسه الى أمام .

لم يعد التفكير فى القضية يتركه . وكثيرا ما فكر فيما اذا كان من الأفضل أن يؤلف مرافعة تحريرية ويقدمها للمحكمة . وكان يريد أن يضمنها وصفا موجزا لحياته ويشرح فيه عند كل واقعة تتسم بشىء من الأهمية الأسباب التى من أجلها تصرف هذا التصرف أو ذاك ، ويبين ما اذا كانت طريقة التصرف تلك مقيتة أو حميدة حسب تقديره الحالى مع ذكر الأسباب المؤيدة أو المعارضة . كانت ميزات مثل هذه المرافعة التحريرية بالقياس الى المرافعة العادية على يد محام ـ له بطبيعة الحال عيوبه ـ ميزات لاشك فيها .

ولم يكن ك يعلم شيئا عما فعله المحامى، ولكن ما فعله لم يكن على

اية حال كثيرا ، فلم يستدعه اليه منذ شهر بكماله وتمامه ، كذلك لم يحس ك فى المحادثات السابقة معه أن هذا الرجل يمكنه أن يفعل من أجله الكثير . فالمحامى أولا وقبل كل شيء لم يستفهم منه تقريبا عن الموضوع . وكان الموضوع يحتمل الكثير من الاستفهام والسؤال . بل ان الاستفهام كان هو الأمر الأساسى فيه . وكان ك يحس كأنه يستطيع هو بنفسه أن يضع جميع الأسئلة التى يتطلبها هذا الموضوع . أما المحامى ، فبدلا من أن يسأله ، كان يحكى له أو يجلس أمامه صامتا ، وينحنى ، على ما يبدو بسبب سمعه الضعيف ، الى الأمام فوق المكتب قليلا ، ويشد فى خصلة شعر من بين خصلات لحيته ، وينظر الى أسفل حيث السجادة ، ربما الى الموضع الذى رقد فيه ك وليني . وكان من حين لآخر يعطى ك تنبيهات فارغة من نوع التنبيهات التى قد تصلح للاطفال . وكانت تلك التنبيهات سخيفة مثلها مثل خطبه المطولة المملة ، وكان ك مصمما على الا يدفع ثمنا لها اطلاقا عندما يتحاسب مع المحامى فى النهاية .

وبعد أن ظن المحامى أنه قد أذل ك بما فيه الكفاية ، بدأ يشجعه قليلا ، وكانت تلك عادته ، فحكى له عن قضايا كثيرة مشابهة كسبها كليا أو جزئيا . قضايا ان لم تكن فى الحقيقة فى

مثل صعوبة قضية ك ، فانها تبدو فى ظاهرها مثلها ميئوسا منها .
وكان لديه ، كما قال ، قائمة بهذه القضايا فى الدرج ـ وعندما
قال هذا خبط على درج من أدراج المكتب ـ ولكنه لا يستطيع أن
يريه الأوراق فهى من أسرار المحكمة . ومع ذلك ، فان الخبرة
الكبيرة التى نالها فى هذه القضايا ، تفيد ك بطبيعة الحال . وقال
انه بدأ فى الحال العمل فى القضية ، وانه أوشك على الفراغ من
الذكرة الأولى. وقال ان المذكرة الأولى بالغة الأهمية لأن الأثر الأول
الذى يحدث فى المرافعة ، هو الذى يحدد فى أكثر الأحوال اتجاه
القضية كلها . ثم انه لفت نظر ك الى انه يحدث للأسف أحيانا الا
تقرأ المذكرات الأولى على الاطلاق . وانها تضم بكل بساطة الى
الملفات ويقال عند ذاك ان استجواب المتهم ومراقبته أكثر اهمية،
من كل المذكرات المكتوبة . وموظفوا الديوان يقولون ، اذا ألح
السائل فى السؤال ، انهم قبل اتخاذ حكم فى القضية ،يفحصون
كل الأوراق عندما تكتمل وتكون مترابطة بالطبع بعضها مع البعض ،
ومن بينها اذن المذكرة الأولى . ولكن هذا الكلام للأسف ليس
صحيحا فى الغالب ، لأن المذكرة الأولى تتوه عادة أو تضيع تماما ،
وحتى اذا بقيت للنهاية ، فانها لا تكاد تجد من يقرأها ، على قدرما
علم المحامى عن طريق اشاعات وصلته لا اكثر . كل هذا شيء
يؤسف له ، ولكنه لا يفتقر تماما الى السند ، فما ينبغى أن يغفل
ك أن الاجراءات ليست علنية ، وان كان من الممكن ان
تكون علنية ، اذا ما رأت المحكمة ضرورة لذلك ، ولكن القانون
لا يفرض العلنية . ويستتبع هذا أن جميع أوراق المحكمة ، وخاصة
صحيفة الاتهام ، لا يسمح للمتهم ولا للدفاع بالاطلاع عليها ، ولهذا
فالمحامى فى المعتاد لا يعرف ، أو على الأقل لا يعرف على وجه
الدقة ، ما ينبغى أن تنقضه المذكرة الأولى ، وينبنى على هذا أنها
لا يمكن أن تشتمل على كل شيء يهم القضية الا بطريق المصادفة

البحتة . أما المذكرات الصالحة ذات الأدلة الفعلية فلا يمكن تصنيفها الا فيما بعد ، عندما تتضح نقط الاتهام وأسبابها أو عندما يمكن تخمينها فى أثناء استجوابات المتهم .

والمرافعة فى هذه الظروف بطبيعة الحال عمل صعب عسير . ولكن هذا بدوره أمر مقصود . فالدفاع عن المتهمين ليس مسموحا به قانونا بمعنى الكلمة ، وموظفو المحكمة يحتملونه ، وان كان نص القانون الذى يؤخذ منه أن الدفاع عن المتهمين يصح احتماله ، نص عليه خلاف . فاذا أردنا الدقة الدقيقة ، قلنا انه ليس هناك محامون تعترف بهم المحكمة ، والمحامون الذين يترافعون امام هذه المحكمة هم جميعا فى الحقيقة من حثالة المحامين أصحاب الحيل . وهذا شىء له أثر مهين جدا على طبقة المحامين كلها . وقال المحامى ، ان ك يستطيع ان يمر على حجرة المحامين ليرى ذلك بعينيه ، عندما يذهب عما قريب الى مكاتب الديوان ، ولعله عندما يرى الجماعة المجتمعة فى تلك الحجرة أن يصاب بالفزع . فالحجرة الضيقة ذات السقف المنخفض التى خصصت لهم تبين مدى امتهان المحكمة لهؤلاء الناس فهى تستمد النور من نافذة صغيرة مرتفعة ارتفاعا شديدا حتى انه اذا اراد أحد المحامين أن يطل منها ، تحتم عليه أن يرجو أحد الزملاء أن يحمله فوق ظهره .. هذا الى أن هناك مدخنة تجلب دخانا يزكم الأنف ويسود الوجه . وبأرضية هذه الحجرة ـ وهذا مثل آخر اسوقه على هذه الأحوال ـ خرق منذ أكثر من عام ، وهو ليس من الكبر بحيث يسقط منه الانسان ، ولكنه يكفى لكى تنفذ منه الساق . وحجرة المحامين فى الدور الثانى ، فاذا نفذت الساق من هذا الخرق ، تدلت الى الدور الأول ، وعلى وجه التحديد ، الى الممر الذى ينتظر فيه أصحاب القضايا . وهكذا فان ما شاع فى دوائر المحامين من وصف هذه الظروف بأنها مخزنة شىء لا مبالغة فيه . ولم تؤد

الشكاوى التى وجهها المحامون الى الادارة الى أقل نجاح ، بل لقد حظر على المحامين حظرا شديدا أن يغيروا شيئا فى الحجرة ولو كان ذلك على نفقتهم الخاصة . على أن معاملة المحامين على هذا النحو لها هى أيضا مايبررها . فالمحكمة تريد على قدر الامكان الغاء الدفاع وترى أن يكون كل شىء مركزا على المتهم نفسه . وهذا رأى ليس رديئا فى أساسه ، على أنه ليس هناك شىء أكثر خطأ من أن يتصور الانسان استنتاجا من هذا أن المحامين فى هذه المحكمة لا ضرورة لهم بالنسبة للمتهمين . على العكس فليست هناك محكمة للمحامين فيها ضرورة أشد من هذه المحكمة . فالاجراءات القضائية هنا لا تكتم على الجمهور فحسب ، بل على المتهم كذلك . ويتم هذا الكتمان بالطبع فى حدود الامكان ، وما أكبرها ! . المحكمة لا تسمح للمتهم بالاطلاع على أوراق القضية ، ومن الصعب جدا أن يستنتج الانسان من الاستجوابات ما هى الأوراق التى اعتمدت عليها . والمتهم خاصة لا يستطيع هذا لأنه يكون مرتبكا محملا بألوان من القلق تجعله شارد الذهن . وهنا تبرز ضرورة الدفاع .

والمحامى لا يسمح له بصفة عامة أن يحضر الاستجوابات ، ولهذا يتحتم عليه أن يسأل المتهم بعد الاستجواب ، عند باب حجرة التحقيق أن أمكن ، عما قاله ، ويستخلص من كلامه المضطرب أشد الاضطراب ما يفيد فى المرافعة . ولكن الشىء الذى يتسم بالأهمية البالغة ليس هذا ، فليس من الممكن أن يستخلص المحامى الكثير بهذه الوسيلة ، وان كان المحامى الماهر بطبيعة الحال يستطيع أن يستخلص أكثر من غيره . الشىء الذى يتسم بالأهمية البالغة هو العلاقات الشخصية للمحامى ، ففيها القيمة الأساسية للدفاع . ولقد تبين لك من خبراته الشخصية أن المستويات الدنيا للمحكمة لا تتصف بالكمال ، ففيها موظفون يهملون واجبهم ويرتشون ، وهذا من شأنه أن يحدث

فى التكوين الدقيق للمحكمة ثغرات . ومن خلال هذه الثغرات ينفذ أكثر المحامين ، فتارة يرشون وتارة يتجسسون ، بل لقد حدثت ، على الأقل قديما ، حالات سرقة ملفات القضايا . وليس هناك سبيل لانكار ما تتيحه هذه الطريقة حاليا من الوصول الى نتائج مفيدة باهرة ، وهذا شيء يزهو به صغار المحامين ويجتذبون به زبائن جدد . ولكن هذا المسلك لا يعتبر شيئا او لا يعتبر شيئا طيبا بالنسبة لبقية أدوار القضية . الشيء الوحيد الذى له قيمة حقيقية هو العلاقات الشخصية الشريفة ، التى تربط المحامى خاصة بكبار الموظفين ، أعنى بكبار موظفى الدرجات الدنيا فى ديوان المحكمة . هذه العلاقات هى التى تؤثر على مجرى القضية ، ربما على نحو غير ملحوظ فى بادىء الأمر ، ولكنه يظهر بوضوح متزايد بعد ذلك . وهذا شيء لا يقدر عليه الا قلة المحامين بطبيعة الحال ، وهنا يتضح حسن اختيارك لمحاميه جليا . هناك غير الدكتور هولد واحد أو اثنان غيره لهم مثل هذه العلاقات . هؤلاء لا يهتمون بالجماعة المضطربة فى حجرة المحامين بل ولا شأن لهم بها . انهم يهتمون باقامة علاقات أوثق بموظفى ديوان المحكمة . حتى انه لم يعد من الضرورى أن يذهب الدكتور هولد الى المحكمة دائما وان ينتظر فى الأروقة أن يظهر قضاة التحقيق مصادفة وان يحصل بحسب مزاجهم على نجاح ظاهرى فى الغالب أو لا يحصل على نجاح اطلاقا . لا ، لقد رأيك بعينيه ، أن الموظفين ، ومن بينهم كبار حقا ، يأتون اليهم بأنفسهم ، ويقدمون اليه راغبين بيانات ومعلومات اما صريحة أو سهلة التأويل ، ويناقشون مجرى القضية ، بل ويقتنعون برأيه فى بعض الحالات ويقبلون الرأى منه وهو الغريب عليهم . على انه لا ينبغى أن يثق الانسان فى هؤلاء الموظفين ثقة كبيرة فيما يختص بالنقطة الأخيرة ، فمهما عبروا عن نية جديدة أكيدة فى صالح الدفاع ، فقد يذهبون بعد ذلك مباشرة الى الديوان ويصدرون

حتما ليعلن فى اليوم التالى ، يكون العكس على خط مستقيم او ربما أشد قسوة على المتهم مما كانوا قد بيتوا النية عليه من قبل ، وأعلنوا انهم قد صرفوا النظر عنه تماما . وهذا شيء لا يستطيع الدفاع أن يفنده أو يدراه ، فما قالوه له فى السر ، هو سر بين اثنين،ولا يمكن أن يكون له نتيجة علنية،حتى اذا لم يكن الدفاع قد سعى للحصول على حظوة لدى السيد القاضى .

ومن ناحية أخرى فانه من الصحيح ان السادة القضاة لا يتصلون بالدفاع ، وبطبيعة الحال بالمحامين ذوى الخبرة الفنية ، بدافع من المحبة الانسانية أو المشاعر الودية ، بل لأنهم على نحو ما معتمدون عليه . وهنا يتضح سوء نظام محكمة يقوم حتى فى بدايته على أساوب المحكمة السرية . فالموظفون فى ديوان المحكمة هذه يفتقرون الى الصلة بالأهالى . ولا يظهر اثر هذا فى حالات القضايا العادية والمتوسطة التى يقضون فيها بسهولة ويسر ، حتى أن القضية من هذا النوع توشك أن تنزلق من تلقاء ذاتها فى مسارها ولا تحتاج الا الى دفعة هنا وهناك . أما فى حالات القضايا المفرطة فى البساطة وكذلك القضايا المفرطة فى الصعوبة فغالبا ما تستبد بهم الحيرة ، فهم لالتزامهم قيود القانون ليلا ونهارا ، يفتقرون الى الوعى الصحيح بالعلاقات الانسانية ، وما أشد حاجتهم الى هذا الوعى فى مثل هذه الحالات ! عند ذلك يأتون الى المحامى يلتمسون نصحه ، وخلفهم خادم يحمل الملفات التى يكتنفها السر عادة . وكم تتابع على هذه النافذة رجال ما كان أحد يتوقع ذلك منهم الا أبعد التوقع . كانوا يتطلعون بأبصارهم حيرى الى الحارة،بينما المحامى يجلس الى مكتبه يدرس الملفات ، ليقدم اليهم النصيحة الصحيحة . ويستطيع الانسان فى مثل هذه المناسبات أن يرى كيف يحمل هؤلاء السادة مهنتهم محل الجد الشديد وكيف أنهم عندما يلقون

عراقيل لا قدرة لهم على قهرها ينحدرون الى يأس شديد . على أن مركزهم مركز ليس بالمركز السهل ، ولا ينبغى على الانسان ان يظلمهم ويعتبره سهلاً هينا . فترتيب الرتب فى المحكمة سام لا نهاية له ولا سبيل حتى للعلم به الى رؤية نهايته . والمحاكمات الدائرة أمام المحاكم تظل سرا مغلقا حتى على صغار الموظفين عامة، ولهذا فانهم لا يستطيعون مطلقاً متابعة القضايا التى يشتغلون بها الى مراحلها التالية متابعة كاملة . القضية اذن تعرض لهم دون ان يعلموا من اين أتت ، ثم تسير سبيلها ، دون أن يعلموا الى أين تسير . ونتيجة ذلك انهم لا يصيبون المعرفة التى يغترفها الانسان من دراسة مراحل القضية والحكم النهائى والحيثيات . على هؤلاء الموظفين أن يشتغلوا بجزء معين من القضية حدده لكل منهم القانون ، ولا يعلمون فى الغالب عما عداه ، أى عن نتائج عملهم ، الا ما يقل عما يعمله الدفاع لأنه يظل عادة متصلا بالمتهم حتى نهاية القضية . الدفاع اذن يحيط بما لا يحيطون به ويستطيع أن يمدهم بما يتسم بالقيمة والأهمية . فهل يدهش ك الآن وقد أخذ هذا كله فى اعتباره ، من سرعة غضب الموظفين ، وهو الشىء الذى يتخذ أحيانا حيال المتقاضين — وكل واحد مر بهذه الخبرة — صورة مهينة الى أقصى حد ؟! كل الموظفين عصبيون حتى اذا ظهروا بمظهر الهادئين . وصغار المحامين بطبيعة الحال يعانون من ذلك الكثير المفرط . وقد حكى بعضهم هذه القصة التى تلوح حقيقية الى درجة كبيرة جدا :

كان احد الموظفين ، وهو رجل متقدم فى السن ، هادىء الطبع ، يشتغل بقضية صعبة زادتها مذكرات المحامى تعقيدا ، وعكف على دراستها يوما وليلة بلا انقطاع — وهؤلاء الموظفين مجدون جدا حقيقيا وليس هناك من يفوقهم فى هذا المضمار . ولما أصبح الصبح على الموظف بعد عمل استمر أربع وعشرين ساعة ، يبدو

انه لم يثمر ، ذهب الى باب المدخل ، ووقف هناك متربصا ، واخذ يلقى الى أســـفل الدرج بكل محام يحـــاول الدخول . وتجمع المحامون على عتبة السلم وتشاوروا فيما ينبغى عليهم فعله ، فهم من ناحية ليس لهم حق واضح فى الدخول ، ولهذا فلا يستطيعون اتخاذ شيء ضد الموظف فى الناحية القانونية ، وليس من صالحهم كما سبق الذكر ان يثيروا جماعة الموظفين ضـــدهم . ومن ناحية اخرى كان كل يوم لا يقضـونه فى المحكمة يوما ضائعا ، وكانوا لذلك يهتمون بالدخول . واخيرا اتفقوا على أن يتعبوا الرجل المسن الى حد الاعياء ، فكانوا يرسلون المحـــامى منهم تلو الآخر ، فيصعد الدرج ويدع الموظف يقذف به ولا يقاوم الا مقاومة سلبية ما أمكنت السلبية ، فيتلقفه زملاؤه . واستمر هذا نحو ساعة،عند ذاك خارت قوى الموظف العجوز ـ وكان العمل بالليل قد أنهك قواه من قبل ـ وعاد الى الديوان . على أن المحاميين الواقفين أســـفل الدرج لم يصدقوا أن الموظف قد عاد الى الديوان نهائيا ، وارســـلوا أحدهم لينظر وراء الباب ويتأكد من أنه ليس هناك . عند ذاك دخلوا ولم يتجاسروا فى الغالب على التململ . لأن المحامين ـ واصـــغرهم يستطيع أن يبصر بالظروف كليا أو على الأقل جزئيا ـ لايستطيعون مطلقا أن يدخلوا أو ينفذوا اصلاحات فى المحكمة ، بينما يستطيع ـ وهذا شيء له دلالته ـ كل متهم تقريبا ، حتى البسيط الساذج أن يفكر عند أول بداية للقضية فى مقترحات اصلاحية ، ويضيع بذلك فى الغالب من الوقت والقوةماكان ينبغى عليهأن يحسن استخدامه. ان الراى الصائب الوحيد هو قبول الظروف الراهنة كما هى. حتى اذا كان من الممكن اصلاح بعض التفصيلات ـ وهذه خرافه جنونية ـ فهذا الاصلاح يعنى على أحسن الاحتمالات ، اصلاحا ينطبق على حالات قادمة ، واضرارا بالذات اضرارا بليغا يتمثل فى اثارة انتباه الموظفـــين التـــواقين الى الانتقـــام . ينبغى بصـــفة خاصـــة ان

يتحاشى الانسان اثارة الانتباه ، وان يلزم الهدوء حتى عندما تسير الأمورعلى عكس مايفكر تماما،وأن يحاول فهم أن هذا الكيان العضوى الضخم للمحكمة يهيم على نحو ما في الهواء ، وان الانسان وهو في مكانه اذا غير شيئا من تلقاء نفسه ، يضيع الأرض التي تحت قدميه ويوشك أن يهوى بنفسه ، بينما الكيان العضوى الضخم يجد لنفسه بسهولة مايعادل الاضطراب الطفيف في مكان آخر - فأطرافه كلها مترابطة معا - ويظل كما هو لم يتغير ، الا اذا ازداد استغلاقا وحدة وقسوة وشرا ..وهو شيء محتمل جدا . ولهذا فينبغي أن يترك المتهم العمل للمحامي، وألا يحدث فيه اضرابا . واللوم لا يجدى نفعا كثيرا وبخاصة ان كان الانسان لايستطيع أن يبرره تماما ويجعل أسبابه مفهومة في كامل معناها . على أنه ينبغي أن يقال ان ك اضر بقضيته بتصرفه حيال مدير الديوان ، اضرارا بليغا . لقد أدى هذا التصرف الى أنه أصبح من قبيل المحتم حذف اسم هذا الرجل ذى النفوذ من قائمة أولئك الذين كان يمكن اللجوء اليهم لفعل شيء في صالح ك . فقد أصبح يتعمد تعمدا واضحا عدم الانصات الى الاشارات حتى العابرة الى قضية ك . والموظفون في بعض شئونهم كالأطفال .

وكثيرا ما تؤدى الأمـور البسيطة البريئة ، وليس تصرف ك للأسف منها ، الى جرحهم واثارتهم الى درجة أنهم يكفون حتى عن الحديث الى خيرة الاصدقاء ، وينصرفون عنهم اذا لاقوهم ويعملون ضدهم في كل شيء . ثم يحدث فجأة وبدون سبب خاص أن يردهم الى الوفاق مزاح بسيط يكون الانسان قد سمح لنفسه به معهم وقد تصور أن كل شيء أصبح مجردا عن الأمل ، فاذا به يضحكهم ويردهم الى الوفاق . ولهذا فان التعامل معهم سهل وصعب في وقت واحد ، ولا تكاد توجد لهذا التعامل معهم أسس . وربما كان لك أن تعجب وتدهش اذا وجدت أن حياة انسان متوسطة الطول كفت لفهم مايلزم للعمل هنا بنجاح . وقد تمر على الواحد منا ساعات ، من نـوع

الساعات التى تمر على كل انسان، يعتقـد فيها أنه لم يبلغ أقل شيء ، ويتصور فيها أن القضـــايا التى انتهت الى نهاية طيبة هى القضايا التى كانت نهاية طيبة مقـدرة لهـا من البداية ، وأن تلك النهاية أتت دون أن يكون للمساعدة فضل فيها ، وأن القضايا الأخرى كلها قد خسرت برغم كل المحاولات وضروب التحايل والجهدوبرغم ما كان يبدو له فيها منبئا بشيء من الكسب والنجاح ، فرح به . ثم لا يجد الانسان ما يلوح له مؤكدا ، ولا يستطيع ، ردا على بعض الأسئلة ، أن ينكر أن معاونة المحامى هى بعينها التى انحرفت الى الخسارة بقضايا كانت تبدو فى جوهرها رابحة . وهذا أمر يمس الثقة فى النفس ، ولكن الثقة فى النفس هى الشيء الوحيد الذى بقى للمرء .

هذه الأزمات ـ وما هذه الأمور فى حقيقتها بطبيعة الحال الا أزمات ـ يتعرض لها المحامون ، عندما تؤخذ من أيديهم فجـــأة قضية كانوا قد تقدموا فيها الى بعيد وعلى نحو مرض . والقضية لا يأخذها منهم المتهم ، كما قد يظن البعض ، فالمتهم الذى اختار أحد المحامين عليه أن يبقى معه ، مهما جرى . وكيف يمكنه، وقد التمس العون ، أن يقف بمفرده ؟ هذا شيء اذن لا يحدث ، ولكن الذى يحدث أحيانا هو أن القضية تسير أحيانا فى اتجاه لا يكون للمحامى أن يستمر فيه . هنالك تنزع القضية والمتهم وكل شيء من المحامى .

وهنالك لا تفيد أحسن الصلات بالموظفين أدنى فائدة ، فالموظفون أنفسهم لا يعرفون شيئا . لقد وصلت القضية الى مرحلة لا يكون فيها لأحد أن يقدم عونا ، حيث تعالجها محاكم لا يصل اليها أحد ولا يكون فى استطاعة المحامى الوصول الى المتهم . ويعود الواحد منا فى يوم من الأيام الى البيت فيجد على المنضدة كل المذكرات التى ألفها بجد ونشاط والتى وضع فيها الآمال أجمل الآمال ، أعيدت اليه لأنها لا يصح أن ترفع الى المرحلة الجديدة التى وصلت اليها القضية ،

اعيدت اليه لأنها أصبحت مجموعة من الأوراق التافهة. ولا يعنى هذا أن القضية تكون قد خسرت ، لا على الاطلاق ! أو على الأقل ليس هناك سبب حاسم للأخذ بهذا الاحتمال .. كل ما هنالك أن الانسان لم يعد يعرف شيئا عن القضية وأنه لن يعلم من أمرها شيئا .

ولكن هذه الحالات لحسن الحظ حالات استثنائية ، وحتى اذا حدث وكانت حالة ك من هذا النوع ، فانها ما زالت الآن بعيدة عن تلك المرحلة . ما زالت فى حالة ك فرصة كافية لنشاط المحامى وعلى ك أن يتأكد من أن هذه الفرصة ستنتهز . واذا كانت المذكرة ، كما ذكر من قبل ، لم تقدم بعد ، فلأن أمرها ليس عاجلا .. أهم منها الاتصالات التمهيدية بالموظفين ذوى الحل والربط ، وقد جرت هذه الاتصالات بالفعل . وقال المحامى انها كانت مختلفة فى النجاح الذى بلغته ، اذا كان ليحدثه بصراحة . والأفضل ألا يكشف له مؤقتا عن الكثير من التفصيلات لأنها قد تؤثر على ك تأثيرا فى غير الصالح فتجعله يمتلىء بالفرح المفرط أو بالخوف المفرط ، ويكفى أن يقول له ، ان بعض الموظفين عبروا عن ميلهم الشديد لصالحه ، بل وأبدوا استعدادا كبيرا لفعل شىء ، بينما كان آخـــرون أقل ميلا وان لم يرفضوا معاونته رفضا باتا . وهكذا تكون الحصيلة فى مجموعها مفرحة جدا ، ولكن لا ينبغى أن يستنتج الانسان منها استنتاجات معينة ، نظرا لأن الاتصـالات الأولى التمهيدية تثمر دائما حصيلة متشابهة فى البداية ، ولا تتضح قيمتها الحقيقية اطلاقا الا فى الخطوات التالية . وعلى أية حال فهو لم يخسر شيئا ، واذا حدث ان تمكن رغم كل ما حدث من اجتذاب مدير الديوان ـ وقد اتخذت اجراءات مختلفة لتحقيق هذا الهدف ـ فان القضية كلها تكون ـ كما يقول الجراحون ـ جرحا نظيفا ، ويحق للانسان أن ينتظر التطورات التالية قرير العين .

كان المحامى فى مثل هذه الأحاديث واشباهها لا يفرغ . كانت تلك الأحاديث تتكرر فى كل زيارة ، وتشير على الدوام الى ضروب

من التقدم . أما نوع هذا التقدم ، فذلك مالم يحطه به ك قط . كان العمل فى المذكرة الأولى دائما ، ولكنها لم تكن تنتهى ، وهو شىء كان يوصف فى الزيارة التالية بأنه من حسن الحظ ، فقد تبين ان المدة الماضية ـ وما كان أحد يستطيع التنبؤ بهذا ـ كانت مدة غير ملائمة مطلقا لتقديم المذكرة . فاذا ما قال ك ، وقد أنهكته أحاديث المحامى ، ان الموضوع، حتى مع أخذ كل الصعوبات فى الاعتبار ، يتقدم ببطء شديد ، رد المحامى عليه بأنه لا يتقدم ببطء ، وبأنه كان سيتقدم أسرع بكثير ، لو أن ك لجأ اليه فى الوقت المناسب ولكن ك ضيع هذه الفرصة ، وهذا شىء له نتائجه الوخيمة ، التى لاتقتصر على البطء فحسب .

وكانت لينى هى الشىء اللطيف الوحيد الذى يقطع هذه الزيارات ، فقد رتبت أمرها على أن تحمل الشاى الى المحامى عندما يكون ك عنده . وكانت تقدم الشاى ثم تقف خلف ك وتتظاهر بأنها تنظر الى المحامى وهو يميل على الفنجان بنهم ويصب الشاى ويشرب ، ثم تمد يدها الى ك ليمسكها . فيخيم سكون تام على المكان . كان المحامى يشرب . وكان ك يضغط يد لينى بل ويتجاسر أحيانا على مداعبة شعرها برقة . وكان المحامى عندما يفرغ من الشرب يسأل : أما تزالين هنا ؟

وكانت لينى تقول : أردت أن أحمل الآنية الفارغة معى ، ويتبادل الاثنان ضغط اليد مرة أخيرة ، ويمسح المحامى فمه ثم يعود من جديد الى صب الكلام على ك .

هل كان المحامى يهدف الى السلوان أم الى اليأس ؟ لم يكن ك يعلم هذا ، ولكنه كان متأكدا من أن الدفاع عنه لم يكن فى أيد صالحة . ربما كان ما كان المحامى يحكيه صحيحا كله ، وان كان واضحا من كلامه أنه يريد أن يرفع من قدر نفسه ما استطاع وان

كان من المحتمل انه لم يوءت قط قضية كبيرة كهذه ، وهكذا كانت قضية ك في تصوره • كذلك كان أمر علاقات الشخصية بالموظفين تلك العلاقات التى كان يبذل الجهد الدائم فى ابرازها ابرازا ، أمرا مشكوكا فيه . هل كان المفروض أن تستغل هذه العلاقات لصالح ك وحده ؟ لم يكن المحامى ينسى قط أن يشير الى أن هؤلاء الموظفين من أدنى الدرجات ، أى انهم من الموظفين المرءوسين شديدى التبعية، ويبدو أن اتخاذ القضايا أشكالا معينة له تأثير هام على تقدمهم فى سلك الوظائف • فهل كانوا يستخدمون يا ترى المحامين لتحقيق هذه الأشكال المعينة التى هى بطبيعة الحال فى غير صالح المتهم ؟ ربما لم يكونوا يفعلون هذا فى كل قضية ، بل ان هذا من المؤكد ، وليس من المحتمل فحسب ، ولكن لابد انه كانت هناك قضايا يفسحون فيها مكانا لصالح المحامى جزاء له على خدماته ، لأنهم لا بد كانوا يهتمون أيضا بالابقاء على سمعة المحامى دون اصابتها بالخسارة والأذى .

فاذا كان الأمر فعلا كذلك ، فعلى أى نحو سيتصرفون اذن فى قضية ك ، تلك القضية التى قال المحامى عنها ، انها قضية بالغة الصعوبة ، أى بالغة الأهمية ، أثارت منذ البداية اهتماما كبيرا لدى المحكمة ؟ لم يكن ما سيفعلونه بالشىء الذى يحتمل الشك الشديد • كانت هناك دلائل على موقفهم يمكن للانسان أن يراها فى أن المحامى لم يقدم المذكرة الأولى بعد ، على الرغم من أن القضية كانت قائمة منذ شهور ، وأن القضية على حسب ما قاله المحامى كانت لا تزال فى البداية ، وهو شىء كان من شأنه بطبيعة الحال أن يسلم المتهم الى النوم والحيرة ليفاجئه مرة واحدة بالحكم أو على الأقل بأن التحقيق الذى تم لغير صالحه قد رفع الى السلطات العليا .

لم يكن هناك مفر من أن يتدخل ك بنفسه • وكان هذا الرأى ـ وبالذات عندما يعتريه تعب شديد من نوع ذلك التعب الذى اعتراه فى صبيحة ذلك اليوم من أيام الشتاء ، حيث تحركت الأمور كلها

بلا ارادة منه خلال رأسه ـ رأيا لاسبيل الى رده أو تنحيته . كذلك لم يعد يساوره الاحتقار الذى كان يساوره من قبل ازاء القضية . فلو انه كان وحيدا في الدنيا ، لسهل عليه احتقار القضية ، وان كان من المؤكد أن القضية فى هذه الحالة ، ماكانت ستنشأ على الاطلاق. أما الآن فقد أخذه العم الى المحامى ، وأصبحت مراعاة العائلة من الأمور التى لها دورها . كذلك لم يعد مركزه مستقلا استقلالا تاما عن مجرى القضية ، فقد أشار هو نفسه الى قضيته أمام بعض معارفه بشي من الرضا المبهم وبدون ما حيطة ، وكان هناك آخرون علموا بها بطريقة غير معروفة ، وكانت العلاقة بالآنسة بورستنر تبدو كأنها تتأرجح طبقا للقضية . وهكذا لم يعد له خيار تقريبا فى قبول القضية أو رفضها ، لأنه كان يقف فى وسطها وكان عليه أن يدافع عن نفسه . فاذا ألم به تعب ، ساء الأمر سوءا شديدا .

على أنه لم يكن هناك حتى الآن سبب يدعو لقلق مفرط . كان ك قد عرف كيف يجتهد فى العمل بالبنك ويصل فى فترة قصيرة نسبيا الى مركزه الرفيع ، وأن ينال تقدير الجميع ويبقى فى هذا المركز راسخ القدم ، وماعليه الآن الا أن يحول هذه الكفاءات التى مكنته من هذا التقدم الى قضيته قليلا وما من شك فى أن القضية ستنتهى الى نهاية طيبة . كان ينبغى بادىء ذى بدء للوصول الى شيء طرح كل تفكير فى أى ذنب ممكن أو محتمل طرحا كاملا . لم يكن هناك ذنب . لم تكن القضية سوى صفقة عظيمة كالصفقات التى سبق له أن عقدها للبنك بنجاح ، صفقة تتربص بها كالعادة أخطار مختلفة ينبغى التغلب عليها . والوصول الى هذا الهدف يتطلب عدم التفكير فى أى ذنب ، بل ويتطلب تركيز الفكر على الفائدة الشخصية ما أمكن . ولم يكن هناك مفر ، حسب وجهة النظر هذه ، من سحب توكيل المحامى فى أقرب وقت ، والأفضل سحبه فى هذا المساء .

كان مثل هذا التصرف كما ذكر المحامى فى حكاياته ، شيئا لم يسمع به ، ربما شيئا مهينا، ولكن ك لم يكن يستطيع ان يتوقع أن تقف فى طريق جهودة من أجل قضيته عراقيل ربما تسبب فيها المحامى . وعندما يتم له تنحية المحامى عن القضية ، فعلية أن يقدم المذكرة فى الحال وأن يلح كل يوم ان أمكن فى أن تؤخذ فى الاعتبار . ولن يكفى لبلوغ هذا الهدف بطبيعة الحال أن يجلس ك مثل الآخرين فى الممر وأن يضع قبعته تحت المقعد . بل انه هو أو النساء أو السعاة .. سيلحون اليوم بعد اليوم على الموظفين ويضطرونهم بدلا من التطلع من خلال السور الخشبى الى الممر ، الى الجلوس الى مكاتبهم ودراسة مذكرته . هذه جهود لاينبغى التهاون فيها ، بل ينبغى تنظيمها وملاحظتها ، ينبغى أن تصادف المحكمة متهما يعرف كيف يحافظ على حقه .

واذا كان ك يعتقد بأن فى امكانه أن يقوم بهذا كلة ، فان صعوبة تأليف المذكرة بدت له هائلة . كان من قبل ، منذ أسبوع تقريبا . لا يفكر فى هذه المذكرة الا وهو يحس بالخجل من أن يضطر الى تأليف مثل هذه المذكرة بنفسه . أما أن تأليفها أمر صعب ، فهذا شيء لم يفكر فيه على الاطلاق . وانه ليتذكر ذات صباح ، عندما كان العمل قد كثر عليه ، انه نحى كل شيء فجأة جانبا ، وتناول كراسة ليسجل على سبيل التجربة مسودة الأفكار اللازمة لمثل هذه المذكرة ربما ليقدمها الى المحامى الكسول ، فاذا بباب حجرة المدير ينفتح فى تلك اللحظة ويدخل عليه منه نائب المدير وهو يطلق ضحكة صاخبة كان هذا الضحك شيئا آلم ك ، على الرغم من أن نائب المدير لم يضحك بطبيعة الحال من مذكرة ك ، بل من نكتة من نكات البورصة سمعها ، وكان فهمها يحتاج الى رسم ، فانحنى فوق مكتب ك ، وأخذ من يده القلم ، ورسم ما شاء على الكراسة التى كان ك قد أعدها للمذكرة .

أما اليوم فلم يعد ك يعرف شيئا عن الخجل ، فلم يكن هناك بد من كتابة المذكرة ، وكان يريد ، ان لم يجد لهـا فى المكتب وقتا ، أن يؤلفها فى البيت بالليل · فان لم تكفها الليالى ، فقد كان يصمم على أن يأخذ اجازة لها . وما ينبغى أن يقف المرء فى منتصف الطريق ، فهذا هو الحمق بعينه ، لا فى الأعمال التجارية فحسب ، بل فى كل الأمور · حقيقة أن المذكرة كانت تعنى عملا لا نهاية له تقريبا · ولكن ما كان ينبغى أن يكون شديد الخوف والتردد ، وينتهى الى الاعتقاد بان تأليفها من المحال · وليس ذلك بسبب الكسل والخبث ، وهما الشيئان اللذان كانا يعوقان المحامى عن تأليفها ، بل لأن عدم معرفة التهمة وما يمكن أن تتسع اليه من أمور ، يتطلب استرجاع الحياة كلها بأدق أحداثها ووقائعها الى الذكراة ، وتصورها وفحصها من كافة النواحى · وان هذا العمل ليتصف علاوة على الصعوبة باثارة الأشجان · كان هذا العمل قد يصلح للانسان بعد أن يحـال الى المعاش ويصير الى شىء من الطفولة فيشغل فـكره ويساعده على تصفية الأيام الطوال ·

أما الآن ، فى هذا الوقت الذى كان ك كان فيه يحتاج الى أفكاره كلها لعمله ، والذى كانت كل ساعة فيه ، وهو فى طريق الصعود والترقى ومنافسة نائب المدير منافسة خطيرة ، تمضى بأقصى سرعة ، هذا الوقت الذى كان فيه يريد أن يتمتع بالأمسيات والليالى كشاب فى مقتبل العمر ، فى هذا الوقت أصبح عليه أن يشرع فى كتابة المذكرة . وعادت أفكاره من جديد تنتهى الى الشكوى . ومد أصبعه بطريقة توشك أن تكون لاارادية الى زر الجرس الكهربائى المتصل بالحجرة الأمامية · وبينما ضغط عليه ، رفع بصره الى الساعة · كانت تشير الى الحادية عشرة · لقد انقضت ساعتان ، انقضى وقت ثمين ، ضيعه فى الأحلام ، وأصبح بطبيعة الحال أكثر تعبا فى ذى قبل . ولكن الوقت على اية حال لم يضع هباء فقد اتخذ قرارات من الممكن أن تكون ذات قيمة · وأحضر الخدم علاوة على بريد مختلف بطاقتين

لرجلين كانا ينتظران ك منذ وقت . كان هذان الرجـلان عميـلين للبنك من ذوى الأهمية الكبيرة ، وما كان ينبغى بحال من الاحـوال تركهما ينتظران . لماذا اتيا فى هذا الوقت غير المناسب ؟ ولماذا ـ ولقد بدا أن العميلين وراء الباب المقفل يتساءلان هذا التسـاؤل ـ استخدم ك المجد المجتهد احسن أوقات العمل لأموره الشخصية ؟ ونهض ك واقفا ، وقد أخذه التعب مما جرى عليه ومما يتوقع انه سيجرى له ، وتهيأ لاستقبال الأول .

كان هذا العميل رجلا قصيرا نشيطا ، من رجال الصناعة ، وكان ك يعرفه معرفة جيدة . واعتذر الرجل لأنه عطل ك عن عمله الهام ، وكذلك اعتذر ك لأنه تركه ينتظر مدة طويلة الى هذا الحد . الا أن ك نطق بهذا الاعتذار فى لهجة آلية ، وبنبرة توشك أن تكون خاطئة، حتى أن رجل الصناعة كاد أن يلحظ ذلك ، لو لم يكن منهمكا كل الانهماك فى موضوع العمل الذى ساقه الى هنا . وبدلا من أن يتبين رجل الصناعة هذا ، أخرج مسرعا من جيوبه كلها الحسابات والجداول ونشرها أمام ك ، وشرح بعض الأرقام وصوب خطأ حسابيا بسيطا لفت نظره وهو يتصفح الأوراق ، وذكر ك بعملية من هذا النوع ، كان قد اتفق معه عليها منذ عام ، وأشار فى معرض كلامه الى أن مصرفا آخر قدم عرضا خاصا بهذه العملية فيه تضحية كبيرة منه ، ثم سكت فى النهاية ليعلم رأى ك . والحق أن ك كان فى مبدأ الامر يتابع كلام رجل الصناعة ، وأن التفكير فى الصفقة الهامة ملك عليه نفسه ، ولكن هذا لم يدم للأسف طويلا ، فقد شط ك بعد قليل من عن الانصات ، وراح يومىء برأسة أمام صيحات رجل الصناعة التى استمرت فى الارتفاع ، ثم انتهى بعد ذلك الى الانصراف عن الايماء بالرأس والاكتفاء بالنظر الى الرأس الأصلع المكب على الأوراق ، وبالتساؤل متى يتبين رجل الصناعة يا ترى أن كلامه كله لا فائدة فيه . فلما صمت رجل الصناعة ظن ك فى أول الامر فعلا أن الرجل

انما فعل هذا ، ليتيح له فرصة للاعتراف بأنه ليس فى حال تمكنه من الانصات . ولكن ك تبين للأسف من نظرة رجل الصناعة المتحفزة ومن تلهف الرجل الواضح على أية ردود ، أن المناقشة التجارية لا بد أن تستأنف .

وهكذا مال برأسه وكأنه أمام أمر صدر اليه ،وشرع يروح بالقلم ويجيء فوق الأوراق ، ويقف هنا وهناك ويحملق فى بعض الأرقام. وتوقع رجل الصناعة أن تكون هناك اعتراضات ، ربما لم تكن الأرقام سليمة ، أو ربما لم تكن هى الفيصل فى الموضوع ، على أية حال غطى رجل الصناعة بيده الأوراق وشرع من جديد يقترب من ك ويعرض الخطوط العامة للصفقة .

وقال ك : ذلك عمل صعب .

وأطبق شفتيه ، وهوى الى المسند الجانبى فاقد الاتزان ، لأن الأوراق ، وهى الشيء الملموس الوحيد ، كانت مغطاة . بل انه رفع بصره ضعيفا الى أعلى ، عندما انفتح باب حجرة المدير ، ولاح من خلفه ، فى غير وضوح وكأنما كان وراء غلالة من نسيج رقيق ، نائب المدير . ولم يستمر ك فى التفكير فى هذا الذى لاح له ، بل أخذ يتابع التأثير المباشر لحركة أتته بالفرح الشديد .. فقد قفز رجل الصناعة من الكرسى الوثير وأسرع لملاقاة نائب المدير . وكم ود ك لو أوتى الرجل عشرة أضعاف سرعته ، لأنه كان يخشى أن يتوارى نائب المدير مرة أخرى . ولكن خوف ك كان بلا طائل ، فقد تقابل الرجلان ، وتصافحا وذهبا معا الى مكتب ك . وشكى رجل الصناعة من أن الوكيل ك أظهر ميلا قليلا للعملية ، وأشار بيده الى ك الذى كان تحت تأثير نظرة نائب المدير ، قد مال مرة أخرى فوق الأوراق . فلما استند الرجلان الى المكتب ، وشرع رجل الصناعة يجتذب نائب المدير الى جانبه ، أحس ك كأن رجلين ذى ضخامة بالغ فيها ، يتفاوضان فوق رأسه ، فى أمره هو . وحاول مستعملا عينيه

اللتين رفعهما بحرص الى أعلى ، أن يعرف ما يجرى فوقه ، وتناول من المكتب دون أن ينظر ، ورقة من الأوراق ، فوضعها على يده مبسوطة ، ورفعها بالتدريج الى حيث السيدين ثم نهض هو أيضا . لم يفكر ك وهو يفعل هذا فى شيء محدد ، بل تصرف وهو يحس أن عليه أن يتصرف هكذا ، عندما يفرغ من المذكرة الكبيرة التى ستبرئه تماما . ولم ينظر نائب المدير الـــذي كان منهمكا بكل انتباهه في الحديث الى الورقة الا عابرا ، ولم يقرأ فيها ، لأن ما يهم الوكيل لا يهمه . ثم أخذ الورقة من يد ك وقال :

ـ شكرا ، لقد عرفت الموضوع كله .

وأعاد الورقة إلى المكتب . ونظر اليه ك من جانب وقد أخـذه شعور بالمرارة .

ولكن نائب المدير لم يتبين هذه المرارة اطلاقا ، ولو قد تبينها ، لزاد نشاطا وهمة . وضحك النائب كثيرا بصوت عال ، بل وأحرج رجل الصناعة مرة برد فيه سرعة البديهة ، ثم عاد فأخرجه من الحرج حالا ، بأن وجه الى نفسه اعتراضا ،ثم دعاه الى الدخول الى مكتبه لينهيا المســألة .

وقال لرجل الصناعة : هذا موضوع هام جدا ! هذا رأيي أيضا والسيد الوكيل ـ حتى وهو يقول هذا كان يتكلم مع رجل الصناعة وحده ـ سيسره أن نرفع عن كاهلة هذه المسألة . فهى فى حاجة الى تفكير هادىء . وهو يلوح اليوم مثقلا بالعمل جدا ، وهناك فى الحجرة الامامية أناس كثيرون ينتظرون منذ ساعات أن يقابلهم .

كان لدى ك من تمالك النفس ما يكفي للانصراف عن نائب المدير وتحويل ابتسامته التى فيها الود وفيها رغم ذلك الجمود ، الى رجل الصناعة وحده . ولم يتدخل ك بغير ذلك ، وسند نفسه مائلا قليلا الى أمام ، الى المكتب ، معتمـــدا على يديه كلاهما كمسندين وراء قمطره ،ونظر كيف أخذ الرجلان بقية الأوراق وهما يستمران في الكلام ثم كيف توارديا فى حجرة المدير . والتفت رجل الصناعة مرة

أخرى عندما بلغ الباب ، وقال انه لا يودع ك الآن بل سيعود اليه ويبلغه بنجاح المحادثات ، ويحمل اليه خبرا صغيرا .

وأخيرا كان ك بمفرده . لم يفكر مطلقا فى السماح لكائن من كان من أصحاب المسائل بالدخول عليه ، وتمثل فى شعور بغير وضوح، كم يريحه أن يعتقد الناس فى الخارج ، انه لا يزال منهمكا فى مفاوضة رجل الصناعة وانه لهذا السبب لا يستطيع انسان حتى ولا الخادم أن يدخل عليه . وذهب ك الى النافذه وجلس على حافتها ، واستند بيد على المقبض وتطلع الى الميدان فى الخارج . كان الثلج لا يزال يتساقط ، ولم يكن الغيام قد أنقشع بعد .

وظل جالسا هكذا مدة طويلة ، دون أن يعلم بالضبط السبب فى همومه ، وان ظل من حين لآخر ينظر بشىء من الرعب من فوق كتفه الى باب الحجرة الأمامية ، حيث اعتقد خطأ انه يسمع فيها صوتا . ولما لم يأت أحد ، ازداد هدوءا، وذهب الى الحوض، وغسل يديه ووجهه بالماء البارد ، وعاد بمخ أكثر انطلاقا الى مكانه عند النافذة . ولاح له قراره بأن يقوم هو بنفسه بالدفاع عن نفسه ، أمرا اكثر صعوبة مما كان يتصور أصلا . فطالما كان الدفاع مزاحا عنه ، ملقى على المحامى ، كان يحس بأن القضية لا تمسه الا قليلا . . كان ينظر اليها من بعيد ولم يكن من الممكن أن تصيبه مباشرة تقريبا، وكان فى استطاعته أن يكشف متى شاء عن الدرجة التى وصلتها ، ولكنه كان كذلك يستطيع أن يبتعد برأسه عن الموضوع كلما شاء.

أما الآن ، فاذا كان سينهض شخصيا بالدفاع عن نفسه فسيكون عليه ــ على الأقل فى هذه اللحظة ــ أن يعرض نفسه للمحكمة تماما، والنجاح الذى ينتظر من وراء هذا ، هو حصوله فيما بعد على حريته كاملة نهائية . . أى أن الوصول الى هذا الهدف يتطلب منه أن يعرض نفسه ، مؤقتا على أية حال ، لخطر أعظم بكثير من الخطر الحالى . فاذا ما أراد أن يشك فى ذلك الخطر ، فلقاء اليوم مع نائب المدير ومع رجل الصناعة يقنعه بما فيه الكفاية بالعكس . لقد

جلس مأخوذاً مذهولا نتيجة لمجرد التصميم على أن يدافع عن نفسه. والام تصير حاله فيما بعد ؟ يا للأيام التي تنتظره ! هل سيجد الطريق التي تقوده خلال كل هذا الى النهاية الطيبة ؟ وألم يكن الدفاع الجيد - وكل ما عداه سخف - ألم يكن الدفاع الجيد يعني في الوقت نفسه ضرورة الانفصال عن كل شيء ما أمكن ذلك ؟ هل سيتجاوز هذه المرحلة بالتوفيق ؟ وكيف يتمكن من تنفيذ الخطة في البنك بنجاح ؟ فما الأمر أمر المذكرة التي قد تحتاج في تأليفها الى اجازة فحسب - وان كان التماس اجازة في هذا الوقت بالذات يعتبر جرأة عظيمة - انما هو أمر القضية كلها ، التي ستستمر مدة لا قبل لأحد بالتنبؤ بها . يالهذا العائق الذي ارتمى فجأة في طريق ك .

والآن ينبغي عليه أن يعمل البنك ؟ ونظر ك الى المنضدة . - الآن ينبغي عليه أن يقابل أصحاب المصالح وأن يتفاوض معهم ؟ في الوقت الذي تجري فيه قضيته ، في الوقت الذي يجلس فيه موظفو ديوان المحكمة في أعلى المبنى على السطح عاكفين على أوراق هذه القضية ، في هذا الوقت يكون عليه أن يدبر أمور البنك ويسير أعماله ؟ ألا يبدو هذا تعذيبا تقصده المحكمة ، تعذيبا متصلا بالقضية ، مرافقا لها ؟ وهل سيأخذ البنك في اعتباره وضعه الخاص وهو يحكم على أعماله ؟ هذا ما لن يفعله أحد في أي وقت من الأوقات . لم تكن قضيته مجهولة تماما وان لم تكن قد وضحت وضوحا تاما ، فمن كان يعلم بها والى أي حد ؟ عسى ألا تكون الأشاعة قد وصلت الى نائب المدير ، وهي لو كانت قد وصلت اليه ، لكان قد استغلها ضد ك دون ما مراعاة لزمالة أو انسانية ، ولكان ذلك قد ظهر بوضوح . والمدير ؟ لا شك انه كان يحسن الظن بـ ك ، وهو لو قد علم بالقضية ، على قدرما تهمه وتمسه ، لقرر أن يقدم الى ك التسهيلات ، ولكن ما كان بلا شك سيلح في تقديم التسهيلات ، لأنه سيصبح الآن ، وقد بدأت كفة ك تخف ، خاضعا لتأثير نائب المدير ، الذي كان من ناحية أخرى يستغل وهن المدير لتدعيم

قوته هو . ماذا يأمل ك الآن ؟ لعله كان بمثل هـذه الأفكار يضعف قدرته على المقاومة ، ولكنه كان من الضرورى كذلك ألا يستسلم للوهم ، وأن يرى كل شيء بأكبر قدر ممكن حاليا من الوضوح.

وفتح ك النافذة بدون سبب معين ، الا أن يكون هذا السبب هو ألا يضطر مؤقتا الى العودة الى المنضدة . وكان فتح النافذة صعبا ، واضطر ك أن يدير المقبض بكلتا يديه . فاندفع من الشباك بطوله وعرضة ضباب ممتزج بالدخان فملأ الحجرة برائحة حريق خفيفة . كذلك تطاير الى داخل الحجرة شيء من الثلج المتساقط . « خريف قبيح ! ».

كانت تلك عبارة قالها خلف ك رجل الصناعة الذى عاد من عند نائب المدير الى حجرة ك دون أن يلحظه هذا . وأومأ ك براسه وتطلع قلقا الى حقيبة رجل الصناعة التى سيستخرج منها الآن غالبا بعض الأوراق ليبلغ ك بنتيجة المفاوضات التى أجراها مع نائب المدير .

ولكن رجل الصناعة تابع نظرة ك ، وخبط على حقيبته وقال بدون أن يفتحها : انك تريد أن تسمع خبر النتيجة التى وصلنا اليها . . اننى اوشك أن احمل فى الحقيبة الاتفاق على الصفقة . ياله من رجل رائع نائب المدير عندكم ! ولكنه مع ذلك ليس مجردا من الخطورة تماما !

وضحك وصافح ك وحاول أن يضحك هو كذلك . ولكن ك ارتاب فى أمر رجل الصناعة الذى لم يرد أن يعرض عليه الأوراق .. ولم يجد ك فى ملاحظته شيئا يضحك .

وقال رجل الصناعة : يا حضرة الوكيل ، يبدو أنك تعانى من الجو ؟ انك تبدو مغموما .

وقال ك : نعم .. ومد يده الى فوده واكمل : .. صداع .. ومشاكل عائلية .

وقال رجل الصناعة وكان رجلا متعجلا لا يستطيع أن ينصت هادئا لكائن من كان : هذا صحيح تماما ، وكل انسان له همومه التي يحملها ٠

وكان ك قد خطا بغير ارادة خطوة ناحية الباب وكأنما أراد أن يصحب رجل الصناعة الى الخارج ، ولكن رجل الصناعة قال :

ـ انني أحمل اليك ياحضرة الوكيل خبرا صغيرا ٠ وأنا أخشى جدا ان أثقل به عليك في هذا اليوم بالذات ، ولكنى فى الفترة الأخيرة حضرت اليك مرتين وكنت فى كل مرة انساه . واخشى ان أنا أجلته مرة أخرى ، ان يفقد الغرض منه تماما . وهذا ما يؤسف له ان حدث ، لأن الخبر الذى عندى ربما كان على ما أعتقد غير مجرد من القيمة . وقبل ان يتاح لـ ك وقت لاجابة ، اقبل رجل الصناعة قريبا منه ، وخبط بعقلة اصبعه على صدره وقال :

ـ لديك قضية ، أليس كذلك ؟

وتراجع ك الى الوراء وصاح فى الحال : لقد قال لك هذا نائب المدير !

فقال رجل الصناعة : لا ، ومن أين لنائب المدير علم بهذه القضية ؟

وسأل ك وقد تمالك نفسه على نحو أكبر : وأنت ؟

وقال رجل الصناعة : أنا أعرف من حين لآخر الأخبار من المحكمة وهذا هو الشيء الذى اردت أن انقله اليك .

وقال ك مطاطىء الرأس : كل هؤلاء لهم صلة بالمحكمة ! وقاد رجل الصناعة الى المنضدة ٠ وعادا الى الجلوس كما كانا يجلسان من قبل . وقال رجل الصناعة :

ـ نـس مااستطيع ابلاغك به للأسف كثيرا ، ولكن ماينبغى على الانسان في مثل هذه الاحوال أن يهمل أبسط الأمور ٠ وأنا من

ناحية أخرى متحمس لمساعدتك على نحو ما ، وان كانت مساعدتى متواضعة جدا • لقد كنا حتى الآن ، صديقين فى التجارة ، أليس كذلك ؟ اذن . .

واراد ك أن يعتذر عن مسلكه أثناء محادثات اليوم ، ولكن رجل الصناعة لم يقبل المقاطعة ، ورفع حقيبته عاليا الى ابطه ليبين لـ ك أنه على عجل ، وأردف يقول :

ــ لقد علمت بخبر قضيتك من شخص اسمه تيتوريللى . وهو مصور ، وتيتوريللى هو اسمه الفنى ، أما اسمه الحقيقى فلا أعرفه مطلقا ، وهو يأتى من حين لآخر منــذ سنين الى مكتبى ، ويحضر الى صورا صغيرة أعطيه فى مقابلها ــ وهو يوشك أن يكون متسولا ــ ما يشبه الصدقة . وهذه الصور ، على أية حال ، صور جميلة ، تمثل مروج الخلنج وما الى ذلك . وكانت عمليات البيع هــذه ــ وكنا كلانا قد تعودنا عليها ــ تتم بكل سهولة ، ولكن زياراته تكررت ذات مرة كثيرا ، حتى اننى وجهت اليه اللوم ، ودخلنا فى حديث معا ، وأردت أن أعرف كيف يعيش من تصوير اللوحات ، اللوحات فقط ، فعلمت لدهشتى ، أن المصدر الرئيسى لكسبه هو رســم الأشخاص . وقال لى انه يعمل للمحكمة .

فسألته : لأى محكمة ؟ •

فراح يحكي لى عن المحكمة • ويمكنك أن تتصور على أحسن وجه كم كانت دهشتى من حكاياته . ومنذ ذلك الحين أسمع منه فى كل زيارة خبرا من الأخبار الجديدة ، وأكون بهذا تدريجيا صورة عن الموضوع . على أن تيتوريللى ثرثار ، وأنا دائما أصــده ، لا لأنه يكذب فحسب ، ولــكن لأن رجل أعمـــال مثلى ، يكاد يهلك من وطأة الهموم ومشاغل العمل ، لا يستطيع أن يهتم كثيرا بأمور غريبة عليه . ولكن هذا شيء ثانوي . ربما ــ وهذا شيء فكرت فيه الآن ــ

ربما كان فى استطاعة تيتوريللى أن يساعدك قليلا ، فهو يعرف قضاة كثيرين . وحتى اذا لم يكن له نفوذ كبير شخصيا، فانه يستطيع أن يقدم اليك نصائح تفيدك فى الوصول الى رجال من أصحاب النفوذ . وحتى اذا كانت هذه النصائح فى حد ذاتها غير حاسمة فانا أعتقد أنها عندما تكون فى حوزتك ستتخذ أهمية كبيرة . وانت، بحكم مؤهلاتك وعملك ، كالمحامى . وأنا أقول دائما : الوكيل ك يوشك أن يكون محاميا ! آه ، أنا لا أحمل هما لقضيتك ! هل تريد مع ذلك أن تذهب الى تيتوريللى ؟ لاشك انه بتوصية منى سيفعل كل ما فى استطاعته . وأنا أرى فعلا انه ينبغى عليك أن تذهب اليه . ولا ينبغى أن يكون هذا اليوم بطبيعة الحال ، ولكن اذهب اليه ذات مرة فى فرصة ما . على انك لست ملزما بحال من الأحوال ـ وهذا شيء أريد أن أؤكده ـ نتيجة للنصيحة التى قدمتها اليك ، بالذهاب الى تيتوريللى فعلا . لا ، اذا كنت تعتقد أنك فى غـــير حاجة الى تيتوريللى ، فلا شك انه من الأفضل ان تصرف النظر عنه تماما . وربما تكون قد وضـــعت خطة دقيقة ، قد يصـــيبها تيتوريللى بالاضطراب . لا ، فى هذه الحالة لاتذهب اليه طبعا اطلاقا . والتماس النصائح من مثل هذا الشخص ، يتطلب بلا شك أن يضغط الانسان على نفسه . كما تريد ! اليك هذه التوصية وهذا هو العنوان !

وتناول ك الخطاب خائب الأمل ودسه فى جيبه . كانت الفائدة على أحسن الفروض ، الفائدة التى يمكن أن تأتى بها هذه التوصية أقل بكثير من الضرر الذى يكمن فى أن رجل الصناعة يعلم خبر قضيته وان المصور يشيع الخبر . ولم يستطع ك الا بكل شقة أن يكره نفسه على أن يوجه لرجل الأعمال الذى كان فى منتصـــف الطريق الى الباب ، كلمات شكر . ثم قال وهو يودع رجل الأعمال بالباب : سأذهب اليـــه ، أو سأكتب اليـــه ، لأننى الآن مشغول جدا ، وأرجوه أن يأتى الى مرة فى مكتبى .

وقال رجل الأعمال : لقد كنت أعلم انك ستجد السبيل الصحيح ولكنى اعتقد انه من الأصوب ان تتجنب دعوة أناس مثل تيتوريللى الى البنك والتحدث اليهم فى أمر القضية هنا . كذلك ليس من الصالح دائما أن يضع الانسان خطابات فى يد أناس من هذا النوع ولكنك بلا شك قد محصت الأمر وعلمت ما ينبغى عليك فعله .

وأومأ ك برأسه وصحب رجل الأعمال حتى اجتاز الحجرة الامامية . كان ك بالرغم من الهدوء الظاهرى ، فزعا أشد الفزع . أما انه قد يكتب الى تيتوريللى فذلك شىء قاله فقط ليبين لرجل الصناعة أنه يقدر التوصية وانه يفكر فى امكانيات الالتقاء بتيتوريللى حالا ، على انه لو كان قد رأى فائدة فى معونة تيتوريللى ، لما تأخر عن الكتابة اليه فعلا . فما باله لم يتبين الأخطار التى يمكن ان تنجم عن هذا ، الا بعد أن نبهه رجل الصناعة اليها ! فهل أصبح لا يستطيع أن يعتمد على فهمه شخصيا الا بهذا القدر القليل ، واذا كان من الممكن ان يدعو رجلا مشبوها بخطاب واضح الى البنك ، ليلتمس منه ــ ولا يفصله عن نائب المدير الا باب ــ نصائح خاصة بقضيته ؛ اليس من الممكن ، بل من المحتمل انه قد عمى عن بعض الأخطار او اندفع اليها اندفاعا ؟ فلم يكن هناك دائما رجل يقف بجوار ليحذره . هذه الشكوك فى يقظته الذاتية ، هذه الشكوك التىكانت حتى الآن غريبة عليه ، تساوره فى هذا الوقت الذى أصبح عليه أن يستجمع فيه قواه ! هل ستنتقل المشاكل والصعوبات التى احسها فى عمله بالمكتب الى القضية كذلك ؟ لقد أصبح الآن غير قادر على فهم كيف أمكن ان يفكر فى الكتابة الى تيتوريللى ودعوته الى البنك .

وكان ك يهز رأسه عجبا من هذا ، عندما اقترب الخادم من جانبه ولفت نظره الى الرجال الثلاثة الجالسين على اريكة فى الحجرة الأمامية . كانوا ينتظرون منذ وقت طويل أن يسمح لهم

بالدخول. فلما كلم الخادم ك بشأنهم، نهضوا ، وأراد كل واحد منهم أن ينتهز فرصة مواتية ، ليسبق الآخرين الى مقابلة ك . ومادام من البنك لم يحفلوا بهم الى هذه الدرجة ، وتركوهم هنا فى قاعة الانتظار يضيعون وقتهم ، فقد صمموا هم أيضا على الا يحفلوا بمن فى البنك . وقال احدهم : يا حضرة الوكيل .

ولكن ك كان قد كلف الخادم بأن يأتيه بالمعطف الشتوى ، وبينما انهمك فى لبسه بمساعدة الخادم ، قال للثلاثة : أرجو المعذرة ، يا سادة ، فليس لدى الآن وقت لاستقبالكم . وأنا أرجوكم أشد الرجاء أن تسامحونى ، ولكن لدى مهمة عاجلة لابد أن أقضيها ، وينبغى أن انصرف الآن حالا . ولقد رأيتم بأنفسكم كيف تعطلت الآن مدة طويلة . هل تتكرمون بالعودة الى غدا او فى أى موعد آخر ؟ أو هل تفضلون مباحثتى فى موضوعاتكم تليفونيا ؟ أو لعلكم تفضلون عرض موضوعاتكم على بايجاز الآن ، وأنا أرسل اليكم الرد تحريريا مفصلا ؟ والافضل على آية حال هو أن تعودوا عما قريب .

ولكن هذه المقترحات التى اقترحها ك ، ادهشت الرجال الذين انتظروا اذن بلا فائدة ، دهشة شديدة حتى انهم نظروا بعضهم الى بعض كالخرس . وسأل ك : لقد اتفقنا اذن ؟

والتفت الى الخادم الذى احضر اليه الآن القبعة . وكان الناظر من خلال باب حجرة ك يرى أن الثلج قد اشتد انهماره فى الخارج. ولهذا رفع ك ياقة المعطف الى اعلى واقفل أزرارها عاليا تحت ذقنه.

فى هذه اللحظة خرج من الحجرة الجانبية نائب المدير ، ونظر وهو يبتسم الى ك فى معطفه الشتوى وهو يتباحث مع الرجال ، وسأل : هل ستنصرف الآن ، يا حضرة الوكيل ؟ .

فقال ك : نعم .

وأعتدل فى وقفته وأكمل : عندى مهمة سأقوم بها .

ولكن نائب المدير كان قد تحول الى الرجال وسأل ك : وما أمر هؤلاء السادة ؟. اعتقد انهم ينتظرون منذ وقت طويل .

وقال ك : لقد اتفقت معهم .

ولكن الرجال لم يقبلوا أن يوقفهم احد ، واحاطوا بـ ك وأعلنوا انهم ماكانوا ينتظرون الساعات الطوال لو لم تكن لديهم مسائل هامة جدا ينبغى أن تناقش الآن تفصيليا مناقشات خاصة . واستمع نائب المدير اليهم هنيهة ، وتأمل ك الذى كان يمسك القبعة وينظف بعض مواضع فيها من التراب ، ثم قال : يا حضرات السادة ، عندى حل بسيط جدا ، اذا شئتم الاكتفاء بى ، فأنا أرحب بأن أقوم بمباحثتكم بدلا من السيد الوكيل . أما أن مسائلكم لابد أن تناقش فى الحال فهذا أمر بديهى . ونحن رجال اعمال مثلكم ونعرف قيمة وقت رجال الأعمال . هل تتكرمون بالدخول هنا ؟ .

وفتح لهم الباب الموصل الى الحجرة الأمامية للمكتبه .

يا لمهارة نائب المدير فى الاستحواز لنفسه على كل شىء يكون على ك فى المحنة أن يتخلى عنه ! وهل كان ك لايتخلى الا عما لا مفر من التخلى عنه ؟ بينما كان ك يهرع الى مصور مجهول بآمال غير محددة وضئيلة ـ كما اعترف هو لنفسه ـ تعرض مركزه هنـا فى البنك لضرر لا سبيل الى معالجته . ربما كان الأفضل بكثير ان يخلع معطفه الشتوى ، ويسترد لنفسه على الأقل الرجلين الباقيين اللذين كان عليهما الانتظار حتى ينتهى الأول . ولعل ك كان سيفعل هذا لو لم ير نائب المدير فى حجرته يبحث فى دواليب السجلات وكأنما كان الدولاب ملكه . ولما اقترب ك من الباب وقد تملكه الانفعال صاح نائب المدير : آه ، أنت لم تنصرف بعد .

وحول اليه وجهه الذى لم تعد ثنياته الكثيرة الجامدة تعبر عن الشيخوخة ، بل بدت كأنها تثبت القوة ، ثم شرع يبحث فى السجلات من جديد . وقال : أنا ابحث عن صورة عقد ، يقول وكيل الشركة انها عندك . ألا تساعدنى فى البحث ؟ .

وتقدم ك خطوة ، ولكن نائب المدير قال : شكرا ، لقد وجدتها لتوى .

وعاد يحمل حزمة كبيرة من الأوراق ، وليس صورة العقد فحسب ، لاشك بها الكثير ، الى حجرته .

وقال ك فى نفسه : أنا الآن لا أقدر عليه ، ولكن عندما اتخلص من مشاكلى الشخصية ، فسيكون هو أول انسان يحس بقدرتى ؛ وسيحس بها على نحو مرير ما أمكن ذلك .

وهدأ ك قليلا نتيجة لهذه الفكرة ، وأعطى الخادم ، الذى كان منذ طويلة قد فتح الباب وأمسكه الا ينقفل ، أمرا بأن يبلغ المدير فى فرصة ما بأنه يقوم بمهمة من مهام العمل فى الخارج ، وترك البنك يوشك أن يكون سعيدا لأنه سيكرس نفسه تماما لقضيته مدة ما .

واتجه ك فى الحال الى المصور وكان يسكن فى ضاحية تقع فى الناحية المضادة تماما للناحية التى بها مكاتب ديوان المحكمة ، كانت تلك الضاحية منطقة أكثر فقرا ، وكانت البيوت بها أكثر كآبة ، والحارات ممتلئة بالقذارة التى كانت تنتشر هنا وهناك ببطء فوق الثلج الذائب . اما البيت الذى كان المصور يسكن فيه ، فكان مصراع واحد من بابه الكبير مفتوحا ، وكان المصراع الآخر به أسفل الجدار خرق ، انساب منه فى الوقت الذى اقترب فيه ك بالضبط ، سائل أصفر مقرف انبعث منه دخان وهربت منه بعض الفيران وتوارت فى القناة القريبة . وكان هناك

أسفل الدرج طفل صغير يرقد فوق الأرض على بطنه ويبكى ، ولكن صوته أوشك الا يكون مسموعا ، لأن صخب ورشة السمكرة فى الناحية الأخرى من المدخل كان يغطى على كل شيء. كان باب هذه الورشة مفتوحا ، وكان ثلاثة من مساعدى العمال يقفون فى نصف دائرة يخبطون على قطعة ما مما يصنعون بالشواكيش . وكانت هناك لوحة كبيرة من الصاج الأبيض معلقة على الحائط تلقى ضوءا خافتا ، نفذ بين اثنين من مساعدى العمال وأضاء وجهيهما ومريلتيهما . على أن ك لم يلق على كل الأشياء الا نظرة عابرة، لأنه كان يريد أن ينتهى من هنا بأسرع ما يستطيع . كان يريد ان يكتشف أمر المصور بقليل من الكلام ثم يعود الى البنك حالا ، فاذا لم يحقق هنا من النجاح الا أقله ، فينبغى أن يؤدى هذا الى تأثير طيب على عمله اليوم بالبنك . ولما بلغ ك الدور الثالث أبطأ ، فقد انقطعت أنفاسه ، لأن الدرج والأدوار كانت عالية علوا مفرطا ، وكان المصور ، حسب ما جاء فى العنوان يسكن فى غرفة بالسطح فى أعلى المبنى . كذلك كان الهواء مقبضا ، فلم يكن هناك بير للسلم ، وكان السلم الضيق مقفلا من الجانبين بجدران ، ليس بها الا هنا وهناك فى أعلاها تماما تقريبا نوافذ صغيرة . وفى اللحظة التى وقف ك فيها ، خرجت بعض البنات من مسكن ، وأسرعن ضاحكات يرتقين السلم . وتبعهن ك ببطء فبلغ احداهن وكانت قد تعثرت فتأخرت عن الأخريات ، وسألها وهو يطلع الدرج الى جانبها :

— هل يسكن هنا مصور اسمه تيتوريللى ؟ .

ولكزته البنت بكوعها ، وكانت دون الثالثة عشرة ، يشوه الحدب ظهرها قليلا ، ثم نظرت اليه من جانب . لم يحل صغر سنها ولا عاهتها بينها وبين الفساد كل الفساد ! وهى لم تبتسم، بل

نظرت الى ك نظرة حادة مستفزة وتظاهر ك بأنه لم يلحظ مسلكها وسألها : هل تعرفين المصور تيتوريللى ؟ .

فهزت رأسها وسألته : وماذا تريد منه ؟ .

وبدا لـ ك من المفيد ان يستعلم عن تيتوريللى قليلا وعلى عجل فقال : اريد أن يرسمنى .

وسألت وقد فغرت فاها الى حد مسرف : يرسمك أنت ؟ !

وضربت بيدها ك برفق وكأنما ارادت أن تعبر بذلك عن انه قال شيئا خارقا للعادة فى مباغتته وخرقه ، ثم رفعت بيديها فستانها الذى كان دون حاجة الى ذلك قصيرا ، وجرت قدر استطاعتها خلف البنات الأخريات اللاتى خفت صراخهن ثم تلاشى اعلا السلم . والتقى ك مرة ثانية بالبنات فى الانحناءة التالية للسلم . ويبدو أنهن قد علمن من الحدباء بنية ك ، وانتظرنه .. وقد وقفن على جانبى السلم وضغطن انفسهن الى الحائط ، حتى يمر ك بينهن بغير صعوبة ، ورحن يفردن مرايلهن بكفهن . كانت وجوههن ، حتى فى هذه الوقفة فى صفين والتى تشبه الوقفة لتحية الضيف ، تعبر عن مزيج من السذاجة والتعقيد . وكانت على رأس البنات ، اللائى انضممن الآن خلف ك ضاحكات تلك البنت الحدباء التى نهضت بقيادة الجماعة . كان ك بفضلها قد عرف الطريق الصحيحة الى قصده فى الحال ، فقد هم أن يستمر فى ارتقاء الدرج على امتداده المستقيم ، فأشارت اليه أن عليه أن يسلك فرعا من الدرج هو الذى يوصل الى تيتوريللى .

كان ذلك الدرج الموصل اليه ضيقا ضيقا شديدا ، طويلا طولا شديدا ، مستقيما لا ينعطف قط ، يمكن للانسان رؤية غايته ، وهى باب تيتوريللى الذى يسده مباشرة . كان ذلك الباب على عكس السلم كله مضاء نسبيا بنور يأتيه من شباك علوى

مراكب عليه بميل ، وكان يتكون من ألواح خشبية متجاورة غير مطلية وكان عليه اسم تيتوريللي مكتوبا بفرشاة عريضة بلون أحمر . وما كاد ك وحاشيته يبلغون منتصف الدرج ، حتى انفتح الباب فوقهم قليلا ، بسبب جلبة خطاهم الكثيرة على الأرجح ، وظهر رجل لا يرتدى سوى جلباب النوم ، فى فتحة الباب فلما رأى الجمع صاح : أوه !

واختفى . وصفقت الحدباء من شدة الفرح ، وتزاحمت البنات الأخريات وراء ك ، ليدفعنه بسرعة الى أمام .

وفتح المصور الباب على سعته بقوة قبل أن يصل ك ومن تبعنه الى أعلى الدرج ، ودعا ك الى الدخول وانحنى أمامه انحناءة شديدة . أما البنات فقد صدهن عن الدخول ولم يدع أى واحدة منهن تدخل على الرغم من الحاحهن ومن كثرة محاولتهن الدخول باذنه أو ضد رغبته . ولم تتمكن سوى الحدباء من التسلل الى الداخل من تحت ذراعه الممدود ، ولكن المصور جرى وراءها ، وأمسكها من ثيابها ، ولفها مرة حواليه ثم حطها عند الباب مع البنات الأخريات اللاتى لم يتجاسرن على محاولة تجاوز العتبة فى الوقت الذى تركها المصور فيه . ولم يعرف ك كيف يحكم على الأمر كله ، فقد بدا ما جرى كله كأنه جرى فى اتفاق ودى . ورفعت البنات القابعات بالباب رقابهن الواحدة بعد الأخرى أعلى الباب وصحن بالمصور كلمات مازحة مختلفة ، لم يفهمها ك ، وضحك المصور بينما أوشكت البنت الحدباء أن تطير فى يده . ثم أقفل الباب وانحنى مرة أخرى أمام ك ، ومد يده اليه .وقال وهو يقدم نفسه اليه :

ـ أنا الفنان المصور تيتوريللى .

وأشار ك الى الباب الذى كانت البنات يتهامسن خلفه وقال :

ـ يبدو انك محبوب جدا فى البيت .

وقال المصور : آه ! العيال الأشقياء !

وحاول بدون جدوى ان يزرر ازرار الجلباب عند رقبته .. كان المصور حافى القدمين يلبس علاوة على جلباب النوم القصير سراويل واسعة مصفرة اللون مصنوعة من التيل ، لها دكة طويلة تتدلى اطرافها وتتارجح هنا وهناك . واستأنف المصور الحديث قائلا :

ـ هذه البنات الشقيات حمل ثقيل على .

بينما انصرف عن الجلباب الذى انقطع آخر أزراره ، وأحضر كرسيا ذا مساند ورجا ك أن يجلس . ثم قال :

ـ لقد صورت ذات مرة واحدة من هذه البنات ـ وهى اليوم ليست بينهن ـ ومنذ ذلك الحين وهن يلاحقننى جميعا . عندما أكون هنا لا يدخلن الا باذنى ، أما عندما أنصرف ، فهن يدخلن ، أو تدخل على الأقل واحدة منهن الى هنا . وقد اصطنعن مفتاحا لبابى يتبادلنه بينهن . ليس هناك انسان يستطيع أن يتصور مدى ما فى هذا من الازعاج . يحدث مثلا أن آت الى البيت مع سيدة سأرسمها فأفتح الباب بمفتاحى وأجد تلك الحدباء هناك مثلا عند المنضدة تلون شفتيها بفرشاتى باللون الأحمر ، بينما تعبث اخواتها ، التى عليها ملاحظتهن ، فى أركان الحجرة ويوسخونها . أو قد يحدث ـ وهذا حدث أمس ـ أن أعود فى وقت متأخر الى البيت ـ أرجو اعتمادا على هذا أن تغفر لى حالتى والاضطراب الذى بالحجرة ـ قلت اننى أعود أحيانا فى وقت متأخر ، وأهم بالصعود الى السرير فاذا بشىء يقرصنى فى ساقى ، وانظر تحت السرير وأجد هذه الزمرة وأخرجها . ولست اعرف السبب الذى من اجله يتزاحمن على ، ولقد رأيت بنفسك أننى لا أفعل ما قد يجتذبهن . وهذا الذى يفعلنه بى يعطلنى عن عملى بطبيعة الحال . ولو لم يكن هذا المرسم قد وضع تحت تصرفي مجانا ، لكنت قد رحلت منذ زمن .

وهنا صاح صوت رقيق من وراء الباب : يا تيتوريللى هل تسمح لنا الآن بالدخول ؟.

فأجاب المصور : لا .

وعاد الصوت يسأل : وانا ايضا وحدى لا ؟

وقال المصور : لا .

ثم ذهب الى الباب وأحكم اغلاقه .

كان ك فى تلك الأثناء قد دار بنظره فى الحجرة ، لم يكن هناك انسان يمكن أن يخطر بباله أن هذه الحجرة البائسة قد تسمى مرسما . فلم يكن من الممكن تقريبا أن يخطو الانسان فيها طولا وعرضا أكثر من خطوتين طويلتين . وكان كل شىء ، الأرضية الحيطان ، السقف من الخشب ، وكان الناظر يرى بين الألواح شقوقا ضيقة . ورأى ك فى مواجهته سريرا عند الحائط تزاحمت فوقه امتعة وفرش مختلفة الألوان ، وفى وسط الحجرة حاملا عليه لوحة مغطاة بقميص تدلت أكمامه حتى الأرض . وكان وراء ك شباك لم يكن الانسان يستطيع بسبب الضباب أن يرى من خلاله سوى سطح بيت الجيران المغطى بالثلج .

وعندما ادار المصور المفتاح فى قفل الباب تذكر ك أنه يريد ان ينصرف حالا . ولهذا اخرج خطاب رجل الصناعة من جيبه وقدمه الى المصور وقال :

ــ لقد سمعت بك عن طريق هذا السيد وهو من معارفك ، وقد أتيت اليك بنصيحته .

وقرا المصور الخطاب قراءة سطحية سريعة ثم القى به على السرير . ولو لم يكن رجل الصناعة قد قال بغاية التحديد أن تيتوريللى ليس من معارفه ، بل هو رجل فقير ينال منه الصدقة ، لمال ك الى الاعتقاد فى هذه اللحظة بأن تيتوريللي لا يعرف رجل

الأعمال أو لا يستطيع ان يتذكره ، وسأل المصور :

ـ هل تريد أن تشترى لوحات أم تريد أن أرسمك ؟ »

وتطلع ك مندهشا الى المصور . ماذا كان فى الخطاب يا ترى؟ كان ك قد اعتبر من البديهى أن رجل الصناعة قد كتب الى المصور فى هذا الخطاب ان ك لايريد هنا سوى شيئا واحدا هو الاستعلام عن قضيته . ولكنه كان مسرفا فى التعجل وجرى الى هنا بلا تفكير وتدبر . وكان على ك الآن أن يرد على المصور بشىء فقال له وهو ينظر الى حامل اللوحة :

ـ انك تشتغل حاليا فى هذه اللوحة .

فقال المصور : نعم .

والقى القميص الذى كان فوقها الى السرير وراء الخطاب . ثم قال :

ـ انها لوحة نصفية . عمل جيد ، ولكنها لم تتم بعد تماما .

وكانت اللوحة مصادفة فى صالح ك ، لأنها اتاحت له امكانية التحدث عن المحكمة . كانت على مايبدو صورة قاض . وكان الشبه بينها وبين الصورة التى فى مكتب المحامى شبها كبيرا ملفتا للنظر . وان كان موضوعها يختلف تماما ، فقد كانت هذه اللوحة تمثل قاضيا آخر ، بدينا له لحية كاملة سوداء كثة تعلو من الجانب على الوجنتين . وثمة فارق آخر ، فقد كانت لوحة حجرة المحامى لوحة زيتية ، اما هذه فلوحة بالباستيل ضعيفة وغير واضحة . ولكن كل ما عدا ذلك كان متشابها ، فهنا كذلك يهم القاضى بالنهوض من كرسى عرشه مهددا وممسكا بالمسندين الجانبيين . ولقد أوشك ك على أن يقول : هذا قاض . ولكنه تحفظ مؤقتا واقترب من الصورة وكأنه يريد أن يدرس تفصيلاتها . فوجد فى وسط المسند الخلفى للكرسى شكلا كبيرا لم يستطع أن يفهمه ، فسأل عنه المصور . فقال انه يحتاج

الى قليل من الاكمال وتناول من فوق مائدة صغيرة قلم باستيل وداعب به جوانب الشكل قليلا ، دون أن يزيده بذلك وضوحا .

وأخيرا قال المصور :

ـ هذه هي العدالة .

فقال ك : وأنا قد عرفتها لتوى ، هذا هو الرباط حول عينيها وهذا هو الميزان . ولكن أليست هذه أجنحة عند كعبيها ؟ وأليست في حركة ؟ .

فقال المصور :

ـ بلى . . لقد كان على بحسب التكليف أن أصورها هكذا ، فهي تمثل في وقت واحد العدالة وربة النصر .

فقال ك مبتسما : ليس هذا مزجا طيبا ، فالعدالة لابد ان تكون هادئة ساكنة ، والا تأرجح الميزان ، ولم يعد من الممكن اصدار حكم عادل .

فقال المصور : انا اتبع مشيئة من أعطاني التكليف .

فقال ك : بكل تأكيد . فلم يكن يريد أن يمس كائنا من كان بملاحظته تلك . ثم قال : وانت رسمت هذا الشخص جالسا على كرسي العرش وهو في الحقيقة كذلك .

فقال المصور : لا ، فلا انا رأيت الشخص ، ولا أنا رأيت كرسي العرش ، كل هذا من ابتداعي ، ولكن الذي كلفني بهذا العمل بين لي ما ينبغي على أن أصوره في اللوحة .

وسأل ك وهو يتظاهر عامدا بأنه لم يفهم مقصد المصور تماما : كيف ؟ هذا الجالس على مقعد القاضي هو بلا شك قاض ؟

فقال المصور : نعم ، ولكنه ليس قاضيا عظيما ولم يحدث قط ان أجلس على كرسي كهذا .

وقال ك : وهو مع ذلك يطلب صورة لنفسه في هذه الهيئة الجليلة ؟ انه يجلس في هيئة رئيس محكمة ،

فقال المصور : نعم ، هؤلاء الرجال مغـــرورون . ولديهم تصريح خاص بأن يستصوروا انفسهم على هــذا النحو . ولـكن الانسان لا يستطيع للأسف مهما دقق فى الصورة ان يحكم على تفصيلات الملبس والمقعد ، فألوان الباستيل ليست ملاءمة لمثـل هذه الموضوعات .

فقال ك : من الغريب فعلا ان اللوحة مصورة بألوان الباستيل .

فقال المصـــور : هذه رغبة القاضى ، وهو يريدها لاحـــدى السـيدات .

ويبدو ان تطلع المصور الى الصورة اثار فيه رغبة فى العمـل فقد شمر كم جلبابه عاليا ، وتناول بعض الأقلام ، ورأى كيف تكون عند راس القاضى تحت اطراف الأقلام المرتعشة ظل محمر ، تلاشى كالأشعة قرب حافة الوحـــة ، واحاطت هـــذا التظليل بالتدريج راس القـــاضى كالحلية او كالوشـــاح . اما ما حول شخصية العدالة فقد ظل مضيئا باستثناء تظليل خفيف غـير ملحوظ ، وبدت الشخصية المصورة فى هذه الاضاءة الواضحـة كأنها تبرز الى الخارج بروزا ، ولم تعد تذكر الانسان الا عـلى نحو لا يكاد يذكر بربة العدالة ، وربة الانتصار ، بل اصبحت تبدو الآن كربة الصيد تماما . وجذب عمل المصور ك أكثر مما كان يريد، ولكنه فى النهاية لام نفسه لأنه بقى هنا مدة طويلة دون أن يفعل شيئا من أجل قضيته . وسأل ك فجأة :

ـ ما اسم هذا القاضى ؟ .

واجاب المصور : ليس لى أن اقول اسمه .

وكان المصور منحنيا انحناءا شديدا على اللوحة ، واهمـل بهذا الضيف اهمالا واضحا بعد ان كان قد استقبله من قبـــل استقبالا فاض بالتقدير . واعتبر ك هـذا التصرف نزوة عابرة

واغتاظ لأنه قد خسر بسببه بعض وقته . وسأل ك :

ـ يبدو انك موضع ثقة المحكمة ؟

ووضع المصور فى الحال أقلامه جانبا ، واعتدل وفرك يديه وتطلع الى ك مبتسما . ثم قال : قل الحقيقة دائما على الفور . انك تريد أن تعرف شيئا عن المحكمة كما جاء فى خطاب التوصية ولكنك بدات تتحدث عن لوحاتى لتكسبنى الى صفك . ومع ذلك فأنا لن آخذ عليك هذا المسلك ، فأنت لم تكن تستطيع أن تعلم أن هذا شيء لا يليق عندى . آه ، من فضلك .

قال المصور الكلمات الأخيرة بلهجة حادة صادة ، عندما هم ك بالاعتراض بشيء . ثم استأنف : على انك على حق تماما فى ملاحظتك ، فأنا رجل محل ثقة المحكمة .

ثم سكت فترة كأنما أراد ان يدع لـ ك زمنا يستوعب فيها هذه الحقيقة . وعادت أصوات البنات تنطلق من وراء الباب . ويبدو انهن كن يتزاحمن على خرم المفتاح ، وربما كان من الممكن أيضا التطلع الى داخل الحجرة من خلال الشقوق . وتخلى ك عن الاعتذار بأى شيء ، لأنه لم يشأ أن يصرف المصور عن الموضوع ، ولم يشأ كذلك أن يبالغ فى تعظيم المصور ، ويجعله بذلك شخصا لا يمكن الوصول اليه ، ولهذا سأل :

ـ هل لك مركز معترف به رسميا ؟.

فقال المصور بايجاز وكأنما اضطرب عليه بهذا أمر اكمال الحديث : لا .

ولكن ك لم يرد أن يجعله يصمت ، فقال : كثيرا ما تكون هذه المراكز غير المعترف بها أكثر نفوذا من المراكز المعترف به .

فقال المصور :

ـ وهذا ما ينطبق على حالتى تماما .

وأومأ براسه مقطبا جبينه ، ثم راح يقول : كنت بالأمس اتكلم مع رجل الصناعة فى موضوعك فسألنى هل أستطيع مساعدتك ، فأجبت عليه بقولى : لا بأس من ان يمر على الرجل يوما ما ، وهأنتذا قد اتيت سريعا ، وانا سعيد بذلك . والقضية على مايبدو تهمك جدا ، وهذا شيء لا أدهش له بطبيعة الحال اطلاقا . الا تحب أن تخلع معطفك أولا ؟

وعلى الرغم من ان ك كان ينوى البقاء مدة قصيرة فقد لقى عرض المصور ترحيبه الشديد . اذ أن هواء الحجرة ثقل عليه بالتدريج ثقلا خانقا ، حتى انه كان ينظر متعجبا الى مدفأة صغيرة غير موقدة بلا شك ، موضوعة فى ركن الحجرة ، فقد كانت حرارة الحجرة الخانقة لايمكن تفسيرها . وبينما راح يخلع معطفه الشتوى ، ويفتح كذلك أزرار السترة التىتحته ، قال المصور معتذرا : لابد لى من الدفء . والجو هنا لطيف ، اليس كذلك ؟ والحقيقة ان الحجرة من هذه الناحية ذات موقع عظيم جدا .

ولم يقل ك شيئا ردا على هذا ، ولم تكن الحرارة هى التى تنغص عليه ، وانما كان ينغص عليه الهواء الخانق الذى كان يوشك أن يحول بينه وبين التنفس ، فالحجرة لم يجدد هواؤها منذ مدة طويلة بلا شك . وقد اشتد بك النكد عندما رجاه المصور ان يجلس على السرير ، بينما جلس هو على الكرسى الوحيد بالحجرة امام حامل اللوحة . كذلك يبدو ان المصور اساء فهم بقاء ك على حرف السرير ، ولهذا رجاه أن يأخذ راحته . فلما تردد ك فى ذلك ، ذهب اليه ودفع عميقا الى باطن الحشايا والمخدات . ثم عاد الى كرسيه ووجه الى ك اول سؤال موضوعى انسى ك كل ما عداه :

ــ أنت برىء ، هه ؟

فقال ك : نعم .

كانت الاجابة على هذا السؤال مصدر سعادة حقيقية لـ ك خاصة وانها كانت موجهة منه الى رجل من غير الرسميين ، وكانت لهذا لاتحتمل اية مسئولية تتبعها . لم يكن هناك انسان سأله مثل هذا السؤال الصريح من قبل . واراد أن يتمتع بهذه الفرحة ، فأضاف :

ـ انا برىء تماما .

فقال المصور : هكذا .

وطأطأ راسه وبدا كأنه يفكر . ثم رفع راسه فجأة وقال :

ـ اذا كنت بريئا ، فالقضية سهلة جدا .

وتعكرت نظرة ك ، لقد تحدث هذا الرجل الذى يقول انه موضع ثقة المحكمة ، كما يتحدث الطفل الغرير .

وقال ك : ولكن براءتى لا تسهل القضية .

ولكنه برغم هذا كله ابتسم وهز راسه ببطء . وقال :

ـ الأمر رهن بكثير من الدقائق تتوه فيها المحكمة . وفجأة تبرز ناحية ما ، لم يكن فيها من الاصل شيء ، وينطلق منها ذنب عظيم . فقال المصور :

ـ نعم ، نعم ، بكل تأكيد .

وكأن ك عطل عليه بدون داع سبيل افكاره ، ثم قال :

ـ ولكنك قلت لي انك برىء ؟ .

فقال ك : هذا صحيح .

ورد المصور : وهذا هو الشيء الرئيسى .

لم يكن من الممكن التاثير على المصور بأسباب مضادة لأسبابه .. ومع ذلك لم يكن من الواضح ، برغم صلابته ، هل كان يتكلم عن

اقتناع او كان يتكلم عن استخفاف . واراد ك فى أول الأمر ان يتبين أساس كلامه ولهذا قال :

ـ انت بكل تأكيد تعرف المحكمة أحسن منى . وانا لا اعرف اكثر مما سمعته عنها من اناس مختلفين أعظم الاختلاف . وقداتفق الجميع على أنه لا توجد اتهامات خرقاء ، وأن المحكمة عندما تتهم تكون مقتنعة تمام الاقتناع بذنب المتهم ، ولا يمكن صرفها عن هذا الاقتناع الا بصعوبة .

وسأل المصور ك وهو يرفع يدا الى أعلى : تقول بصعوبة ؟ بل ان المحكمة لايمكن بحال من الأحوال صرفها عن اقتناعها .. واننى اذا صورت جميع القضاة على لوحة الواحد بجانب الآخر واتيت لتدافع عن نفسك أمام صورتهم ، للقيت من النجاح أكثر مما يمكن أن تصيب أمام المحكمة الحقيقية .

فقال ك فى نفسه : نعم .

ونسي أنه انما أراد أن يختبر المصور ليس الا .

وعادت بنت من وراء الباب تسأل : ياتيتوريللى ، ألن ينصرف عما قريب ؟ .

وصاح المصور ناحية الباب : اسكتن ! اما ترين أننى أتباحث مع الرجل ؟

ولكن البنت لم ترض بهذا وعادت تسأل : هل سترسمه ؟ فلما لم يجب المصور ، عادت تقول : ارجوك الا تصوره ، فهو انسان قبيح جدا !

وتلت ذلك صيحات موافقة متداخلة غير واضحة المعنى . وقفز المصور قفزة الى الباب وفتحه قليلا ، فبدت أيدى البنات الممدودة المتوسلة . وقال : اذا لم تلزمن السكون ، فسألقى بكن الى أسفل السلم جميعا . اجلسن هنا على الدرج والزمن الهدوء !

والظاهر انهن لم يطعن على الفور ، لأنه اضطر الى ان يأمرهن:

ـ اقعدن على الدرج ..

عند ذاك ساد السكون .

وقال المصور عندما عاد : ارجو المعذرة .

لم يكن ك قد التفت الى الباب الا ما يوشك الا يكون التفاتا ، وترك الأمر كله للمصور هل يحميه منهن وكيف . كذلك لم يتحرك الآن الا ما يوشك الا يكون حركة ، عندما انحنى المصور فوقه ، وهمس اليه ، حتى لا يسمعه من بالخارج ، قائلا :

ـ هذه البنات أيضا من المحكمة .

وسأل ك وقد مال برأسه الى جانب وتطلع الى المصور :

ـ كيف هذا ؟ .

ولكن المصور عاد الى الجلوس فى كرسيه وقال فى لهجة بين المزاح والتصريح : كل شيء من المحكمة !

وقال ك موجزا : هذا ما لم الحظه بعد .

وجردت ملاحظة المصور العامة الاشارة الى البنات من كل ما يقلق . ومع ذلك فقد تطلع ك هنيهة الى الباب الذى كانت البنات يجلسن خلفه على الدرج هادئات .. الا واحدة دست قشة فى شق بين الألواح وحركتها طالعة نازلة ببطء .

وقال المصور : يبدو أنك لم تكون فكرة شاملة بعد عن المحكمة ، وباعد بين ساقيه وراح يخبط الأرض باطراف قدميه . ثم قال : وما دمت فارغ الصبر، فلن تحتاج اليها . وأنا سأخرجك مما أنت به .

وسأله ك : وكيف تريد ان تفعل هذا ؟ وقد قلت منذ قليل أن المحكمة لاتتقبل الادلة بحال من الأحوال !

وقال المصور : انها لاتتقبل الأدلة التى تقدم أمامها .

ثم رفع اصبع السبابة وكأنما اراد بذلك أن يقول ان ك لم يتبين الفرق الدقيق بين الأمرين .

ثم قال : يختلف عن هذا ما يجريه الانسان فى هذه الناحية وراء المحكمة الرسمية ، أى فى غرف المداولة والأروقة أو فى المرسم هنا مثلا .

لم يبد الكلام الذى قاله المصور الآن لـ ك شديد البعد عن التصديق ، بل لقد اتسم بمطابقة كبيرة لما كان ك قد سمعه من آخرين . كان كلام المصور على الأحرى شديد الامتلاء بالأمل ... فاذا صح أن القضاة يسهل التأثير عليهم بفعل العلاقات الشخصية كما قال المحامى واسهب ، فان علاقات المصور بالقضاة لها اهمية خاصة ولا ينبغى بحال من الأحوال التقليل من شأنها . وبهذا يندمج المصور اندماجا عظيما فى جماعة المساعدين التى اخذ ك يجمعها بالتدريج حواليه . ولقد مدحوا فى البنك ذات يوم موهبة ك التنظيمية ، واليوم وقد اصبح يعتمد على نفسه وحده تماما ، تعرض فرصة طيبة لتجربة هذه الموهبة التنظيمية الى اقصى حدودها . وتطلع الرسام الى المفعول الذى احدثه كلامه فى ك ثم قال فى شيء من الرهبة :

ـ ألا يلفت انتباهك اننى اتكلم بطريقة توشك أن تكون هى طريقة رجال القانون ؟ هذا هو تأثير مخالطتى المستمرة لرجال المحكمة . وأنا بطبيعة الحال أكسب الكثير من وراء هذه المخالطة ، ولكن انطلاقتى الفنية تضيع جزئيا .

وسأل ك : وكيف اتصلت بالقضاة لأول مرة ؟

وكان ك يريد بهذا السؤال ان يكسب ثقة المصور قبل ان يضمه فى خدمته . فقال المصور :

ـ بغاية السهولة ، بالوراثة . فقد كان أبى من قبلى هو مصور المحكمة . وهذه هى الوظيفة الوحيدة التى تنتقل بالوراثة دائما . ولا تحتاج المحكمة لها الى اناس جدد . والسبب هو أنه هناك قواعد مختلفة متعددة وقبل كل شيء آخر سرية لتصوير مراتب الموظفين المختلفة ، وهذه القواعد لا تذاع الا فى حدود عائلات معينة لا تتجاوزها . هناك مثلا فى هذا الدرج مذكرات أبى التى لا اطلع انسانا عليها ، ولكن من يحيط بها هو وحده الذى يستطيع أن يصور القضاة . ولكن حتى اذا فقدتها ، فلدى عدد كبير من القواعد أحملها انا وحدى فى راسى ولا يمكن لأحد أن ينازعنى مركزى . وكل قاض يريد أن يصور كما كان القضاة القدامى العظام يصورون ، وهذا ما لا يستطيعه انسان سواى .

وقال ك وقد فكر فى وضعه بالبنك : هذا شيء تحسد عليه.

ثم قال : وضعك اذن ثابت الأركان لا يهتز ؟

فقال المصور وقد رفع كتفيه فى زهو : نعم . لا يهتز ! ولهذا فاننى أجسر من حين لآخر على مساعدة انسان مسكين تكون له قضية .

وسأل ك : وكيف تفعل هذا ؟ .

وكأنما لم يكن هو ذلك الرجل المسكين الذى عناه المصور منذ قليل . ولكن المصور لم يدعه يصرفه عن موضوعه بل قال :

ـ وانا فى حالتك مثلا سأفعل الآتى ، نظرا لأنك برىء تماما.

وثقل على ك تكرار الاشارة الى براءته . ولاح له أحيانا كأن المصور يشترط منذ البداية نهاية ملاءمة لقضيته كشرط اولى لتقديم المساعدة اليه ، تلك المساعدة التى لا تقوم بطبيعة الحال الا لبلوغ هذا الهدف . ولكن ك برغم هذه الشكوك ضغط على نفسه

ولم يقاطع المصور . فلم يكن يريد أن يصرف النظر عن مساعدة المصور .. كان مصمما على ذلك .. كذلك لم تبد له هذه المساعدة اكثر ريبة على الاطلاق من مساعدة المحامى . بل ان ك فضل مساعدة المصور كثيرا على مساعدة المحامى ، لأنها أكثر بساطة وأكثر صراحة فى طريقة عرضها .

كان المصور قد قرب كرسيه من السرير ، واستأنف الكلام بصوت مكبوت :

ـ لقد نسيت أن أسألك فى البداية عن نوع التبرئة التى ترغبها .. فهناك ثلاث امكانيات : التبرئة الحقيقية والتبرئة الظاهرية والجرجرة . والتبرئة الحقيقية هى أحسن أنواع البراءة ولكن لا أستطيع أن أفعل شيئا فى هذا النوع من التبرئة .. بل اننى اعتقد انه لايوجد انسان فرد يمكنه أن يعين على التبرئة الحقيقية . والظاهر أن المعول فى هذا النوع من التبرئة على براءة المتهم . وما دمت أنت برىء ، فانه من الممكن فعلا ، أن تعتمد على براءتك كل الاعتماد . وفى هذه الحالة لا تكون بحاجة لا الى ولا الى أية مساعدة اخرى .

وبهرت طريقة المصور المرتبة فى العرض ك فى أول الأمر ، ثم قال بصوت خفيض كصوت المصور :

ـ انا اعتقد أنك تناقض نفسك !

وسأل المصور بصبر وقد اسند ظهره الى المسند مبتسما :

ـ وكيف هذا ؟ .

وايقظ هذا الابتسام فى ك شعورا بأنه يوشك أن يكشف تناقضات لا فى كلام المصور بل فى اجراءات المحكمة ذاتها . ولكنه مع ذلك لم يتراجع بل قال :

ـ لقد قلت من قبل ان المحكمة لاتقبل الأدلة والبراهين ، ثم بعد ذلك حصرت هذا على المحكمة العلنية ، وهأنتذا الآن تقول ان البرىء لايحتاج الى مساعدة امام المحكمة . وهذا تناقض . وأنت من ناحية أخرى قلت انه من الممكن التأثير على القضاة شخصيا ، وانت الآن تستبعد امكانية بلوغ ما تسميه بالتبرئة الحقيقية عن طريق التأثير الشخصى استبعادا تاما . وهنا التناقض الثانى .

فقال المصور : ما أيسر توضيح هذين التناقضين ! الحديث هنا عن أمرين مختلفين ، أولهما ما هو ثابت فى القانون وثانيهما ما علمت به أنا بوسائلى الشخصية .. وما ينبغى الخلط بينهما . فى القانون ، وأنا لم اقراه ، مكتوب بطبيعة الحال أن البرىء يبرأ ، وليس بالقانون انه من الممكن التأثير على القضاة . ولكنى علمت بعكس ذلك تماما . أنا لم أسمع قط بتبرئة حقيقية واحدة وما أكثر ما سمعت عن ضروب التأثير على القضاة . ومن الممكن بطبيعة الحال ، أن تكون الأحوال التى عرفتها لا براءة فيها .. ولكن أليس هذا بعيدا عن الاحتمال ؟ حالات كثيرة الى هذا الحد لا تكون حالة واحدة فيها براءة ؟ كنت وأنا طفل صغير أنصت الى أبى وهو يحكى فى البيت عن القضايا ، وكذلك كان القضاة الذين يأتون الى مرسمه يحكون عن المحكمة ، وليس هناك فى أوساطنا حديث عن موضوع آخر غير موضوع المحكمة . وماكادت امكانية الذهاب شخصيا الى المحكمة تتاح لى حتى استغللتها دائما ، واستمعت الى قضايا لا تحصى ولا تعد فى مراحلها الهامة وتابعتها ما بقيت ظاهرة ، ولابد أن أقرر أننى لم أشهد حالة تبرئة واحدة .

وقال ك وكأنما يتحدث الى نفسه والى أمانيه :

ـ ولا حالة تبرئة واحدة !

ثم أردف : وهذا يؤكد الرأى الذى كونته عن المحكمة . حتى هذه الناحية الأمل فيها مقطوع ! من الممكن ان يقوم جلاد واحد مقام المحكمة كلها !

فقال المصور بلا رضاء : لايصح أن تعمم . فأنا لم أتكلم الا عن خبراتى انا فقط .

فقال ك : وهى تكفى .. أم هل سمعت عن حالات براءة من الزمن القديم ؟.

فقال المصور : يقال ان مثل حالات البراءة هذه وجدت .. ولكن هذا شىء من الصعب التحقق منه . لأن الأحكام النهائية للمحكمة لا تعلن ، بل ان القضاة انفسهم لا يعلمون بها .. ولهذا فان ما بين أيدينا عن القضايا القديمة أساطير . وهذه الأساطير تحتوى غالبيتها على أحكام بالبراءة الحقيقية ، وفى استطاعة الانسان أن يصدقها ، ولكن ليس فى استطاعته أن يقطع بصحتها. ومع ذلك فما ينبغى على المرء أن يتجاهلها فهى بلا شك تضم شيئا من الحقيقة ثم أن هذه الأساطير جميلة ، ولقد صورت انا شخصيا لوحات تتضمن مثل هذه الأساطير .

فقال ك : الأساطير البحتة لا تغير رأيى ، وهل يمكن أن يستشهد الانسان أمام المحكمة بهذه الأساطير ؟ .

وضحك المصور : لا ، هذا لا يمكن .

فقال ك : اذن فلا فائدة من الحديث عنها .

وكان ك يريد أن يتقبل مؤقتا كل آراء المصور ، حتى ولو اعتبرها بعيدة عن التصديق متناقضة مع حكايات اخرى . ولم يكن لديه الآن من الوقت ما يكفى ليفحص مدى صدق كل ما يقوله المصور ، ناهيك عن نقضه ، وفكر فى أنه يكون قد بلغ أقصى مايريد

بلوغه ، اذا دافع المصور الى مساعدته بأى شكل حتى ولو كان هذا الشكل غير حاسم . ولهذا قال : اذن فاصرف النظر عن التبرئة الحقيقية ، ولقد ذكرت امكانيتين أخريين .

فقال المصور : نعم ، التبرئة الظاهرية ، والجرجرة .. تلك امكانيتان يمكننى أن أعمل فيهما شيئا . ولكن الا تريد أن تخلع سترتك قبل أن نتحدث فيهما ؟ أظن أن الجو حار عليك .

فقال ك : نعم .

ولم يكن حتى تلك اللحظة قد التفت الى شيء آخر سوى تصريحات المصور ، وتفجر العرق الآن من جبينه شديدا ، بعد ان ذكره المصور بالحرارة . ثم اردف :

ـ هذه حرارة توشك الا تكون محتملة !

وهز المصور رأسه وكأنما أراد أن يعبر عن انه يفهم تبرم ك تمام الفهم . وسأل ك : اما يمكن أن نفتح نافذة ؟

فقال المصور : لا ، فليست هذه النافذة سوى لوحا من الزجاج ثابتا في مكانه ، لا يمكن فتحه .

وتبين ك انه كان طوال الوقت يأمل أن يذهب المصور فجأة الى النافذة فيفتحها على وسعها . وكان قد أعد نفسه ليتنفس ما سيدخل منها حتى ولو كان ضبابا . واصابه شعوره بأنه محبوس عن الهواء تماما بالدوار . وخبط بيده بخفة على اللحاف وقال بصوت خفيض : هذا شيء مقلق للراحة مضر بالصحة .

فقال المصور مدافعا عن النافذة : آه ، لا ، فالدفء يظل هنا محفوظا ولا يتسرب ، نظرا لأن النافذة لايمكن فتحها ، وفى هذا تفوق هذه النافذة رغم بساطتها ، النافذة المزدوجة . فاذا ما احتجت مرة الى التهوية ، وهذا شيء لا تدعو اليه ضرورة ملحة

لأن الشقوق بين العروق تنفذ الهواء من كل مكان ، ففى امكانى ان افتح واحدا من البابين أو كلاهما .

ووجد ك فى هذا الكلام شيئا من السلوان ، وراح يلف ببصره فى المكان بحثا عن الباب الثانى . ولاحظ المصور هذا وقال :

ـ انه هناك خلف السرير ، وقد آثرت أن أسده بالسرير ..

عند ذاك رأى ك الباب الصغير فى الحائط . وقال المصور وكأنه أراد أن يسبق لوما توقعه من ك :

ـ كل شيء هنا صغير جدا بالنسبة لمرسم . وقد تحتم على أن أدبر بنفسى فى هذا المكان ما استطعت . والحق أن السرير بوضعه عند الباب يحتل مكانا غير مناسب على الاطلاق . فالقاضى ، على سبيل المثال ، القاضى الذى ارسمه الآن ، يدخل دائما من الباب الذى عند السرير .. ولقد أعطيته أنا مفتاحا حتى يدخل وينتظرنى هنا فى المرسم عندما لا اكون حاضرا فيه . وهو يأتى عادة فى الصباح المبكر وأنا مستغرق فى النوم . وينتزعنى بطبيعة الحال من سباتى العميق ، عندما يفتح الباب المجاور للسرير . وانك لتفقد كل احترام للقضاة ، اذا سمعت اللعنات التى استقبله بها عندما يعبر سريرى فى هذا الوقت المبكر . وأنا لا أستطيع أن آخذ منه المفتاح ، ولكن هذا التصرف من شأنه أن يحدث الغضب والاثارة ، وكل الأبواب هنا يمكن اخراجها من سجافها بأقل مجهود .

وكان ك فى أثناء هذا الكلام يفكر هل يخلع البسترة ، واخيرا تبين انه اذا لم يفعل ، فانه لن يقدر على البقاء هنا طويلا ، ولهذا خلع السترة ووضعها على ركبتيه ليلبسها مرة ثانية اذا انتهى الحديث . وما كاد يخلع السترة حتى صاحت احدى البنات :

ـ لقد خلع ثوبه ..!

وتناهى الى الأسماع صوتهن وهن يتزاحمن على شقوق الخشب كلها لرؤية المنظر . وقال المصور : البنات يعتقدن انني سأصورك وانك لهذا السبب تخلع ملابسك .

فقال ك : هكذا !

وقد انشرح انشراحا أقل مما توقع ، لأنه لم يشعر انه تحسن عن ذي قبل ، على الرغم من انه كان الآن يجلس مرتديا ملابسه الداخلية فقط . وسأل بلهجة توشك ان تكون غاضبة : كيف اسميت الامكانيتين الاخريين ؟ .

لأنه كان قد نسي المصطلحات مرة اخرى . فقال المصور :

ـ التبرئة الظاهرية والجرجرة . ولك أن تختار ، والأمران ممكن بلوغهما بمساعدتي ، ولن يكون ذلك بدون تعب بطبيعة الحال ، والفرق هنا هو أن التبرئة الظاهرية تحتاج الى جهد مؤقت مركز والجرجرة الى جهد اقل ولكن مستمر . ولنتناول أولا التبرئة الظاهرية . اذا كنت ترجو هذه ، فأنا أكتب على ورقة شهادة ببراءتك . وقد تلقيت نص هذه الشهادة من والدي وهو نص لا ينقص بحال من الأحوال . ثم اسير بهذه الشهادة الى أصدقائي من القضاة ، فأبدأ مثلا بتقديم الشهادة الى القاضي الذي أرسمه حاليا ، أقدمها اليه مساء اليوم عندما يأتي للصورة .. أقدم اليك الشهادة وأشرح لك أنك بريء وانني اضمن براءتك وهذا الضمان الذي أقدمه على براءتك ليس ضمانا شكليا ، بل هو ضمان فعلي ملزم .

وبدت في نظرات المصور لمحة كأنها لوم لـ ك على انه يريد الأثقال عليه بمثل هذا الضمان . فقال ك :

ـ سيكون هذا كرما منك ! وهل يصدقك القاضي ورغم ذلك لا يبرئني تبرئة حقيقية ؟

فأجاب المصور : كما قلت من قبل . على انه ليس من المؤكد تماما ، ان كل قاضي سيصدقني ، وربما يطلب بعض القضاة ان اسوقك اليهم شخصيا . وفى هذه الحالة سيكون عليك أن تأتى مرة معى . ولكن فى مثل هذه الحالات يكون الكسب مؤكدا نصفه ، خاصة واننى سأكون قد أعلمتك من قبل بالطريقة التى ينبغى أن تتصرف عليها عند كل قاض . والأمر يسوء فى حالة القضاة ـ وهذا ما سيحدث ـ الذين سيرفضوننى من البداية . وما ينبغى علينا الا أن نصرف النظر عن هؤلاء ، وان كنت سأكرر المحاولة معهم ، ومن حقنا أن ننصرف عن بعض القضاة ، لأن القضاة فرادى لا يمكن أن يحددوا النتيجة النهائية للقضية فى هذه الحالة . وعندما أجمع على هذه الشهادة عددا كافيا من التوقيعات ، أذهب بها الى القاضى الذى يشتغل بقضيتك . وربما يكون توقيعه موجودا على الشهادة ، وفى هذه الحالة يسير الأمر بسرعة أكبر قليلا من المعتاد . وليس من المألوف عادة أن تكون هناك عوائق كثيرة ، وهذا الوقت هو بالنسبة للمتهم وقت الثقة العظمى . ومن الغريب ، ولكن هذا حقيقى ، أن الناس فى هذا الوقت يكون لديهم من الثقة أكثر مما يكون لديهم بعد البراءة .. فلا حاجة والأمر كذلك الى بذل مزيد من الجهد .. فالقاضى عنده فى الشهادة ضمان عدد من القضاة ، ويمكنه بدون حرج أن يبرئك ، وهو سيفعل هذا اكراما لى ولمعارف آخرين ، وبالطبع بعد القيام باجراءات شكلية مختلفة . أما أنت فتخرج من المحكمة حرا طليقا .

وقال ك مترددا : واكون اذن حرا !

فقال المصور : نعم ، ولكنك ستكون حرا ظاهريا فقط ، أو

بعبارة أدق مؤقتا . فقضاة الدرجات الدنيا الذين منهم معارفى ليس لهم الحق فى التبرئة تبرئة نهائية ، وهـذا الحق محفوظ للمحكمة العليا وحدها ، وهى محكمة لا انت ولا أنا ولا نحن جميعا نستطيع الوصول اليها . ولسنا نعرف منظرها ولا أحوالها ، بل وأصدقك القول ، اننا لا نريد ان نعرف هـذا .. اذن فليس لقضاتنا الحق العظيم فى تبرئة المتهم من التهمة ، ولكن فى يدهم حق تخليص الانسان من التهمة ، ومعنى هذا انك اذا برئت على هذا النحو ، تكون قد سحبت للحظة من التهمة ، ولكن التهمة تظل باقية تحوم فوقك ، وتنفذ فى الحال عندما يصدر الأمر العالى . ولما كنت أنا على علاقة طيبة الى هذه الدرجة بالمحكمة ففى امكانى أن أقول لك عما فى مقررات ديوان المحكمة من فرق ظاهرى بحت بين التبرئة الحقيقية والتبرئة الظاهرية . فى حالة التبرئة الحقيقية تحفظ ملفات القضية كلها ، وتختفى هكذا من المحكمة ، ويباد الاتهام وتباد القضية بل ويباد حكم البراءة ، يباد كل شىء . أما البراءة الظاهرية فتختلف .. لا يحدث للملفات القضية الا انها تزيد باضافة شهادة البراءة وباضافة حكم البراءة وحيثيات الحكم . ولكنها تبقى فى الاجراءات ، وترفع ، حسب متطلبات حركة العمل الدائبة فى ديوان المحكمة ، الى المحاكم الأعلى درجة ، ثم تنزل الى الأوطى درجة ، وهكذا تتأرجح فى حركات كبيرة أو صغيرة تارة الى أعلى وتارة الى أسفل . وهذه الطرق لا يؤمن لها . قد يلوح الأمر فى الظاهر أحيانا كأن كل شىء توارى فى النسيان منذ أمد بعيد وكأن الملفات ضاعت وكأن الحكم بالتبرئة حكم كامل . ولكن العليم ببواطن الأمور لا يصدق هذا . الملفات لا تضيع ، والنسيان لا مكان له فى المحكمة . وفى يوم من ذات الأيام ــ لا يكون فيه من يتوقع شيئا ــ يتناول قاض من القضاة الملف فى يده باهتمام وانتباه ، ويتبين أن الاتهام فى هذه الحالة مازال قائما فيأمر بالاعتقال الفورى . ولقد افترضت هنا

ان يمر وقت طويل بين التبرئة الظاهرية وبين الاعتقال المجدد .. وهذا ممكن ، وأنا أعرف حالات من هذا النوع ، ولكنه من الممكن ايضا ان يأتى الشخص من المحكمة الى البيت بعد التبرئةالظاهرية فيجد هناك من ينتظرونه بأمر اعتقال جديد . هناك تكون الحياة الحرة قد انتهت .

وسأل ك مرتابا : ثم تبدأ القضية من جديد ، أليس كذلك ؟

فقال المصور : بطبيعة الحال · القضية تبدأ من جديد ، وتكون هناك امكانية الوصول الى براءة ظاهرية ، كالمرة السابقة · وينبغى على الانسان أن يستجمع قواه ولا يصح أن يستسلم !

ولعل المصور قال الكلمات الأخيرة متأثرا بالانطباع الذى أحدثه فيه ك اذ بدأ خائرا قليلا .

وسأل ك وكأنه يريد أن يسبق المصور قبل أن يكتشف بعض الأسرار : ولكن أليس بلوغ التبرئة الثانية أصعب من الأولى ؟ فأجاب المصـــــور :

ـ لا يمكن ان يقول الانسان شيئا محددا فى هذا الشأن . لعلك تعنى أن القضاة سيتأثرون بالاعتقال الثانى فى غير صالح المتهم ؟ وليس هذا صحيحا · فالقضاة فى حالة التبرئة الأولى كانوا يتوقعون الاعتقال الثانى . ولهذا فليس للاعتقال الثانى اذن أثر تقريبا . ولكن من الممكن أن يكون مزاج القضاة لأسباب أخرى لا حصر لها قد تغير وتغير كذلك تكييفهم القانونى للحـــالة ، ولهذا ينبغى أن تتكيف الجهود المبذولة من أجل التبرئة الثانية مع الظروف المتغيرة الجهود المبذولة من أجل التبرئة الثانية مع الظروف المتغيرة وان تكون بصفة عامة قوية كما كانت قبل بلوغ التبرئة الأولى ·

وقال ك : وهذه التبرئة الثانية ليست تبرئة نهائية ·

ثم لف راسه مستنكرا · فقال المصور · لا طبعا ! فبعد التبرئة الثانية يأتى الاعتقال الثالث ، وبعد التبرئة الثالثة يأتى الاعتقال الرابع ، وهكذا دواليك · وهـــذا شيء من صميم مفهوم التبرئة الظاهرى ·

وصمت ك · وقال المصور : يبدو أن التبرئة الظاهرية لا تلقى منك الاستحسان ، ربما راقت لك الجرجرة · هل أشرح لك ماهية الجرجرة ؟

واوما ك برأسة · كان المصور قد اعتدل فى جلسته واستند الى ظهر الكرسى ، وكان جلبابه مفتوحا على سعته ، وقد دس يده تحته واخذ يتحسس بها صدره وجانبيه . وقال المصور :

ــ اما الجرجرة ثم نظر امامه لحظــة وكأنه يبحث عن تفسير صحيح كل الصحة .. اما الجرجرة ، فمعناها أن تبقى القضية دائما فى أدنى مرحلة من مراحل القضايا . ويتطلب بلوغ هذا ان يكون المتهم ومساعده ، وبخاصة مساعــده على علاقة احتكاك شخصية دائمة بالمحكمة . وانا اكرر انه لا يلزم فى هــذه الحالة بذل جهـد كبير كما فى حالة محاولة الوصـــول الى التبرئة الظاهرية ، ولكن الذى يلزم هنـــا هو تنبه اكثر بكثير . فما ينبغى ان يسهو الانسان عن القضية ، بل ينبغى أن يذهب الى القاضى المختص فى فتـــرات منتظمة وكذلك فى المناسبات الخاصة وأن يسلك الانسان كل السبل لاستمالته . فاذا لم يكن الانسان على معرفة شخصية بالقاضى ، فلابد ان يلجأ الانسان الى قضاة من المعارف حتى يؤثروا عليه ، دون أن ينصرف الانسان لذلك عن المفاوضات الشخصية المباشرة . فاذا لم يضيع الانسان شيئا لم يكن يصح أن يضيع فى هذه الناحية ، فمن الممكن ان يتأكد تأكدا كافيا من أن القضية لن تتجاوز مرحلتها الأولى . القضية لن تنتهى ، ولكن المتهم يظل فى مأمن من الادانة وكأنه برىء . والجرجرة تمتاز على التبرئة الظاهرية بأن مستقبل

المتهم يكون اقل بعدا عن الوضوح ، وبأن المتهم يكون فى مأمن من الاعتقال المفاجىء الفظيع وبأنه لايخشى ان يكون عليه ان يبذل الجهود ويتحمل الانفعالات فى أوقات لا تكون فيها أحواله الأخرى مناسبة لذلك الا أقل المناسبة ، وهى أمور تتصل بمحاولة الوصول الى التبرئة الظاهرية. على أن الجرجرة لها بالنسبة للمتهم بعض المساوىء التى لا ينبغى التقليل منها . وانا لاأفكر فى هذا المقام فى ان المتهم لا يصبح بريئا حرا أبدا ، وهذا شىء لا وجود له فى حالة التبرئة الظاهرية بمعنى الكلمة ، بل افكر فى مساوىء اخرى . فالقضية لا يمكن أن تقف فى المراحل الدنيا الا اذا كانت هناك أسباب على الأقل ظاهرية توقفها فيها . لابد اذن ان تحدث أشياء من الناحية الظاهرية : من حين لآخر تصدر أوامر مختلفة أو يستجوب المتهم ، أو يجرى معه التحقيق بعد التحقيق وما الى ذلك . اى أن القضية تدور دائما فى الدائرة الصغيرة التى حصرت فيها اصطناعا . ومن شأن هذا أن تنجم عنه المنغصات بالنسبة للمتهم ، وما ينبغى عليك مع ذلك أن تسرف فى استثقالها . فهى ظاهرية فى مجموعها لا أكثر ولا أقل ، فالاستجوابات مثلا استجوابات قصيرة جدا ، واذا لم يكن لدى الانسان وقت أو ميل ، ففى استطاعته أن يعتذر عن الحضور اليها ، بل إن فى امكان الانسان أن يتفق مع قضاة بعينهم على الأوامر التى سيصدرونها لمدة طويلة مقدما ، فالمقصود أن يمثل الانسان أمام قاضيه من حين لآخر ، نظرا لأن الانسان متهم .

كان ك فى أثناء الكلمات الأخيرة قد وضع سترته على ذراعه ووقف . وأقبل صياح من الخارج : لقد وقف !

وسأل المصور الذى نهض هو الآخر : هل تريد أن تنصرف الآن ؟ لا شك أن ما يبعدك عن هنا هو الهواء . وأنا أحس لهذا بالحرج الشديد . ولدى الكثير الذى كنت أود أن أقوله لك . وقد كان على أن التزم فى هذه العجالة بالايجاز الشديد . ولكن آمل ان أكون قد قلت ما يفهم .

فقال ك : آه طبعا .

وكانت رأسه تؤلمة نتيجة للجهد الـــذى تحتم عليه بذله فى الانصات الى المصور .

ولكن المصور ، برغم هذا الرد الايجابى ، أعاد كلامه كله مرة أخرى ، ملخصا ، وكأنه أراد أن يعطى ك وهو منصرف الى البيت عزاء وسلوانا : الطريقتان تتفقان في شيء هو الحيلولة دون ادانة المتهم .

فقال ك بصوت خفيض وكأنه خجل من التعرف على هــــذا : والحيلولة دون التبرئة الحقيقية أيضا .

فقال المصور بسرعة : لقد فهمت صلب الموضوع !

ووضع ك يده على الســـترة الشتوية ، ولكنه لم يستطيع أن يقرر لبسها . وكم كان يفضل لو ربط كل شيء ربطة وجرى الى الهواء الطلق ! حتى البنات لم يدفعه التفكير فيهن الى أن يرتدى السترة ، على الرغم من أنهن تعجلن وصحن الواحدة فى الأخرى انه يرتدى ثوبه . وكان المصور مهتما بتأويل مزاج ك على نحو ما ، فقـــال :

ـ يبدو أنك لم تقرر شيئا بخصوص مقترحاتى . وأنا راض بذلك . بل اننى كنت أود أن أنصحك بالا تسرع فى اتخاذ رأى . لأن الفوائد والمساوىء دقيقة دقة الشعرة . وينبغى أن يزن الانسان كل شيء بدقة . على أنه لاينبغى مع ذلك أن يضيع مع ذلك الانسان وقتا كثيرا أكثر من اللازم .

وقال ك : سأعود قريبا !

وقد لبس سترته بقرار مفاجىء ، وطرح ممطفه على ظهره وأسرع الى الباب الذى راحت البنات خلفه يصحن . وظن ك أنه يرى البنات المتصايحات من خلال الباب .

وقال المصور دون أن يتبعه : ولكن عليك أن تتمسك بكلمتك ، والا أتيت الى البنك لأستفهم منك شخصيا ٠

وقال ك : افتح الباب !

وأخذ يشد المقبض الذى كانت البنات يمسكن به من الخارج ، كما تبين من رد الفعل ٠

وسأل المصور : هل تريد أن تتعرض لمضايقة البنات ؟ الأفضل ان تخرج من الباب الآخر ٠

وأشار الى الباب الآخر خلف السرير ٠

ووافق ك على ذلك وقفز الى السرير مرة أخرى ٠ ولكن المصور بدلا من أن يفتح الباب ، زحف تحت السرير وسأل وهو تحته : انتظر لحظة أخرى أرجوك ، الا تريد أن ترى صورة أخرى يمكن أن أبيعها لك ؟

ولم يشأ ك أن يكون غليظا ، فقد اهتم به المصور فعلا ووعده بأن يعينه وان لم يدر الحديث ، نتيجة لنسيان ك عن ثمن المساعدة، ولهذا فلم يكن في مقدور ك أن يرده فتركه يعرض عليه الصورة ، على الرغم من أنه كان يرتعد لشدة تلهفه وتعجله الخروج من المرسم ٠ وجذب المصور من تحت السرير تلا من الصور غير المبروزة، كانت مغطاة بالتراب ، حتى أن التراب ، عندما نفخه المصور من فوق الصورة العليا ، تطاير أما أعين ك وحال بينه وبين التنفس مدة طويلة .

وقال المصور : هذه اللوحة تمثل بعض المروج وقدمها الى ك ٠

كانت الصورة تمثل بالفعل شجرتين ضعيفتين ترتفعان متباعدتين من نجيل مظلم . ظهرت فى خلفيتها شمس غاربة ملونة بألوان كثيرة .

وقال ك : جميل ! ساشترى هذه اللوحة .

كان ك قد نطق بهذه العبارة المسرفة في الايجاز دون ما تفكير ، ولذلك كان مسرورا ، عندما رأى أن المصور لم يغضب لذلك ، بل تناول من فوق الأرض لوحة أخرى ، وقال :

ـ هذه لوحة معارضة للوحة الأولى !

ربما كان المصور قد فكر فى جعلها معارضة للوحة الأولى ، ولكن الناظر اليها لم يكن يستطيع أن يتبين فرقا بينها وبين الاخرى : الشجرتان والنجيل وغروب الشمس هنا وهناك .

ولكن ك لم يكن مهتما بهذا فقال : هذه مناظر جميلة ! سأشترى اللوحتين ، وأعلقهما فى مكتبى !

وقال المصور : يبدو أن الموضوع المصور فيهما يعجبك !

وأخرج صورة ثالثة وقال : من المصادفات الحسنة ن اجد صوره ثالثة مشابهة .

ولم تكن اللوحة الثالثة مشابهة بل كانت تمثل المنظر نفسه. كان المصور ينتهز هذه الفرصة ليبيع الصور القديمة .

وقال ك : سآخذ هذه اللوحة أيضا . ما ثمن اللوحات الثلاث ؟

وقال المصور : سنتكلم فى هذا عما قريب . وأنت الآن على عجل ، وسنظل على صلة أحدنا بالآخر . ويسرنى أن الصور أعجبتك ، وسأعطيك كل الصور التى عندى تحت السرير . كلها مناظر مروج ، وما أكثر ما رسمت صور المروج ! وهناك من الناس من يرفضون مثل هذه الصور لأنها رهيبة ، وهناك من يحبونها ، وأنت منهم ، بسبب ما فيها من رهبة !

ولكن ك لم يكن لديه ميل لبحث الخبرات الفنية التى للمصور المتسول .

وصاح مقاطعا المصور : احزم كل الصور ! وسيأتى خادمى غدا ويأخذها ·

وقال المصور : لاداعى لذلك ! ارجو أن أتمكن من العثور على شيال يحملها معك الآن !

وأخيرا انحنى فوق السرير وفتح الباب ·

وقال المصور : اطلع فوق السرير ولا تخجل ! فكل من يدخل هنا يطلع فوق السرير !

وحتى لو لم يدع المصور ك الى الطلوع فوق السرير ، فان ك لم يكن سيعمل اعتبارا لشيء ، بل ان ك كان قد وضع قدمه فى وسط اللحاف ، فلما نظر من خلال الباب المفتوح أنزل قدمه مرة ثانية ·

وسأل ك المصور : ما هذا ؟

فرد المصور متسائلا مندهشا : ماذا يدهشك ؟

ثم قال : هذه مكاتب ديوان المحكمة ! أما كنت تعلم أن مكاتب ديوان المحكمة هنا ؟ مكاتب ديوان المحكمة على كل الأسطح تقريبا ، فلماذا لا تكون هنا أيضا ؟ كذلك مرسمى يتبع ديوان المحكمة أصلا، وقد وضعته تحت تصرفى :

وفزع ك، لا لأنه وجد هنا مكاتب ديوان المحكمة، بل فزع خاصة من نفسه ومن جهله أمور المحكمة · كان يتصور كقاعدة أساسية ينبنى عليها مسلك المتهم ، أن يكون دائما مستعدا وألا يجد مايباغته، والا ينظر الى اليمين بذهن خال بينما القاضى يقف عن شماله — ولكنه كان دائما يعود الى فعل ما يتعارض مع هذه القاعدة الأساسية·

رأى ك أمامه ممرا طويلا يهب منه هـــواء كان اذا قورن بهواء المرسم اعتبر منعشا · رأى على جانبى الممر دككا كالدكك التى رآها

فى حجرة الانتظار بمكاتب الديوان المختص بقضيته . والظاهر أنه كانت هناك تعليمات محددة تتبع فى تأثيث مكاتب الدواوين . ولم تكن حركة أصحاب القضايا فى تلك اللحظة شديدة جدا . كان هناك رجل يجلس وكأنه راقد يوارى وجهه فى ذراعيه ويلوح وهو على الدكة كأنه نائم . وكان هناك رجل آخر يقف فى بقعة شبه مظلمة فى نهاية الممر . وصعد ك فوق السرير وتبعه المصور باللوحات . وما لبثا أن التقيا بخادم المحكمة وكان ك الآن يعرف خدم المحكمة بالزرار الذهبى الذى يتخذونه على ملابسهم المدنية تحت الأزرار العادية ـ وكلف المصور الخادم بأن يرافق ك باللوحات . لم يكن ك يسير بل كان يترنح ، وكان يضغط المنديل على فمه . فلما أوشكا على بلوغ الباب الخارجي اندفعت البنات نحوهما ولم يتخلص ك منهما كما كان يتمنى . والظاهر أنهن رأين الباب الآخر للمرسم يفتح فسلكن الطريق الأخرى للدخول من الباب الخارجى .

وصاح المصور ضاحكا عندما رأى تزاحم البنات : لا استطيع الآن الاستمرار فى مرافقتك ! مع السلامة ! لا تطيل التفكير وعجل بالتقرير !

ولم يلتفت ك مجرد الالتفات حواليه للنظر الى المصور . ولما وصل الى الحارة ركب أول عربة صادفته . فقد كان مهتما بالتخلص من الخادم الذى كان زراره الذهبى يخز عينيه وخزا مستمرا وان لم يبد عليه أنه كان يلفت نظر الآخرين . وأراد الخادم تعبيرا عن كلفه بالخدمة أن يركب بجوار الحوذى فنهره ك واضطره الى النزول . فلما بلغ ك البنك كان النهار قد تجاوز منتصفه بمدة طويلة ، ولكم ود ك أن يترك اللوحات فى العربة ، ولكنه كان يخشى أن تطرأ فرصة يكون فيها عليه أن يذكر المصور بشخصيته مستندا عليها . ولهذا كلف من حملها الى حجرته ، ووضعها فى الدرج الأسفل بمكتبه وأغلقه ، ليبعدها على الأقل فى الأيام القليلة التالية عن نظر نائب المدير .

الفصل الثامن

• التـــاجربلوك
• تنحية المحامى

واخيرا قرر ك أن ينحي محاميه عن وكالته . لم يكن من الممكن القضاء على الشكوك التى راودته عن سلامة هذا التصرف ، ولكن اعتقاده فى ضرورة هذا القرار رجحت كفته . ولقد تطلب اتخـاذ هذا القرار من ك ، فى اليوم الذى اراد ان يذهب فيه الى المحامى، جهدا كبيرا . فلم يكن يستطيع أن يعمل الا ببطء مسرف ، وتحتم عليه أن يبقى فى المكتب طويلا لانجاز الأعمال ، وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة عندما وقف أمام باب المحامى . وفكر ، قبل أن يدق الجرس ، هل الأفضل أن ينذر المحامى تلفونيا أو تحريريا ، فالحديث الشخصى سيكون فيه بكل تأكيد كثير من الحرج . ومع ذلك فلم يشأ ك أن يتخلى عنه ،لأن طرق الانذار الأخرى سيتلقاها المحامى بالصمت أو بكلمات شكلية قليلة وفى هذه الحالة لن يعلم ك ، اللهم الا اذا اكتشفت لينى شيئا ، كيف تلقى المحامى الانذار وكيف صور حسب رأيه ــ وليس رأيه بالرأى المجرد من الأهمية ــ نتائج هذا الانذار ، أما اذا جلس المحامى أمام ك وتلقى مفاجأة الانذار بالتنحية ، فان ك ، حتى اذا لم يفصح المحامى عما به سيستنتج من وجهه ومن مسلكه بسهولة كل ما يريد معرفته . بل انه ليس من المستبعد أن يقتنع بأن من الخير ترك مهمة المرافعة للمحامى وبأن يسحب ، نتيجة لهذا ، انذاره بالتنحية عن الوكالة .

عندما دق ك جرس باب المحامى فى المرة الأولى ، لم يتحرك ساكن كالمعتاد . وفكر ك : ليت لينى تزداد سرعة !

.. وتمنى لو حظى على الأقل بعدم تدخل عميل آخر فى الموضوع كما كانت العادة ، فيأتى الرجل الذى يلبس معطف البيت أو يأتى غيره ، ويسبب لـ ك العقبات . وبينما وضع ك يده على زرار الجرس للمرة الثانية ودقه ، نظر الى الباب الآخر ، ولكن الباب الآخر ظل فى هذه المرة مقفلا . واخيرا ظهر فى طاقة باب المحامى عينان ، ولكنهما لم تكونا عينى لينى . وفتح احدهم الباب ولكنه ضغط على الباب من الداخل بجسمه وصاح الى داخل المسكن : انه هو ! .

ثم فتح الباب تماما . كان ك قد ضغط على الباب من الخارج بجسمه ، لأنه سمع وراءه المفتاح يدور بسرعة فى قفل باب المسكن الآخر . فلما انفتح الباب أمامه ، اندفع الى الحجرة الأمامية اندفاعا ، ورأى لينى التى كانت صيحة التنبيه موجهة من فاتح الباب اليها تجرى فى الممر الذى يفصل بين الحجرات وليس عليها سوى قميص فقط . وتبعها ك هنيهة بنظراته ، ثم التفت الى فاتح

الباب فاذا هو رجل قصير اعجف ، له لحية كاملة ، كان يحمل شمعة في يده . وساله : هل انت موظف هنا ؟.

فاجاب الرجل : لا ، انا هنا غريب ، كل ما هناك ان المحامى هو وكيلى ، وانا هنا بسبب مسالة قانونية .

وسال ك وهو يشير بحزنة من يده الى ملابس الرجل الناقصة: هكذا بدون ثوب ؟ .

فقال الرجل : آه ، لا تؤاخذنى ! .

واضاء نفسه بالشمعة وكانما كان يرى نفسه للمرة الأولى في هذا الوضع .

وسال ك الرجل بايجاز : هل ليني عشيقتك ؟.

كان ك قد باعد قليلا بين ساقيه وعقد يديه وبهما القبعة خلف ظهره ، واحس بتفوقه الشديد على الرجل النحيف ، لأنه كان يمتاز عليه بارتداء معطف ثقيل . وقال الرجل : رباه ! .

ورفع يديه لستر وجهه وقد الم به الفزع ثم أردف : لا ، لا ما هذا الذى خطر ببالك ؟ .

وقال ك مبتسما : ان هيئتك لتبدو مؤيدة لكلامك ، ومع ذلك تعـال .

واشار اليه بالقبعة وجعله يسير امامه . وساله ك وهما في الطريق : ما اسمك ؟.

فقال : بلوك . التـاجر بلوك .

والتفت الرجل القصير بعد هذا التعارف حوله ، ولكن ك لم يدع له فرصة ليقف . وساله ك : هل هذا هو اسمك فعلا ؟ .

فقال الرجل : بكل تاكيد . ولماذا يساورك الشك في هذا ؟

فقال ك : لقد خطر ببالى انه من المحتمل أن يكون لديك من الاسباب ما يجعلك تكتم اسمك .

واحس ك بأنه حر طليق على نحو لا يتأتى للانسان الا عندما يكون فى الغربة يتحـــدث مع أناس هم دونه ، فيخفى ما يمسه شخصيا ، ويتكلم عن اهتمامات الآخرين ومصالحهم ببساطة ، فيرفعهم بهذا أمامه ويدعهم يسقطون ان شاء . وظل ك واقفا أمام باب حجرة مكتب المحامى ، ثم فتحه وقال للتاجر الذى كان يسير خاضعا مطيعا : لاتتعجل ! انر هنا !

وكان ك قد فكر أن لينى ربما تكون قد اختفت هنا ، ولهذا حمل التاجر على أن يفتش فى كل الأركان ، ولكن الحجرة كانت خالية . فلما كانا أمام صورة القاضي ، رد ك التاجر عنها ممسكا اياه من حمالة البنطلون . ثم سأله رافعا اصبع السبابة الى اعلى:

ــ هل تعرف هذا ؟ .

فرفع التاجر الشمعة وتطلع فى تعامش اليها وقال : هــذا قاض .

وسأل ك : هل هو قاض عظيم الدرجة ؟ .

ثم وقف الى جانب ليلاحظ الانطباع الذى تحدثه الصورة على التــاجر .

كان التاجر يتطلع الى اللوحة العالية متعجبا . وقال : انه قاض رفيـــع الدرجة .

فقال ك : لست على علم واسع بالأحوال فى المحكمة ، انه اوطى قضاة التحقيق الواطين جميعا .

فقال التاجر وهو يهبط بالشمعة : الآن تذكرت ، لقد سمعت هذا مرة من قبل .

فصاح ك قائلا : طبعا ! نسيت ! لابد انك فعلا قد سمعت هذا ! .

فسأل التاجر ك : ولكن لماذا ، لماذا ؟ .

بينما تحرك الى الباب ، وك يدافعه الى هناك بيديه .. فلما بلغا الممـر الخارجى قال ك : انك تعـرف بلا شك اين توارت لينى ؟ ..

فقال التاجر : توارت ؟ . لا بل انها لابد فى المطبخ مشغولة باعداد الحساء للمحامى .

وسأل ك : ولماذا لم تقل هذا على الفور ؟ .

فأجاب التاجر وقد بدا كانه اضطرب نتيجة للأوامر المتناقضة:

ـ كنت أريد ان آخذك الى هناك . ولكنك استرجعتنى .

فقال ك : يبدو أنك تظن أنك ذكى ، خذنى اليها !

لم يكن ك قد دخل المطبخ من قبل قط . كان المطبخ كبيـرا كبرا مدهشا مؤثثا تأثيثا عظيما . كان الفرن وحده كبيرا ، يزيد فى حجمه على ثلاثة أفران من الحجم المألوف ، أما الأشـــياء الأخرى ، فلم تتضح تفاصيلها فى الحال ، لأن المطبخ كان يضاء بمصباح صغير معلق على المدخل . وكانت لينى تقف الى الفرن وهى مرتدية مريلة بيضاء كالمعتاد ، وكانت تفرغ بيضا فى وعـاء موضوع على موعد كحولى .

وقالت لينى وهى تنظر الى الجانب : مساء الخير ، يا يوزف .

وأشار ك بيده الى كرسى وثير الى جانب ليجلس عليه التـاجر فأطاع التاجر وجلس .

وقال ك : مساء الخير .

ثم ذهب خلف لينى قريبا منها و ومال على كتفها وسألها :

ـ من هذا ؟

فأحاطت ليني ك بذراعها بينما راحت تقلب بالأخرى الحساء .
ثم شدت ك امامها وقالت له : انه انسان يستحق العطف ، انه تاجر مسكين ، اسمه بلوك . انظر اليه .

ونظر الاثنان اليه خلفهما . كان التاجر يجلس على الكرسي الوثير ، الذى اشار اليه ك ، وكان قد نفث الشمعة التى لم يعد لنورها الآن ضرورة فاطفأها وضغط باصبعين الفتيل ليمنع الدخان .

وقال ك لليني وهو يعيد بيده راسها لتنظر ناحية الفرن : لقد كنت تلبسين القميص ولا شيء فوقه !

فصمتت .

فسأل ك : هل هو عشيقك ؟.

وكانت توشك أن تمد يدها الى الاناء وتمسكه فامسك ك بيديها وقال : اجيبى ، هه !

فقالت له : تعال الى حجرة المكتب ، وساشرح لك كل شيء .

وتعلقت ليني به وارادت أن تقبله ، وقالت : يوزف !

ونظرت اليه متوسلة صريحة معا مركزة بصرها فى عينيه :

ـ لا يمكن أن تكون بك غيرة من السيد بلوك ! .

ثم قالت وهى تلتفت الى التاجر : رودى ، ساعدنى ، انك ترى اننى اتعرض للشك ، اترك الشمعة الآن .

وربما فكر مفكر انه لم يكن ملتفتا الى ما يجرى . لا ، لقد كان عليما بكل شيء . وقال بقليل من حضور البديهة : لا اعرف سببا لغيرتك !.

وقال ك : وأنا أيضا فى الحقيقة لا أعرف .

ونظر الى التاجر مبتسما . وضحكت لينى بصوت مرتفع ، وانتهزت فرصة عدم تنبه ك اليها ، فتعلقت بذراعه وهمست اليه : دعه الآن ، فأنت ترى أى انسان هو ! ولقد اهتممت به قليلا ، لأنه عميل مهم من عملاء المحامى ، لا لسبب آخر . اما انت فما بالك ؟ هل تريد أن تتحدث اليوم مع المحامى ؟ انه اليوم مريض جدا ، ولكنى مستعدة لابلاغه بقدومك ، ان شئت . عنى ان تقضى الليلة معى ، بكل تأكيد . ولقد طالت غيبتك عنا ، حتى أن المحامى نفسه سأل عنك . ما ينبغى أن تهمل القضية . كذلك لدى انا اشياء مختلفة علمت بها ، وأريد أن انقلها اليك . والآن اخلع معطفك اولا .

وعاونته على خلع المعطف ، وأخذت منه القبعة وجرت بالأشياء الى الحجرة الأمامية لتعلقها ، ثم جرت راجعة لتنظر الى الحساء . وقالت : هل أعلن المحامى بحضورك أولا أو أحمل اليه الحساء اولا ؟ .

فقال ك : اعلنيه بحضورى اولا .

كان ك غاضبا لأنه كان قد نوى أصلا أن يناقش موضوعه ، وبخاصة مسألة تنحية المحامى الحساسة ، مع لينى مناقشة دقيقة ، ولكن وجود التاجر أفسد عليه رغبته وعكر عليه . وكان ك الآن يعتبر قضيته من الأهمية بحيث لا يصح ان يتدخل فيها التاجر الصغير تدخلا قد يكون له أثره الحاسم ، ولهذا نادى على لينى ، التى كانت قد وصلت الى منتصف الطريق ، لكى تعود . وقال : احملى اليه الحساء أولا حتى يقوى بها على المحادثة معى ، ولاشك أنه بحاجة الى ذلك .

وقال التاجر بصوت خفيض وعلى سبيل تقرير الواقع وهو ما يزال جالسا في ركنه : انت أيضا عميل من عملاء المحامى .

ولكن عبارته لم تلق الترحيب . فقال ك : ماذا يعنيك هذا ؟

وقالت ليني : اسكت !

ثم قالت موجهة الكلام الى ك : اذن فأنا أحمل اليه الحساء أولا .

وصبت الحساء في صحن . ثم قالت : ولكن في هذه الحالة يخشى أن يغلبه النعاس بعد قليل ، فهو ينام بعد الأكل حالا .

فقال ك : ولكن ما سأقوله له سيجعله يظل يقظا .

كان يريد أن يوحي بأنه ينوى على مناقشة موضوع هام مع المحامي ، وكان يريد أن تسأله ليني عنه فيرجوها النصيحة عند ذاك . ولكنها اكتفت بتنفيذ الأوامر تنفيذا دقيقا . فلما مرت ليني على ك بالحساء في طريقها الى المحامي ، لمسته برقة وهمست اليه : عندما يفرغ من الحساء سأعلنه بمجيئك على الفور ، حتى تعود الى إلى أقرب وقت ممكن .

فقال ك : اذهبي الآن ! اذهبي !

فقالت ليني : كن أكثر لطفا معي !

والتفتت خلفها وهي تحمل الحساء مرة أخرى وهي بالباب .

ولاحقها ك بنظره . كان ك قد قرر نهائيا أن ينحي المحامي عن قضيته ، وربما كان من الخير انه لم يتباحث مع ليني في الموضوع من قبل ، فلم يكن لها الا القليل من الاحاطة بالأمر في مجموعه ؛ ولا شك أنها كانت ستنصحه بعدم تنحية المحامي ، ولعلها كانت ستتمكن فعلا من الحيلولة بين ك وبين انذار المحامي بهذا ، مما كان سيصبح من شأنه أن يبقى ك في الشك والحيرة ، ولا ريب أن ك كان مع ذلك سينتهي الى تنفيذ ما أزمع عليه بعد

مدة ما ، لأن هذا القرار الذى اتخذه كان يسيطر عليه سيطرة شديدة . لهذا فكلما عجل بالتنفيذ ، كلما درا مزيدا من الخطر . وربما كان التاجر يعرف شيئا فى هذا الموضوع .

والتفت ك حواليه ، وما كاد التاجر يلمح ذلك ، حتى هم بالنهوض . وقال ك له لا حاجة بك الى النهوض .

وجذب كرسيا بجانبه . وسأله ك : هل أنت عميل قديم عند المحامى ؟ .

فقال التاجر : نعم ، عميل قديم جدا .

فسأل ك : منذ كم سنة يقوم بالوكالة عنك ؟ .

فقال التاجر : لست أفهم مقصدك ، ولكن المحامى يقوم بالوكالة عنى فى المسائل القانونية الخاصة بالتجارة ــ فأنا تاجر فى الحبوب ــ منذ توليت المتجر ، أى منذ عشرين سنة تقريبا ، أما فى قضيتى الخاصة ، التى ، أظن انك تشير اليها ، فهو وكيلى منذ البداية ، أى منذ أكثر من خمس سنين ، نعم أكثر من خمس سنين .

وبينما أضاف العبارة الأخيرة ، أخرج حافظة قديمة وقال : لقد سجلت هنا كل شىء . ان شئت قلت لك التواريخ بالضبط . فما أصعب أن يحفظ الانسان فى ذاكرته كل شىء . والظاهر أن قضيتى قد بدأت منذ مدة أطول بكثير ، فقد بدأت بعد وفاة زوجتى ، أى منذ أكثر من خمس سنين ونصف .

واقترب ك منه . وسأله : المحامى اذن يقبل قضايا عادية ؟ .

فقد لاح لـ ك هذا الربط بين المحاكم وبين العلوم القانونية باعثا على الهدوء والاطمئنان تماما . وقال التاجر : بكل تأكيد .

ثم همس الى ك قائلا : ويقال انه فى هذه المسائل القانونية امهر منه فى غيرها .

ويبدو أن التاجر ندم على ما قال ، فقد وضع يده على كتف ك وقال : أرجوك ، لا تخوننى ! .

وربت ك على فخذه مهدئا وقال : لا ، أنا لست خائنا ! .

فقال التاجر : انه ليثأر وانه ليحب الثأر .

فقال ك : انه لن يفعل بكل تأكيد شيئا ضد عميل مخلص مثلك .

فقال التاجر : آه ، بل انه يفعل ، انه عندما يثور لا يفرق بين هذا وذاك ، على أننى لست مخلصا له بمعنى الكلمة .

فسأل ك : ولم لا .

وسأل التاجر ك مرتابا : هل أبوح لك بالسر ؟.

فقال ك : أعتقد أن لك أن تفعل هذا ! .

فقال التاجر : سأحكى لك شيئا من السر ، ولكن لابد أن تقول لى أنت أيضا سرا من أسرارك حتى نتماسك كلانا جميعا أمام المحامى .

فقال ك : أنت عظيم الحيطة ، وسأقول لك عندما تفرغ سرا سيهدئك تماما . فما أمر عدم اخلاصك للمحامى ؟.

فقال التاجر مترددا وبلهجة توشك أن تكون لهجة من يعترف بشىء مخل بالشرف : لقد وكلت عنى محامين آخرين غيره ! .

فقال ك وقد أصابه شىء من الخيبة : ليس هذا شيئا خطيرا الى هذا الحد ! .

فقال التاجر الذى ظل بعد الاعتراف لايستطيع التنفس الا بصعوبة : بل هو شيء جد خطير هنا .

واوحت اليه ملاحظة ك بمزيد من الثقة ، فأردف يقول : ليس مسموحا بهذا . وليس مسموحا خاصة بأن يلجأ الانسان بالاضافة الى محاميه ، الى محامين من الرعاع أصحاب الأفانين والأحابيل وهذا هو بالضبط ما صنعته . لقد اتخذت بالاضافة اليه خمسة من هؤلاء المحامين .

وصاح ك : خمسة !.

كان الرقم قد أثار دهشته ، وعاد يقول : خمسة علاوة على محاميك ؟ .

وأومأ المحامى برأسه : وأنا حاليا أتفاوض مع محام سادس !.

وسأل ك : وما حاجتك الى هذا العدد الكبير من المحامين ؟ .

فقال التاجر : أنا محتاج اليهم جميعا .

وسأل ك : الا تريد أن تفسر لى هذا ؟ .

فقال التاجر : على الرحب والسعة . انا أولا وقبل كل شيء آخر لا أريد ان أخسر قضيتى ، هذا شيء بديهى . ونتيجة لهذا لايصح ان اصرف النظر عن شيء يفيدنى . حتى اذا كان الأمل فى فائدة فى حالة بعينها ضئيلا جدا ، فلا ينبغى احتقاره ونبذه . وهكذا وضعت كل ما أملك فى خدمة هذه القضية . وهكذا سحبت مثلا كل الأموال من متجرى ، وكانت مكاتب متجرى فيما مضى تشغل دورا بأكمله تقريبا ، أما اليوم فاكتفى بحجرة واحدة فى البيت الخلفى أعمل فيها ومعى صبى واحد . وليس السبب فى هذا التدهور هو سحب الأموال فحسب ، بل وسحب العاملين كذلك . فالانسان اذا أراد أن يهتم بقضيته ، لا يستطيع أن يهتم بما عداها الا قليلا .

فسأله ك : هل تعمل شيئا اذن فى المحكمة شخصيا ؟ هذا هو بالضبط الموضوع الذى أحب أن أعرف عنه شيئا .

فقال التاجر : لا أستطيع أن أقول لك فى هذا الا القليل . فى بداية الأمر جربت القيام بعمل شيء شخصيا ، ولكنى ما لبثت أن انصرفت . فهذا من شأنه أن ينهك القوة ، ولا يأتى بنجاح كبير كذلك تبين لى أنه من المحال أن يعمل الانسان ويتباحث هناك ، على الأقل بالنسبة لى . فمجرد الجلوس والانتظار هناك عبارة عن جهد كبير . وأنت تعرف شخصيا الهواء الثقيل فى مكاتب الديوان .

وسأل ك . وكيف علمت اننى كنت هناك ؟ .

فقال التاجر : كنت فى حجرة الانتظار عندما مررت .

وصاح ك مأخوذا وقد نسي تماما أنه كان من قبل يعتبر منظر التاجر مضحكا .

ـ يا المصادفة . لقد رأيتنى أذن . وكنت فى حجرة الانتظار عندما مررت . وأنا لم أمر هناك الا مرة واحدة .

فقال التاجر : ليست هذه مصادفة كبيرة . فأنا هناك كل يوم تقريبا .

فقال ك : والظاهر أنه سيكون على أن أذهب الى هناك كثيرا . ولن أحظى باستقبال جليل كالاستقبال الذى حظيت به فى تلك المرة ، عندما نهض الكل لى . والظاهر انهم ظنونى أحد القضاة .

فقال التاجر : لا ! لقد كنا فى ذلك اليوم نحيي خادم المحكمة . ولقد كنا نعلم أنك متهم . فهذه أخبار تنتشر بسرعة كبيرة .

وقال ك : كنتم تعلمون هذا ، ربما بدا لكم مسلكى متعجرفا . ألم تتحدثوا عن هذا ؟

فقال التاجر : لا ، على العكس . ولكن هذه سخافات ! .

وسأل ك : وما هى هذه السخافات ؟ .

فقال التاجر مغتاظا : يبدو انك لاتعرف الناس هناك ، ولهذا ربما فهمت الأمر على وجه غير صحيح . وينبغى أن تعرف أن هناك أشياء كثيرة تعرض الكلام فى مثل هذه القضية وأن العقل لا يطيق فهمها ، فالانسان يكون متعبا ، مشتت الفكر ، ولهذا يلجأ الانسان بدلا من العقل ، الى الخرافة . وأنا أتكلم عن الآخرين ، ولست أفضل منهم . من قبيل الخرافة مثلا أن الكثيرين يعتقدون انه من الممكن التنبؤ بنهاية القضية من النظر الى وجه المتهم وخاصة الى شفتيه . ولقد أكد هؤلاء أنك ، استنتاجا من شفتيك ، ستدان عما قريب بكل تأكيد . وأنا أكرر أن هذه خرافة مضحكة ، كثيرا ما نقضتها الوقائع تماما ، ولكن ما دام الانسان يعيش فى ذلك المجتمع ، فمن الصعب أن يبتعد عن مثل هذه الآراء . تصور مدى قوة هذه الخرافة ! لقد تكلمت فى ذلك اليوم مع أحد المتهمين ، أليس كذلك ؟ ولم يستطع ان يجيب عليك . وهناك بطبيعة الحال أسباب كثيرة للاضطراب والحيرة ، ولكن أحد هذه الأسباب كان تطلع الناس الى شفتيك . فقد حكى هذا الرجل فيما بعد ، أنه رأى على شفتيك أيضا علامة أعتقد أنها تدل على ادانته هو أيضا .

وسأل ك : شفتاى أنا ؟

وأخرج من جيبه مرآة صغيرة وتطلع فيها الى وجهه . ثم قال : ولكننى لا أستطيع أن أتبين فى شفتاى شيئا خاصا . وأنت ؟

فقال التاجر : ولا أنا ! على الاطلاق !

فصاح ك : ما أشد تعلق هؤلاء الناس بالخرافات ! .

فقال التاجر : ألم أقل لك هذا أنا بنفسي ؟

وقال ك : هل تختلطون كثيرا وتتبادلون الآراء ؟ لقد انتحيت حتى الآن جانبا .

فقال التاجر : انهم في المعتاد لا يختلطون بعضهم بالبعض ، وليس الاختلاط ممكنا فعددهم كثير ، وليست هناك اهتمامات مشتركة الا قليلا . واذا حدث وظهر في مجموعة اعتقاد بأن هناك مصلحة عامة فما أسرع ما يتأكد مافيه من وهم وخطأ . وليس هناك شيء يمكن تقريره بصورة جماعية حيال المحكمة لأن كل حالة تبحث على حدة ، فالمحكمة هي أشد المحاكم تدقيقا . لا يمكن اذن الوصول الى شيء جماعيا ، ولكن في استطاعة الفرد أن يصل أحيانا في السر الى شيء. وعندما يتحقق له الوصول اليه، يعرف به الآخرون. وليس هناك من يعلم كيف جرى . ليس هناك اذن عنصر مشاركة، من حين لآخر يتلاقى الناس معا في حجرات الانتظار ، ولكن التحادث هناك قليل . والآراء القائمة على الخرافة ترجع الى زمن قديم وهي تتكاثر شكليا من تلقاء ذاتها .

وقال ك : لقد رأيت الناس في حجرة الانتظار هناك ، ولاح لي انتظارهم عاريا عن الفائدة .

فقال التاجر : لا ، ليس الانتظار عديم الفائدة . الشيء المجرد من الفائدة هو التدخل في القضية شخصيا . ولقد قلت لك أنني أوكل بالاضافة الى هذا المحامي خمسة آخرين . وقد يعتقد الانسان ــ وأنا شخصيا أول من ظن ذلك ــ أنه في الامكان ترك القضية لهم كلية . ولكن هذا هو عين الخطأ . لا يمكنني أن أترك لهم القضية على كثرتهم . لعلك لا تفهم هذا ؟

فقال ك : لا — ووضع يده على يد التاجر مهدئا ، حتى يحول بينه وبين المبالغة فى الاسراع فى الكلام — أرجوك ان تتكلم أبطأ قليلا ، فهذه أمور مهمة جدا بالنسبة الى ، ولست أستطيع متابعتك كما ينبغى .

فقال التاجر : حسنا ، من الخير انك ذكرتنى ، فأنت جديد وانت صغير . فقضيتك بدات منذ نصف عام ، أليس كذلك ؟ نعم ، لقد سمعت بذلك . ان قضيتك قضية حديثة جدا ! اما انا فكم مرت هذه الأفكار برأسي حتى أصبحت اكثر الأفكار فى الدنيا بداهة !

وسأل ك : لعلك مسرور بأن قضيتك قد تقدمت الى هذا النحو ؟ .

ولم يكن ك يريد أن يسأل بالضبط عن مدى تقدم قضية التاجر وعن الحال التى وصلت اليها أموره . وكذلك لم يتلق اجابة واضحة .

فقد قال التاجر وقد خفض رأسه : نعم ، لقد دحرجت قضيتى الى امام خمسة أعوام ! وليس هذا بالجهد الهين ! .

وصمت هنيهة . وأرهف ك السمع عله أن يسمع لينى تقترب. وكان من ناحية لا يريد أن يأتى ، لأنه كان يريد أن يسأل عن كثير من الأشياء ولم يكن يريد أن يتعرض للينى فى أثناء هذا الحديث القائم على الثقة مع التاجر ، ولكنه كان من ناحية أخرى غاضبا لأنها برغم وجوده قد بقيت عند المحامى مدة أطول مما يتطلب الحساء .

وعاد التاجر الى الحديث وعظم انتباه ك : اننى أتذكر تماما الوقت الذى كانت قضيتى فيه فى عمر قضيتك الآن . لم أكن

فى ذلك الوقت اعتمد الا هذا المحامى . ولم اكن راضيا عنه كل الرضا .

وفكر ك انه على وشك معرفة كل شيء ، وهز رأسه بهمة وكأنه يستطيع بهذا أن يشجع التاجر على قول كل ما يستحق انه يعلمه . واستأنف التاجر : لم تكن قضيتى تتقدم . كانت التحقيقات تجرى ، وكنت أذهب الى كل تحقيق ، واجمع المادة ، واضع كل سجلاتى ودفاترى التجارية لدى المحكمة ، وهو شيء علمت فيما بعد ، انه لم تكن له ضرورة ، وكنت أجرى الى المحامى واقدم مذكرات مختلفة .

وسأل ك : تقول مذكرات مختلفة ؟

فقال التاجر : بكل تأكيد !

فقال ك : هذا شيء يهمنى جدا . فالمحامى لا يزال يعد المذكرة الأولى . انه حتى الآن لم يفعل شيئا . هأنذا اتبين انه يهملنى بشكل فاضح .

وقال التاجر : أما أن المذكرة لم تنته بعد ، فشيء يمكن ان يكون له أسباب صحيحة مختلفة . وقد تبينت على أية حال فيما بعد ان المذكرات كانت فى حالتى عديمة القيمة تماما . ولقد تمكنت ذات مرة من قراءة احدى المذكرات ، تفضل على بذلك احد موظفى المحكمة ، فوجدتها تتسم بالعلمائية ، ولكنها كانت بلا مضمون فى حقيقتها واصلها . كان فيها كثير من العبارات اللاتينية التى لم أفهمها ، ثم صفحات بأكملها ابتهالات عامة الى المحكمة ، ثم الوان من التملق الى بعض الموظفين فرادى ، لم يذكر اسماءهم صراحة ، ولكن العليم كان يستطيع تخمينها ، ثم مدح ذاتى للمحامى وتذلل أمام المحكمة كأنه تذلل الكلاب ، ثم فى النهاية

بحوث فى حالات قانونية من العصور القديمة يرى أنها شبيهة بحالتى . كانت تلك البحوث ، على قدر فهمى وتقديرى ، متقنة . ولست أريد بكلامى هذا كله ، أن أكون حكما على عمل المحامى ، هذا بالاضافة الى أن المذكرة التى أطلعت عليها كانت مذكرة واحدة من بين مذكرات عديدة ، ولكن الذى تبينته والذى أريد أن أقوله الآن ، هو أن قضيتى لم تكن فى ذلك الوقت تحقق تقدما .

وسأل ك : وأى تقدم كنت تريد له أن يتحقق ؟

وقال التاجر مبتسما : أنت تسأل سؤالا معقولا ، فالانسان لا يستطيع أن يرى فى هذه القضايا تقدما الا فيما ندر . ولكنى لم أكن أعرف هذا آنذاك . وأنا تاجر ، ولقد كنت فيما مضى أتصف بصفات التجار أكثر من الآن ، كنت أريد أن أصل الى ضروب من التقدم الملموس ، أن أصل الى أن يتجه الموضوع فى مجموعه الى النهاية أو أن يتخذ اتجاها صاعدا منتظما على الأقل . لم يحدث هذا ، وجرت بدلا منه استجوابات فقط ، كان مضمونها جميعها واحد . كان سعاة المحكمة يأتون أكثر من مرة أسبوعيا الى متجرى والى مسكنى أو يقابلونى على أى نحو آخر . كان هذا من شأنه أن يقلق راحتى بطبيعة الحال (ولقد تحسنت الحال اليوم فيما يختص بهذا على الأقل ، فهم يتصلون تليفونيا ، والاتصال التليفونى اقلاقة أقل بكثير) وبدأت الاشاعات تنتشر عن قضيتى بين أصدقائى التجار وخاصة بين أقربائى ، وجاء الضرر من كل ناحية ، ولم يكن هناك أقل دليل على أن الجلسة الأولى قرب موعدها . وهكذا ذهبت الى المحامى وشكوت له ، فقدم الى الشروح المطولة ، ولكنه رفض رفضا باتا أن يفعل شيئا مما يجول بخاطرى ، وكان رأيه أن ليس هناك من يستطيع أن يفعل شيئا خاصا باجراءات القضية ، ولو أنه الح فى مذكرة على التعجيل بعقد الجلسات ـ كما كنت أريد ـ لكان بهذا يأتى بمسلك

فظيع لم يعهده أحد من قبل ، ولأدى هذا الى الاضرار به وبى .
فقلت فى نفسى : هذا الذى لا يريد هذا المحامى او لا يستطيع فعله ، هناك من يريد ومن يستطيع فعله ، وبحثت عن محام آخر .
وأريد أن أسبق التسلسل واقول : انه لم يكن هنا بين المحامين من طلب من المحكمة تحديد موعد الجلسة الرئيسية أو من بلغ ذلك ، فالحقيقة ان هذا - مع تحفظ سأتحدث عنه فيما بعد - أمر محال ، وأن المحامين لم يخدعوا فيما قالوا . على اننى لم أندم لالتجائى الى محامين آخرين . ولعلك قد سمعت من الدكتور هولد شيئا عن المحامين الرعاع أصحاب الأفانين والأحاييل ، واقرب الظن انه صورهم لك فى صورة مهينة ، والحقيقة أنهم ليسوا كذلك . وهو عندما يتحدث عنهم ويقارن بينه وزملاءه وبينهم يرتكب خطأ صغيرا ، أحب ان الفت نظرك بصفة ثانوية جانبية اليه . انه يسمى المحامين الذين هم من طبقته على سبيل التفريق « كبار المحامين » . وهذا خطأ ، من الممكن بطبيعة الحال أن يسمى كل واحد نفسه « كبير » ان حلا له هذا . ولكن الفيصل فى هذه الحالة هو ما جرى عليه العرف فى المحكمة . يجرى هذا العرف على أنه هناك بالاضافة الى رعاع المحامين أصحاب الافانين والأحاييل ، كبار المحامين وصغار المحامين . وهذا المحامى ورفاقه ليسوا الا صغار المحامين ، أما كبار المحامين ، وأنا لم ارهم فى حياتى قط ، ولكن علمت بهم سماعا ، فمرتبتهم أعلى من مرتبة صغار المحامين بشكل لا سبيل الى مقارنته بعلو صغار المحامين عن المحامين الرعاع الذين ينصب الاحتقار عليهم .

وسأل ك : لقد تكلمت عن كبار المحامين ؟ فمن هؤلاء اذن ؟ وكيف السبيل للوصول اليهم ؟

فقال التاجر : اذن فأنت لم تسمع بهم من قبل . وليس هناك منهم واحد تقريبا ، اذا سمع بهم لا يحلم بهم ردحا طويلا .

فلا تنمو الغرور وتنساق الى موضوعهم . وأنا لا أعرف من هم كبار المحامين ، والأرجح أن الانسان لا يستطيع الوصول اليهم اطلاقا . ولست أعرف حالة واحدة ، يمكن ان نقول عنها بتأكيد تام ، أن كبـار المحامين تدخلوا فيهـا . وهم ، على ما علمت ، يدافعون عن البعض ، ولكن الانسان لايستطيع ان يحملهم بارادته على قبول الدفاع عنه ، انهم يدافعون عمن يريدون هم الدفـاع عنه . والقضية التى يهتمون بها ، لابد ان تكون قضية تجاوزت حدود المحكمة الواطئة . والأفضل على اية حال الا يفكر الانسان فيهم ، والا تبين الانسان أن أحاديث المحامين الآخرين ونصائحهم ومساعداتهم مقرفة تافهة الى أقصى حد ، وقد علمت شخصيا أن الانسان فى هذه الحالة يفضل أن ينبذ كل شىء وأن يمدد فى فراشه بالبيت وأن يرفض الاستماع الى أى شىء بعد ذلك . وان الانسان اذا فعل هذا ، انما يرتكب أكبر حماقة ، فان الانسان لن يجد الراحة فى الفراش طويلا .

فسألك : اذن فأنت لم تفكر آنذاك فى كبار المحامين ؟

فقال التاجر وهو يبتسم من جديد : لم أفكر طويلا ، وان كان الانسان للأسف لا يستطيع أن ينساهم تماما ، والليل خاصـة انسب الاوقات لمثل هذه الأفكار . ولكنى كنت فى ذلك الوقت أريد النجاح العاجل ، فذهبت الى المحامين الرعاع .

وصاحت ليني وقـد عادت بصحن الحسـاء ووقفت فى الباب :

ـ ما أعجب جلوسكما معا !

كانا فى الحقيقة يجلسان متلاصقين ، حتى أنهما اذا تحـرك أحدهما أقل حركة اصطدمت رأساهما ، وقد اضطر التاجر ،

الذى كان علاوة على قصر قامته يحنى ظهره ، اضطر الى أن ينحنى انحناء شديدا ان هو أراد أن يسمع كل شيء .

وصاح ك فى لينى ليصدها : لحظة من فضلك !

وانتفضت من الانفعال يده التى كان لايزال يضعها على يد التاجر . وقال التاجر موجها الكلام الى لينى : انه يريد أن أحكى له عن قضيتى !

فقالت لينى له : احك له ! .

وتكلمت لينى مع التاجر بلطف ولكن بشيء من التعالى . ولم يعجب هذا ك . فقد تبين أن الرجل له قيمة وأن له على الأقل خبرات كان يحسن روايتها . والظاهر أن لينى كانت تخطىء تقديره .

ونظر ك غاضبا الى لينى وهى تأخذ من التاجر الشمعة التى كان يمسكها طول الوقت ، ثم وهى تمسح يده بمريلتها ، وتركع بجواره لتكحت شيئا من الشمع كان قد سال من الشمعة على بنطلونه .

وقال ك وهو يدفع يد لينى بعيدا دون ما ملاحظة : كنت تريد أن تحكى لى عن المحامين الرعاع أصحاب الأفانين والأحاييل !

وسألت لينى ك : ماذا تريد ؟

وهوشت ك برفق ثم استمرت فى عملها .

فقال التاجر وهو يمسح بيده على جبينه وكأنه يفكر : نعم ، عن المحامين الرعاع .

وأراد ك أن يعاونه فقال : كنت تقول انك كنت تريد نجاحا

عاجلا ولذلك ذهبت الى المحـــامين الرعاع أصـــحاب الأفانين والأحاييل .

فقال التاجر : بالضبط !

ولم يستمر فى الرواية .

وفكر ك .. لعله لا يريد أن يتكلم أمام لينى فى هذا . وقهر تلهفه على سماع بقية الموضوع الآن ، ولم يلح .

وسأل ك لينى : هل أخبرت المحامى بمقدمى ؟

فقالت : بالطبع ، وهو ينتظرك . دع الآن بلوك ، ويمكنك أن تتكلم معه فيما بعد ، فهو باق هنا .

وكان ك لا يزال مترددا .

وسأل ك التاجر : هل ستبقى هنا ؟

فقد كان يريد أن يسمع اجابة من التاجر نفسه ، ولم يكن يريد أن تتكلم لينى عن التاجر كأنما تتكلم عن غائب ، وكان ك فى هذا اليوم مشحونا بالغضب الغامض من لينى .

وعادت لينى تقول : انه كثيرا ما ينام هنا .

وصاح ك : انه ينام هنا !

كان يعتقد أن التاجر سينتظر أن يعود اليه بعد أن يفرغ من حديثه مع المحامى بسرعة فيخرجان معا ويتباحثان بتعمق دون أن يعكر عليهما أحد . فقالت لينى :

ـ نعم ، فأنا لا أدع كل واحـد يدخل الى المحـــــامى فى الوقت الذى يحـــلو له ، كمـــا أدعك أنت يا يوزف . ويبـــدو انك لا تدهش لأن المحـــامى يستقبلك برغم مرضــــه فى الساعة الحادية عشرة ليلا . انك تعتبر مايقدمه اليك أصـــدقاؤك بديهيـــا

وتسرف فىذلك الاعتبار اسرافا ! ولكن أصدقاءك ، أو على الأقل أنا أفعل ما أفعل من أجلك عن طيب خاطر . وأنا لا أريد من شكر على ذلك الا أن تحبنى !

وفكر ك فى اللحظة الأولى : أن أحبك ؟ !

ثم خطر بباله : نعم ، أنا أحبك .

ومع ذلك فقد قال مهملا كل شىء آخر : انه يستقبلنى ، لأننى عميله ! ولو كانت هناك ضرورة الى مساعدة من غريب ، لكان على الانسان فى كل خطوة أن يلح فىالسؤال ويشكر .

وسألت لينى التاجر : ما أعنفه اليوم !

وفكر ك : أنا الغائب هذه المرة !

وأوشك أن يغتاظ من التاجر الذى سكت على خشونة لينى والذى قال :

ـ والمحامى يستقبله لأسباب أخرى أيضا . فقضيته أكثر اثارة للاهتمام من قضيتى . هذا بالاضافة الى أن قضيته فى بدايتها ، أعنى أنها لم تنته بعد ، مما يجعل المحامى يفضل الاشتغال بها . ولكن الحال ستتغير فيما بعد .

فقالت لينى وهى تنظر الى التاجر : بالضبط ! ما أكثر ثرثرته فى الأسرار !

والتفتت الى ك وقالت له : ما ينبغى عليك أن تصدقه . فهو بقدر ما هو لطيف ، بقدر ما هو ثرثار . وربما كان هذا هو السبب الذى يجعل المحامى لا يحبه . وهو على أية حال لايستقبله الا اذا كان معتدل المزاج . ولقد بذلت الجهد الكثير لأغير هذا الوضع ، ولكن هذا أمر محال . تصور ، اننى أحيانا أعلنه برغبة بلوك فىزيارته، فلا يستقبله الا بعد ثلاثة أيام . واذا حدث

ولم يكن بلوك وقت النداء عليه للزيارة موجودا حيث ينبغى ان يكون موجودا ، ضاعت عليه الزيارة ، وتحتم البدء من جديد فى تحديد موعد لزيارته . ولهذا سمحت لبلوك بأن ينام هنا ، فقد حدث فعلا ان المحامى دق الجرس ليلا وطلبه . وهكذا أصبح بلوك مستعدا حتى أثناء الليل . على أنه قد حدث أيضا ، منذ تبين المحامى أن بلوك يكون دائما موجودا ، أن المحامى ينقض طلبه بلوك للدخول عليه أحيانا ويرفض مقابلته .

وتطلع ك الى التاجر متسائلا ، فأومأ هـذا برأسه ، وقال بنفس الصراحة التى تكلم بها منذ قليل مع ك ، ولكن ربما فى شىء من التشتت بسبب الخجل : نعم ، ان الانسان ليقع بمضى الزمن تحت سيطرة محاميه !

وقالت لينى : انه يتظاهر بالشكوى تظاهرا ، ولكنه يحب ان ينام هنا ، كما اعترف لى شخصيا أكثر من مرة !

وذهبت لينى الى باب صغير ودفعته وسألت ك : هل تريد أن ترى حجرة نومه ؟

وذهب ك الى هناك ونظر وهو واقف على العتبة الى المكان المنخفض المجرد من النوافذ الذى يملأه سرير ضيق عن آخره . كان على من يريد النوم فى هذا السرير أن يتسلق اليه العمدان. ورأى ك ناحية الرأس تجويفا فى الحائط به شمعة ومحبرة وريشة وحزمة من الورق مرتبة ترتيبا دقيقا . . لعلها أوراق قضية. وسأل ك وهو يلتفت الى التاجر : هل تنام فى حجرة الخادمة ؟

فأجاب التاجر : لقد أعدتها لينى لى وهى حجرة لها ميزات كثيرة .

وأطال ك النظر اليه . كان الانطباع الأول الذى تلقاه ك

عن التاجر هو على الأرجح الانطباع الصحيح. حقيقة انه ذو خبرة لأن قضيته قديمة العهد ولكنه دفع ثمن هذه الخبرة غاليا .

وفجأة أحس ك أنه لم يعد يحتمل النظر الى التاجر ، فصاح في ليني : ضعيه في السرير !

ولكن ليني بدا عليها أنها لم تفهم . أما ك فكان يريد أن يذهب الى المحامي ، وينحيه ويتحرر بهذا ليس من المحامي فحسب ، بل ومن ليني ومن التاجر أيضا . وقبل أن يصل الى الباب قال له التاجر بصوت خفيض : يا حضرة الوكيل !

فالتفت ك بوجه عابس . فقال التاجر وقد تمدد ناحية ك متوسلا : لقد نسيت وعدك . لقد وعدتني بأن تفضي الى بسر !

فقال ك : صدقت .

ومر بنظرة عابرة على ليني التي كانت تتطلع اليه باهتمام ، ثم أردف : اذن فانصت ، وان أوشك هذا السر على ألا يكون سرا ، انني ذاهب الآن الى المحامي لأنحيه عن الوكالة عني !

وصاح التاجر : أنه ينحيه !

وقفز من الكرسي وجرى رافعا ذراعيه الى أعلى يلف في المطبخ ويصيح مرارا : انه ينحي المحامي !

وهمت ليني بالهجوم على ك ، ولكن ك اعترض طريقها فلكمته لقاء ذلك بقبضتيها . وجرت وراء ك وهي لاتزال مطبقة يديها ولكن ك كان متقدما مسافة طويلة . فلما لحقت به ليني ، كان قد دخل حجرة المحامي . وأوشك ك على أن يقفل الباب ، ولكن ليني منعت ذلك بقدمها ، وأمسكت بذراع ك وهمت بجره

.. ولكن ك ضغط على معصمها بشدة حتى أضطرها الى تركه وهى تطلق زفرة . ولم تجرؤ لينى على الدخول فى الحجرة فى الحال ، وأغلق ك الباب بالمفتاح .

وقال المحامى فى فراشه : لقد انتظرت مقدمك مدة طويلة . ووضع ورقة كان يقرأها على ضوء شمعة ، وضعها على منضدة الليل الصغيرة ، ولبس نظارة راح يحدق بها فى ك .
وقال ك بدلا من أن يعتذر : سأنصرف بعد قليل !

ولم يحفل المحامى بكلمة ك لأنها لم تكن اعتذارا وقال :

ـ لن أدعك تأتى الى مستقبلا فى هذه الساعة المتأخرة .

فقال ك : وهذا شىء يتفق مع ما نويت عليه .

فنظر اليه المحامى متسائلا ، وقال : اجلس .

فقال ك : سأجلس لأن هذه رغبتك !

وشد كرسيا ناحية منضدة الليل الصغيرة وجلس . وقال المحامى : لقد بدا لى كأنك أغلقت الباب بالمفتاح .

فقال ك : نعم ، بسبب لينى . لم يكن ك ينوى أن يمالىء كائنا من كان . ولكن المحامى سأل : هل عادت الى الحاحها ؟

فسأل ك : الحاحها ؟ .

فقال المحامى : نعم .

وضحك ، واصابته أزمة سعال ، فلما ولت ، عاد الى الضحك ثم سأل : لاشك أنك لاحظت الحاحها ؟

وربت على يد ك التى كان ك قد أسندها وهو مشتت الفكر الى منضدة الليل الصغيرة ، وسحبها الآن بسرعة . فلما صمت ك

قال المحامى :

ـ يبدو انك لا تعقد على هـذا اهميـة كبـيرة ، وهذا خير ، والا ربما كان على أن اعتذر لك . وتلك صفة غريبـة فى لينى ، غفرتها لها منذ زمن طويل ، وما كنت أتحدث فيها لولا انك أغلقت الباب الآن بالمفتاح . وانت أبعد الناس عن أن يكون على أن اشرح لك هذه الصفة الغريبة ، ولـكنك تنظر الى مضطربا ، ولهذا فأنا اشرحها لك .. هذه الصفة تتلخص فى أن لينى تجد ان غالبيـة المتهمين من ذوى الحسن والجمال . فهى تتعلق بالجميع وتحب الجميع ويبدو أن الجميع يحبونها ، وهى أحيانا ، عندما أسمح لها تقص على انباء ذلك لتروح عنى . وانا لا ادهش من الموضوع كله دهشة كالتى تبدو عليك الآن . والحق أن الانسـان اذا كان يحسن الابصار بذلك يجد للمتهم فعلا جمالا فى أغلب الأحيـان . وهذه ظاهرة عجيبة الشأن ، يمكن القول بأنها الى حـد ما من ظواهر العلوم الطبيعية . وليس معنى هذا أن تغيرا معينا واضحا دقيقا يطرأ على الشكل نتيجة الاتهام . فليس الاتهام هنا كالاتهام فى حالة القضايا العادية ، اذ أن أغلب المتهمين يظلون فى معيشتهم العادية ولا تعوقهم القضية ، اذا كانوا يعتمدون على محام جيد يهتم بذلك . ومع ذلك ، فمن كانت له خبرة ، تمكن من التعرف على المتهمين واحدا واحدا حتى ولو كانوا وسط حشد ضخم من الناس . وقد تسأل : كيف ؟ ولـكن اجابتى لن ترضيـك .. السبب هو أن المتهمين هم اجمل الناس جميعا ! ولا يمـكن أن يكون الذنب هو الذى يضفى على الخلقة جمالا ، لأن المتهمين ـ وهنا أتكلم على الأقل بصفتى محامى ـ ليسوا جميعا مذنبـين ، كذلك لا يمكن أن يكون العقاب هو الذى يضفى على الخلقة جمالا من قبل أن يحـل ، لأن المتهمين لن ينـالوا العقاب جميعـا ، ولابد أن يكون السبب هو القضية القائمة ضدهم والتى تكون لاصـقة بهم على نحو ما . ثم ان هناك بين أصـحاب الجمال من يتصفون

بجمال من نوع خاص . ولـكنهم جميعا يمتازون بالجمال حتى هذه الدودة البائسة التى اسمها بلوك !

فلما فرغ المحامى ، كان ك متمالكا نفسه تماما ، بل انه أومأ برأسه عندما قال المحامى كلماته الأخيرة ، وتأكد من رأيه القديم فى المحامى ، ذلك الرأى الذى يتلخص فى ان المحامى يلجأ دائما ـ وفى هذه المرة فعل الشيء نفسه ـ الى الاستطراد فى أحاديث عامة لا علاقة لها بالموضوع ، لـكى يلهيه عن المسألة الرئيسية ، وهى تقرير ما قد فعله من عمل حقيقى فى القضية . ولقد لاحظ المحامى أن ك يقـاومه هذه المرة مقـاومة أكثر شـــدة ، لأنه لاذ بالصمت ، كان يعطى ك امكانية الكلام . فلما ظل ك صـامتا ، سأله : لقد اتيت الى اليوم بنية معينة ؟ .

فقال ك : نعـــم .

وحجز بيده ضوء الشمعة عن عينيه قليلا حتى يرى المحامى على نحو أفضـــل ثم أردف : عقدت العزم على ان أقول لك اننى انحيك منذ اليوم عن الوكالة عنى .

فقال المحامى : هل صحيح ما فهمته ؟ .

ونهض قليلا فى فراشه وسند يده على المخدة . فقـال ك الذى كان يجلس معتدلا وكأنه يتربص : اظن ذلك !

وقال المحامى بعد هنيهة : يمكننا أن نناقش هذه الخطة أيضا .

فقال ك : انها لم تعد الآن خطة .

فقال المحامى : ربما ، ونحن ومع ذلك لا نريد أن نسرف فى التعجل .

استعمل المحامى الضمير « نحن » كأنما كان مصمما على الا يترك ك حرا ، أو على أن يظل على الأقل مستشارا له ، ان لم يكن ك يقبله وكيلا عنه . وقال ك : ليس هناك تعجل .

ثم نهض ووقف وراء كرسيه الوثير ، وأردف : ما قلته لك جاء بعد تفكير طيب ، بل وربما بعد تفكير طويل مسرف فى الطول وقرار نهائى .

فقال المحامى : اذن فاسمح لى بكلمتين .

وأبعد عنه اللحاف وقعد على حافة السرير . كانت ساقاه العاريتان المكسوتان بشعر أبيض ترتعدان من البرد . ورجا ك أن يحمل اليه من الأريكة بطانية . فحملها ك اليه وقال له :

ـ انك تعرض نفسك بدون داع للاصابة بالبرد .

فقال المحامى بينما راح يلف نصف جسمه الأعلى فى اللحاف ويلف ساقيه فى البطانية :

ـ بل هناك داع مهم . عمك صديقى ، وانت أيضا حزت بمضى الوقت على حبى . هذا شىء أعترف لك به بكل صراحة ، ولا أجد فيه ما يدعو الى الخجل .

لم يرحب ك قط بهذا الكلام المؤثر الذى قاله الرجل الشيخ لأنه اضطره الى تفسير مفصل كان يفضل أن يتحاشاه ، ثم ان هذا الكلام أصابه بالحيرة ، كما قرر بصراحة ، وان ظل بعيدا عن أن يجعله يتراجع فى قراره بحال من الأحوال . وقال :

ـ اشكرك على فكرك الودى ، واعترف لك بأنك اهتممت جدا بقضيتى على قدر امكانك وعلى قدر ما لاح لك أنه فى صالحى . أما أنا فقد اقتنعت فى المدة الأخيرة بأن هذا لا يكفى . وانا لن أحاول بطبيعة الحال أن أقنع رجلا له سنك وخبرتك برأيى . واذا كنت قد حاولت أحيانا شيئا من هذا عن غير قصد فأرجو

ان تسامحنى ، ولكن القضية ، كما قلت أنت نفسك ، من الأهمية بمكان ، وانا ارى عن اقتناع أنه من الضرورى أن يحدث فى القضية شيء اقوى مما حدث .

فقال المحامى : أنا أفهم وضعك ، أنت فارغ الصبر !

فقال ك وقد اصابه شيء من الاستفزاز ولم يعد يلتفت كثيرا الى كلامه :

ـ لقد لاحظت عند زيارتى الأولى عندما اتيت اليك مع عمى ، اننى لم أكن مهتما كثيرا بالقضية ، واننى كنت اتناساها تماما ، الا اذا ذكرنى أحدهم بها على نحو شديد نوعا ما ولكن عمى أصر على أن أوكلك فى القضية ، ففعلت ارضاء له . وكنت أتوقع أن تخف القضية عنى أكثر مما كانت ، فالانسان انما يعهد بالوكالة الى محام ، حتى يزحزح عن نفسه ثقل القضية قليلا . ولكن العكس هو الذى حدث . فلم تركبنى هموم عظيمة بسبب القضية الا منذ الوقت الذى نهضت فيه بوكالتى . عندما كنت بمفردى ، لم أكن أقوم بفعل شيء فى القضية ، ولكنى لم أكد أشعر بذلك ، أما الآن فلى وكيل ، ولقد تهيأ كل شيء لكى يحدث تدخل فى القضية وانتظرت دائما وبتوتر متزايد أن يحدث هذا التدخل ، ولكنه لم يحدث . ولقد تلقيت منك معلومات مختلفة عن المحكمة لا أظن أننى كنت سأتلقاها من انسان غيرك . ولكن هذا لا يكفينى مادامت القضية أصبحت الآن تقترب منى على نحو يكتنفها فيه السر المطبق .

كان ك قد دفع الكرسى الوثير الذى كان أمامه ووقف واضعا يديه فى جيبيه معتدل القامة . وقال المحامى بصوت منخفض هادىء :

ـ هناك لحظة معينة لا يحدث فيها ولا بعدها شيء جديد

بمعنى الكلمة . ولكم وقف الكثيرون من أصحاب القضايا وهى فى مراحل شبيهة بالمرحلة التى فيها قضيتك ، وقفة شبيهة بوقفتك امامى وتكلموا كلاما شبيها بكلامك !

فقال ك : اذن فأصحاب القضايا هؤلاء كانوا جميعا على حق مثلى ! وكلامك هذا لا ينقض شيئا مما قلته لك !

فقال المحامى : لم اقصد الى نقض كلامك . ولكننى أردت ان اضيف أننى كنت انتظر منك من حسن التقدير اكثر مما كنت انتظر من الآخرين ، خاصة وأننى اطلعتك على كثير من أمر المحكمة ومن امر نشاطى ، لم أطلع عليه أصحاب القضايا الآخرين . . وهأنذا اتبين أنك مع ذلك لا تولينى قدرا كافيا من الثقة . انك لا تسهل على مهمتى .

ما أكثر تذلل المحامى أمام ك ! لا أعتبار مطلقا لشرف الطبقة وهو فى هذه الناحية على اشد ما يكون حساسية ! ولماذا فعل المحامى هذا ؟ لقد كان على ما يبدو محاميا مثقلا بالعمل . وكان علاوة على ذلك رجلا ثريا ، ولم يكن من الممكن ان يكون شديد الاهتمام لضياع مكسب أو لفقدان عميل ؟! ثم انه كان معتل الصحة ولابد انه كان يود لو يخفف عنه العمل . ومع ذلك فانه يتمسك بـ ك . لماذا ؟ هل السبب هو ارتباط شخصى بالعم ؟ أم هل السبب هو انه يعتبر قضية ك بالفعل قضية غير عادية ويرجو ان يصيب فيها امتيازا ، اما أمام ك واما ـ وهذا احتمال لاينبغى استبعاده بحال من الأحوال ـ أمام اصدقائه فى المحكمة ؟ لم يكن السبب يبدو على وجه المحامى ، على الرغم من أن ك أجهد نفسه فى الحملقة فيه دون اعتبار لشىء . كان من ينظر اليه يوشك ان يقول انه ينتظر ، بوجه تعمد الخمود ، الأثر الذى ستحدثه كلماته . والظاهر انه اسرف فى اعتبار صمت ك شيئا فى صالحه لانه أردف يقول :

ـ ولعلك قد لاحظت ان لى مكتبـــا كبـــيرا ، واننى مع ذلك لا استعين بمن يعيننى . وهذه حال كانت فيمـا مضى مختلفة ، فقد جاء على وقت ، كان بعض شباب القانونيين يعملون فيه عندى ، اما الآن فأنا اعمل بمفردى . ويرتبط هذا الى حد ما بتغيير نشاطى واتجاهى المتزايد الى الاقتصار على القضايا التى من نوع قضيتك ، ويرتبط هذا من ناحية اخرى بالدرس الذى اتعلمه من هذه القضايا والذى يزداد على الدوام عمقا . وقد تبينت انه لا ينبغى لى أن اركن فى هذه الأعمال الى كائن من كان الا اذا كنت أريد أن ارتكب اثما فى حق عميلى وفى حق المهمة التى حملتها . والقرار الذى اتخذته بالنهوض بالعمل كله كان له نتائج طبيعية : فقد رفضت كل طلبات توكيلى كلها تقريبا ولم اقبل الا الحالات التى تهمنى بشكل خاص ـ وهناك من اصناف المحامين كثيرون ، حتى هنا على مقربة منا ، يرتمون على كل فتات أقذف به . كذلك كان من بين هذه النتائج أننى مرضت من فرط المجهود . ولكننى مع ذلك لا أندم على قرارى ، وربما كان ينبغى على أن أرفض من التوكيلات أكثر مما فعلت . أما اهتمامى التام بالقضايا التى قبلتها فشىء تبين انه ضرورى ضرورة لا حد لها ، واكلل بالنجاح تلو النجاح . ولقد وجدت ذات مرة عبارة جميلة فى نص من النصوص تصور الفرق بين الوكالة فى القضايا العادية والوكالة فى هذا اللون من القضايا ، تقول هذه العبارة : هنـا المحامى يقود عميله الى الحكم مستعينا بخيط ، وهناك المحامى يرفع عميله فوق كتفيه على الفور ويحمله دائما فلا ينزله ، الى الحكم والى ما بعد الحكم . والأمر على هذا النحو فعلا ! ولكنه ليس من الصواب تماما أن اقول اننى لم اندم على تحمل هـذا العمل الشديد بحال من الأحوال . فعندما يتعرض جهدى الكبير كما فى حالتك ، الى الانكار التام ، فأنا أوشك على أن أندم عليه .

ولقد ادى كلام المحامى الى فراغ صبر ك اكثر مما ادى الى اقناعه . واعتقد انه يستنتج من لهجة المحامى فى الكلام ، ما سيقوله له ، ان هو لان له وتراجع ، سيعود المحامى الى الحديث عن المنفصات والى الاشارة الى العمل المستمر فى المذكرة والى تحسن مزاج موظفى المحكمة وكذلك الاشارة الى الصعوبات الكبيرة التى تعترض العمل - باختصار سيعود الى تكرار ماعرفه ك ونفر منه ، بقصد خداعه بآمال غير محددة وتعذيبه بتهديدات غير معينة . وهذا شىء ينبغى منعه نهائيا ، ولذلك قال :

- ماذا تنوى أن تفعل اذا احتفظت بالوكالة فى القضية ؟

وانصاع المحامى لهذا السؤال المهين ، واجاب :

- انوى على ان استمر فيما بدأته وفعلته من أجلك .

فقال ك : هذا ما كنت اعلمه ، ولا داعى لمزيد من الكلام !

وقال المحامى : ساقوم بمحاولة أخرى !

وكانت لهجته توحى بأن ما أثار ك ، قد حدث له هو ، لا لـ ك ، واردف يقول :

- يخيل الى ان الذى أغراك بالحكم الخاطىء على مساعدتى القانونية لك بل والحكم الخاطىء على حالتك بصفة عامة ، هو أنك ، على الرغم من أنك متهم ، تلقى المعاملة الطيبة المسرفة فى الطيبة او بعبارة أصح تلقى معاملة متهاونة ، أو يبدو عليها انها متهاونة . ولكن هذه المعاملة لها سببها . فانه من الأفضل فى كثير من الأحيان ان يكون الانسان مكبلا بالأغلال على ان يكون طليقا . ولكنى أريد أن اريك كيف يعامل متهمون آخرون ، فربما تمكنت من أن تتخذ منها عظة .. وساطلب الآن بلوك للحضور الى .. افتح الباب واجلس بجانب منضدة الليل الصغيرة !

فقال ك : حبا وكرامة !

وفعل ما طلبه المحامى ، لانه كان دائما مستعدا ليتعلم .. ولكنه اراد على اية حال أن يتأكد فعاد يسأل المحامى :

ـ ولـكنك قد احطت علما ، بأننى نحيتك عن الوكالة عنى ؟

فقال المحامى : نعم . ولكن فى استطاعتك اليوم أن ترجع فى ذلك .

وعاد المحامى الى الرقود فى السرير ، وسحب اللحاف حتى بلغ ذقنه ثم ادار وجهه الى ناحية الحائط . وهنا دق الجرس .

وفى الوقت نفسه ظهرت لينى ، وحاولت بنظرات سريعة أن تعلم ما حدث . ولاح لها جلوس ك هادئا عند سرير المحامى مدعاة للاطمئنان . وأومأت براسها الى ك مبتسمة ، وظل هو يحدق فيها جامدا .

وقال المحامى : هاتى بلوك ! .

ولكنها بدلا من أن تحضر بلوك ، ذهبت الى الباب ونادت :

ـ يا بلوك . تعال الى المحامى !

وتسللت وراء كرسى ك ، ربما لأن المحامى كان ملتفتا الى الحائط لا يهتم بشىء .

وراحت لينى تضايق ك فمالت على مسند الكرسى ودست يديها ، برفق شديد وحذر ، فى شعره ، وداعبت بهما خديه . واخيرا حاول ك أن يعوقها عن ذلك فأمسك يدها ، فقاومت بعض الوقت ، ثم تركتها له .

كان بلوك قد اتى على الفور بعد سماعه النداء ، ولكنه بقى أمام الباب وبدا عليه أنه كان يفكر هل يدخل ؟ ورفع حاجبيه الى أعلى ومال براسه الى اسفل ، كأنه كان ينصت عل الأمر بالحضور الى المحامى أن يتكرر ! وأوشك ك على أن يحثه على

الدخول ، ولكنه كان قد قرر أن يقطع صلته لا بالمحامى فحسب ، بل وبكل ما فى المسكن هنا نهائيا ، ولذلك ظل ساكنا لا يتحرك . وكذلك لزمت لينى الصمت .

ولاحظ بلوك على الأقل ان أحدا لم يطرده ، فدخل على أطراف اصابعه ، متوتر الوجه ، عاقدا يديه متقلصتين على ظهره . وترك الباب مفتوحا ليخرج منه اذا دعت الضرورة . ولم ينظر بلوك الى ك ، بل ركز بصره على اللحاف العالى الذى توارى المحامى تحته تماما ، خاصة وانه تحرك الى الحائط فأوشك أن يلتصق به . ثم ارتفع صوته سائلا :

ـ هل بلوك هنا ؟

وقد سدد هذا السؤال الى بلوك ، الذى كان قد تاخر مسافة كبيرة ، ضربة أصابته فى صدره ، ثم ضربة أصابته فى ظهره لأنه ترنح ثم اعتدل وركع ركوعا ذليلا وقال :

ـ خدامك !

فقال المحامى : ماذا تريد ؟ انك تأتى فى وقت غير مناسب .

وسأل بلوك موجها السؤال الى نفسه أكثر منه الى المحامى ، ومد ذراعيه الى أمام للدفاع عن نفسه ، وتأهب للجرى : ألم أنادى ؟ .

فقال المحامى : نعم ، لقد نوديت ، ولكنك مع ذلك لم تأت فى وقت غير مناسب !

وسكت فترة ثم أضاف : انك دائما تأتى فى وقت غير مناسب .

ومنذ بدأ المحامى يتكلم ، لم يعد بلوك ينظر إلى السرير ، بل راح يحملق فى مكان ما بركن ، واكتفى بالاستماع ، وكأنما كان منظر المتكلم يخطف البصر فلا قدرة له على احتماله . حتى

الاستماع كان صعبا ، لأن المحامى كان يتكلم الى الحائط بصوت منخفض وبسرعة .

وسأل بلوك : هل تريدون سيادتكم أن انصراف ؟

فقال المحامى : لقد اتيت ! فابق ! .

ولو أطل انسان على المنظر لظن أن المحامى لم يحقق رغبة بلوك ، واظن أنه كان يهدده ربما بالضرب المبرح ، لأن بلوك بدأ يرتعد فعلا .

وقال المحامى : لقد كنت بالأمس عند القاضى الثالث ، صديقى ، وحولت الحديث تدريجيا اليك . اتريد ان تعرف ما قاله ؟

فقال بلوك : نعم ، ارجوك !

فلما لم يجب المحامى على الفور ، أعاد بلوك الرجاء مرة اخرى ، وانحنى أكثر حتى أوشك ان يسجد .

وهنا صرخ فيه ك : ماذا تفعل ؟ .

ولما حاولت لينى أن تحول بينه وبين الصياح ، امسك يدها الثانية . وضغط عليها ضغطا ليس هو ضغط المحب ، فراحت تتأوه مرارا وتحاول أن تسحب منه يديها .

وتلقى بلوك عقابا على صيحة ك ، إفقد سأله المحامى : من محاميك ؟

فقال بلوك : أنتم .

فسأل المحامى : ومن غيرى ؟

فقال بلوك : لا أحد غيركم .

فقال المحامى : اذا كان الأمر كذلك ، فلا تتبع آخر غيرى !

وفهم بلوك كلام المحامى تماما ، ونظر الى ك نظرات غاضبة وهز راسه حياله هزا عنيفا . ولو اراد الانسان ان يترجم حركات بلوك الى كلام ، لكان هذا الكلام شتائم قبيحة ! هذا هو الرجل الذى اراد ك أن يتباحث معه فى قضيته الخاصة تباحث الأصدقاء !

وقال ك وقد رجع بظهره الى ظهر الكرسى : لن اقلقك بعد الآن ! اسجد أو سر على أربع ، أو افعل ما تريد ! فلن أعبأ بهذا بتاتا !

ولكن بلوك كان يعتد بكرامته ، على الأقل حيال ك ، لأنه ذهب اليه ملوحا بقبضتيه وصاح بأعلى صوت تجرأ عليه قرب المحامى :

ـ ليس لك ان تتكلم معى على هذا النحو ! ليس هذا مسموحا به ! لماذا تهيننى ؟ وتفعل ذلك هنا أمام السيد المحامى ، الذى لا يتحملنا ، انت وانا ، الا على أساس الشفقة فقط ؟ أنت لست انسانا أفضل منى ، فأنت متهم مثلى وانت لك قضية مثلما لى قضية . فاذا كنت برغم ذلك سيدا ، فانا كذلك سيد مثلك ، ان لم أكن أكبر واعظم . وانا أريد أن يخاطبنى من يخاطبنى ـ وبخاصة أنت ـ على هذا الاعتبار . أما اذا كنت تعتبر نفسك ممتازا ، لأنه سمح لك بأن تجلس هنا وتنصت ساكنا بينما أنا ، كما تقول ، أسير على اربع ، فانا اذكرك بالحكمة القانونية القديمة : الحركة خير للمتهم من السكون ، لأن من يلزم السكون قد يكون ، دون علم منه ، جالسا فى كفة ميزان وضعت فى كفته الأخرى ذنوبه ! .

لم يقل ك شيئا ، بل راح يتعجب من هذا الانسان المضطرب وينظر اليه بعينين ثابتتين . ما أعجب التغيرات التى طرأت عليه فى الساعة الأخيرة فقط ! هل كانت القضية هى التى ترميه هنا

وهناك وتعميه عن رؤية الصديق ورؤية العدو اين كل منهما ؟ الم ير ان المحامى كان يتعمد اذلاله ، لا لسبب فى هذه المرة ، الا ليزهو إمام ك بسطوته ، وليصل بهذا ربما الى اخضاع ك ؟ فاذا كان بلوك عاجزا عن أن يتبين هذا أو اذا كان يخاف المحامى الى هذا الحد الشديد الذى لا تفيد فيه هذه المعرفة التى يتبينها ، فكيف أمكنه ان يكون من الخبث أو الجراة بحيث غش المحامى وكتم عنه انه يوكل عنه محامين آخرين غيره ؟! وكيف تجرأ على أن يهاجم ك وفى استطاعة ك ان يكشف هذا السر على الفور ؟ بل انه تجرا على اكثر من هذا ، فقد اقترب من إفراش المحامى وبدا هناك يشكو من ك :

ـ يا سيادة المحامى ! هل سمعتم كيف تكلم هذا الرجل معى ؟ ان الانسان ليستطيع أن يعد ساعات عمر قضيته ، وهو مع ذلك يريد ان يعلمنى أنا ، انا الذى اقف فى القضية منذ خمسة أعوام ! بل انه يشتمنى ! انه لا يعرف شيئا ، وانه يشتمنى أنا ، أنا الذى تعلمت بمنتهى الدقة التى سمحت لى بها قواى الواهنة متطلبات اللياقة والواجب وتقاليد المحكمة ! .

فقال المحامى : لا تهتم بأحد ، وافعل ما يبدو لك صوابا ! .

إفقال بلوك : بكل تأكيد .

وكأنه كان يريد أن يمنح نفسه الشجاعة ، ثم سجد قرب السرير ، عندما نظر المحامى اليه نظرة جانبية قصيرة . وقال :

ـ هانذا قد سجدت يا محامى ! .

ولكن المحامى لاذ بالصمت . ومسح بلوك فى حذر على لحاف المحامى باحدى يديه .

وقالت لينى ، فى هذا السكون الذى خيم على المكان ، بينما تخلصت من يدك :

ـ انك تؤلمنى ! دعنى ! سأذهب الى بلوك !.

وذهب الى السرير وجلست على حافته . وفرح بلوك بقدومها اليه فرحا شديدا ، وتوسل اليها باشارات صامتة ولكنها ملحة ، ان تتدخل لصالحه لدى المحامى، والظاهر أنه كان فى مسيس الحاجة الى مالدى المحامى من أخبار ، ولعل الهدف من ذلك أنه كان يريد أن يجعل محاميه الآخرين يستغلونها ، والظاهر أن لينى كانت تعلم طريقة استعطاف المحامى ، فقد أشارت الى يد المحامى ومدت شفتيها تصويرا للقبلة ، وطبع بلوك فى الحال قبلة على يد المحامى ثم كررها ، بناء على توجيه لينى مرتين أخريين ، ولكن المحامى ظل غارقا فى الصمت ، فانحت لينى على المحامى ، وبدأ جمال جسمها واضحا للعيون عند ما تمددت على هذا النحو ، ومسحت على شعره الأبيض الطـــويل ، وهى منعطفة قريبة من وجهه . وبهذا اضطـرته الى الاجابة .

وقال المحامى : انا مترذد فى الحديث اليه بما علمت .

ورأى الناظر اليه كيف أخذ يهز رأسه برفق ، ربما ليزيد من التمتع بضغطة يد لينى . وأنصت بلوك مطأطىء الرأس وكأنه بهذا الانصات يتعدى حدود الحلال . وسألت لينى :

ـ وما السبب فى ترددك ؟

واعتقد ك انه يسمع حوارا تمثيليا تدرب عليه ممثلان وحفظاه ، وأصبحا يكررانه كثيرا ، ولم يكن فيه من جديد الا فى نظر بلوك وحده . وبدلا من أن يجيب المحامى عاد بسأل :

ـ كيف كان مسلكه اليوم ؟

وقبل أن ترد لينى على السؤال بشىء ، نظرت الى بلوك وتأملته

هنيهة وهو يرفع يديه اليها ويلصقهما الواحدة بالأخرى على سبيل التوسل . وأخيرا أومأت برأسها جادة واتجهت الى المحامى .

وقالت : لقد كان هادئا مجدا !

تاجر شيخ ، رجل له لحية طويلة يتوسل الى بنت صغيرة ان تشهد له شهادة فى صالحة ؟! ربما كانت له أسبابه الخفية ، ولكن لم يكن هناك شىء يبرر له موقفه فى أعين الناس الآخرين . ولم يتصور ك كيف أمكن أن يفكر المحامى فى أن هذا المنظر من شأنه أن يجعله يكسب ك اليه . لو أنه كان قد طرد ك من قبل مرة لكان من الممكن أن يصل الى غرضة بهذا المشهد . لقد كان بهذا يوشك على أن يمتهن المشاهد ذاته . هكذا كانت آخرة طريقة المحامى التى لم يتعرض لها ك طويلا لحسن الحظ!كانت آخرتهاأن ينسى العميل الدنيا كلها ويتمنى أن يزحف على طريق الضلال هذه الى نهاية القضية . لم يعد العميل عميلا للمحامى ، بل أصبح كلبا له ! ولو أن المحامى أمره بأن يزحف تحت السرير ، كما يزحف الكلب الى بيته ، وينبح من هناك ، لفعل وهو فرحان ! وكأنما كان مكلفا بأن يسجل في نفسه بدقة كل ما يقال هنا ، ويرفع تقريرا عنه الى هيئة عليا ، فقد كان يسمع بتمعن وتدبر .

وسأل المحامى : ماذا فعل طول اليوم ؟

فقالت لينى : لقد حبسته فى حجرة الخادمة التى يقيم فيها عادة ، حتى لا يعطلنى عن عملى . وكنت من حين لآخر انظر اليه من الطاقة وأرى ماذا كان يفعل . كان يسجد على السرير ، وقد بسط الأوراق التى أعرته اياها على رف الشباك ويقرأ فيها . وقد أحدث هذا انطباعا طيبا فى نفسى . فالشباك ناحية المنور ولا يكاد يعطى ضوءا ولقد تبينت من قيام بلوك رغم ذلك بالقراءة ، تبينت الى أى حد هو مطيع .

وقال المحامى : يسرنى أن أسمع هذا ! وهل قرأ بفهم ؟

كان بلوك أثناء هذا الحديث يحرك شفتيه بلا انقطاع ، وكأنه كان يمثل الاجابات التى كان يرجو أن تقولها لينى .

وقالت لينى : لا أستطيع أن أجيب على هذا السؤال . اجابة محددة . ولكننى على أية حال رأيته يقرأ بتدقيق . فقد ظل اليوم بطوله يقرأ الصفحة ذاتها ويحرك أثناء القراءة اصبعه على السطور . وكنت كلما نظرت اليه وجدته يئن كانما كانت القراءة تتطلب منه مجهودا شاقا . والظاهر أن الأوراق التى أعطيته اياها صـــعبة الفهمة !

فقال المحامى : نعم ! انها صعبة ! ولست أعتقد انه يفهم منها شيئا . ولكن يكفى أن تعطيه فكرة عن الصراع الشاق الذى أقوم به من أجل الدفاع عنه . ومن أجل من أقوم بهذا الصراع الشاق ؟ من أجل ـ من المضحك تقريبا أن انطق بالاسم ـ من أجل بلوك ! وكذلك ينبغى عليه أن يتعلم أن يفهم معنى هذا أيضا ! هل درس بدون انقطاع ؟

وأجابت لينى : بدون انقطاع تقريبا . توقف مرةواحدة ليرجونى أن اقدم اليه ماء ليشرب . فقدمت اليه كوب ماء من خلال الطاقة . وفى الساعة الثامنة أخرجته وأعطيته شيئا يأكله .

وعبر بلوك على ك بنظرة جانبية ، وكانما كانت لينى تحكى عنه هنا كلاما فيه فخار ينبغى أن يؤثر فى ك على النحو نفسه.وبدا على بلوك أنه كان الآن يؤمل خيرا ، فقد كان يتحرك بحرية أكثر ويتزحزح على ركبتيه هنا وهناك . وقد زاد هذا من وضوح تجمده عندما نطق المحامى بالكلمات التالية :

ـ انك تمدحينه ! وهذا من شأنه أن يصعب علي الكلام ! فلم يتكلم القاضي لا عنه ولا عن قضيته بالخير !

وسألت ليني : لم يتكلم بالخير ؟ وكيف يمكن هذا ؟

ونظر بلوك الى ليني متلهفا ، وكأنه كان يعتقد أن لها القدرة على تحويل الكلمات التى نطق بها المحامي وانتهى الى صالحه ٠

فقال المحامي : لم يتكلم بالخير . بل انه امتقع عندما بدأت أتحدث عن بلوك ٠ وقال لى : لا تتحدث عن بلوك ٠

فقلت له : انه عميلى .

فقال لى : انك تترك الناس يستغلونك .

فقلت له : انني لا أعتبر قضيته خاسرة ٠ فكرر عبارته : انك تترك الناس يستغلونك ٠

فقلت : لا أظن أن هذا يحدث ٠ وبلوك مجتهد فى قضيته متابع لها ٠ انه يقيم عندى بدون انقطاع تقريبا حتى يلم بآخر الأخبار أولا بأول ٠ وهذا حماس لا يوجد على الدوام ٠ حقيقة انه شخصيا انسان غير لطيف ، وانه قبيح المسلك ، وقذر ولكنه لا غبار عليه من ناحية القضية ٠ وقد استعملت مع القاضى كلمه لاغبار عليه كمبالغة مقصودة ٠

ولكن القاضى قال : ان بلوك خبيث ! فقد جمع خبرات كثيرة وعرف السبيل الى جرجرة القضية وتعطيلها ٠ ولكن جهله أعظم بكثير من خبثه ٠ وماذا يقول ، لو علم أن قضيته لم تبدأ بعد ؟! لو علم أن الأجراس لم تدق بعد مؤذنه ببداية القضية ؟!

وقال المحامى : الزم الهدوء يا بلوك ٠

قال ذلك لأن بلوك كان قد نهض على ركبتين مهتزتين وبدا عليه كأنه يريد أن يلتمس توضيحا ٠ كانت تلك هى المرة الأولى التى اتجه فيها المحامي الى بلوك بكلمات مفصله ٠ وراح المحامى ينظر بعينين

ضعيفتين تارة الى غير هدف وتارة الى بلوك الذى هوى ببطء الى سجوده الأول .

وقال المحامى : ليس لكلام القاضى أهمية بالنسبة لك . فلا تفزع عند كل كلمة . واذا عدت الى ذلك فلن أكشف لك عن أسرار أخرى ! ان الانسان لا يستطيع أن يبدأ فى جملة، دون أن تنظر اليه وكأن الحكم النهائى يوشك على الصدور ! اخجل من فعل هذا أمام عميلى! ثم انك تزعزع الثقة التى يضعها فى ! ماذا تريد ؟ انك لا تزال على قيد الحياة ، وانك لا تزال فى حماى ! ان خوفك لا معنى له ! لقد قرأت فى موضوع ما أن الحكم النهائى قد يصدر فى بعض الأحوال فجأة من أى فم وفى أى وقت. وهذا، مع تحفظات كثيرة، صحيح ، وصحيح كذلك أن خوفك يقرفنى وأننى أرى فيه تعبيرا عن قلة ثقتك فى . ماذا قلت ؟ لقد أعدت عليك كلمات أحد القضاة . وانت تعلم أن الآراء المختلفة تتراكم حول القضية الى درجة التكدس. وهذا القاضى على سبيل المثال يتصور لبداية القضية وقتا آخر غير الذى أتصوره أنا . وهناك عادة قديمة بأن يدق جرس عندما تصل القضية الى مرحلة معينة ، وهذا القاضى يعتقد أن دق الجرس هذا يعنى بداية القضية ، وأنا لا أستطيع الآن أن أقول لك على كل ما ينقض هذا الراى ، ولو أننى قلته فلن تفهمه ، ويكفيك أن أقول لك ، أن هناك أشياء كثيرة تنقض هذا الرأى !

وتملك بلوك الاضطراب ، وأخذ يداعب بأصابعه الفراء المفروش أمام السرير. وأنساه خوفه من كلام القاضى أحيانا خضوعه الذليل أمام المحامى ، وأصبح لا يفكر الا فى نفسه ، ويقلب كلمات القاضى على الأوجه كلها .

وقالت له لينى بلهجة منذرة وهى تجذبه من ياقته الى أعلى قليلا : اترك الفراء الآن وأنصت الى المحامى !

ملاحظة : لم يكمل كافكا هذا الفصل الى نهايته . . .



الفصل التاسع

في الكنيسة

تلقى ك تكليفا من البنك بأن يصطحب صديقا ايطاليا للبنك من رجال الأعمال ليريه بعض الآثار الفنية ، فهو رجل مهم جـدا بالبنك ، وهو ينزل في هذه المدينة لأول مرة . كان هذا التكليف لو تلقاه ك في وقت آخر ، يعتبر بلا شك تشريفا له ، ولـكنه كان الآن ثقيلا عليه ، فلم يقبـــله الا على مضض ، لأنه كان لا يحفظ مركزه في البنك الا بشق الأنفس . وكانت كل ساعة يبعد فيها ك عن المـكتب تسبب له الحزن والغم . حقيقة انه له يكن يستطيع بحال من الأحوال أن يفيد من وقت العمل كما كان يفعل من قبل ، وكم ضيع الساعات متظاهرا بتأدية عمـــل فعلي ضروري ، وما كانت شدة أحزانه عندما لايكون في المـكتب . كان في هذه الحالة يعتقد أنه يرى نائب المدير ، الذي كان يتربص دائما به ، وهـــو يدخل من حين لآخر حجرته ويجلس الى مـــكتبه ، ويفتش في الأوراق ، ويستقبل عملاء يرتبط ك بهم منذ سنين بصلة توشك أن تكون الصداقة ، فيحرضهم على ك ، ويكتشف ربما أخطاء ، كان ك يراها الآن أثناء العمل تتهدده من ألف ناحية ، ولا يقـــدر على تجنبهـــا .

ولهـــذا كان اذا كلف بمـأمورية أو برحـــلة قصـــيرة ـــ وقد كثرت في الفترة الأخيرة نتيجة للمصادفة البحتة ـــ افترض

انهم يبعدونه هنيهة عن المكتب ، ليفحصوا أعماله أو على الأقل لأنهم يعتقدون أنه من السهل الاستغناء عنه . ولعله كان يستطيع ان يرفض غالبية هذه المهمات دون ما صعوبة ، ولكنه لم يكن يجرؤ على هذا ، لأنه حتى اذا كان تخوفه يعتمد على سبب هو أوهى سبب ، فان رفضه يعنى اعترافا منه بخوفه . ولهذا فانه كان يقبل هذا المهام التى يكلف بها متظاهرا بعدم التأثر ، بل انه كلف ذات مرة برحلة مجهدة لمدة يومين لقضاء شأن من شئون البنك ، وكان مصابا ببرد شديد ، فأخفى أمر ما به ، حتى لا يتعرض لخطر القول بأن جو الخريف المطير ، الذى كان سائدا فى ذلك الوقت ، هو الذى حال بينه وبين الرحلة . ولما عاد من هذه الرحلة كان الصداع العنيف يؤرقه ، وعلم أنه أختير لمرافقة الصديق الايطالى فى اليوم التالى .

وتملكه اغراء شديد بأن يرفض المهمة فى هذه المرة على الاقل ، فقد كانت المهمة التى كلف بها غير متصلة مباشرة بعمله ، وان كان القيام بها حيال صديق يعلم انه لا يمكن أن يبقى على نفسه فى البنك الا بتحقيق النجاح تلو النجاح فى عمله ، وأنه اذا لم يوفق فى ذلك ، فلن تنفعه مصاحبته لهذا الايطالى الذى حل فجأة ، ولا حتى ارضاءه بما

يخلب لبه . لم يكن ك يريد أن يزحزحه أحد من مجال عمله ولا لنوم واحد ، فقد كان خوفه من أن يحال بينه وبين العودة اليه ، كبيرا جدا ، مؤرقا جدا ، على الرغم من أنه كان يعرف تماما أن هذا الخوف مبالغ فيه .

ولكنه في هذه المرة عجز كل العجز عن أن يجد حجة مقبولة يتذرع بها فى الرفض . حقيقة أن معلوماته فى اللغة الايطالية لم تكن واسعة جدا ، ولكنها كانت كافية . أما العنصر الحاسم فى اختياره للمهمة فكان يتلخص فى أن ك كان قد ألم منذ وقت مبكر بمعلومات فى تاريخ الفنون ، شاع خبرها فى البنك على نحو مبالغ فيه الى أقصى حد ، نظرا لأن ك ظل مدة طويلة من الزمن ، ولأسباب خاصة بعمله فى البنك لا غير ، عضوا فى جمعية المحافظة على الآثار الفنية فى المدينة . وتصادف أن كان الزائر الايطالى ، كما روجت الاشاعات عنه ، من محبى الفنون ، مما جعل اختيار ك لهذه المهمة ، أمرا بديهيا .

كان الصباح كثير المطر شديد العواصف ، عندما دخل ك فى مكتبة فى الساعة السابعة مبكرا ، ساخطا على اليوم الذى ينتظره ، يريد على الأقل أن ينجز شيئا من العمل ، قبل أن تنتزعه الزيارة من كل شىء انتزاعا . كان ك متعبا جدا ، لأنه كان قد أمضى الليل الى نصفه فى دراسة قواعد اللغة الايطالية ، حتى يستعد قليلا للمهمة . كانت النافذة التى اعتاد فى الفترة الأخيرة أن يكثر من الجلوس عندها ، تجتذبه أشد مما يجتذبه المكتب ، ولكنه قاوم وجلس الى العمل . ولكن الخادم ما لبث أن دخل عليه للأسف ، وأخبره أن السيد المدير أرسله ليرى ما اذا كان السيد الوكيل قد حضر ، وأن يرجوه ، ان كان قد حضر ، أن يتكرم بالذهاب الى حجرة الاستقبال ، فالضيف الأيطالى جالس بها ..

وقال ك : سأذهب حالا .

ودس قاموسا صغيرا فى جيبه ووضع تحت ابطه البوما يضم صورا لمعالم المدينة كان قد أعده للضيف واجتاز حجرة نائب المدير الى حجرة المدير . كان ك سعيدا لأنه أتى الى المكتب مبكرا ولأنه وضع نفسه فى الحال فى الخدمة التى طلبت منه ، وهذا شيء لا يمكن أن يكون هناك من توقعه توقعا جادا . كان مكتب نائب المدير خاليا بالطبع كحاله فى الليل الدامس ، والظاهر أن الخادم كان مكلفا بدعوة نائب المدير أيضا الى حجرة الاستقبال ، فلم يوفق الى ذلك .

وما أن دخل حجرة الاستقبال حتى نهض رجلان من كرسيين وثيرين عميقين . وابتسم المدير ابتسامة ودية ، والظاهر أنه كان مسرورا لحضور ك ، وأجرى المدير فى الحال التعارف بين الاثنين ، وصافح الايطالى ك بحرارة وقال وهو يبتسم ان شخصا ما يستيقظ فى الفجر . ولم يفهم ك على وجه التحديد من المقصود ، خاصة وأن الضيف استعمل كلمة غريبة ، لم يكتشف ك معناها بالتخمين الا بعد برهة . وأجاب ك بجمل ايطالية سلسة ، تلقاها الايطالى بالعودة الى الابتسام ، وراح فى اثناء ذلك يداعب بيد عصبية شاربه الكث الذى كان لونه بين الأزرق والرمادى . والظاهر أن هذا الشارب كان معطرا ، وكان الواقف يوشك أن يقع فى اغراء الاقتراب منه وشمه . فلما جلس الجميع ، وبدأ حديث تمهيدى قصير ، اكتشف ك فى حيرة ، أنه لم يفهم من الايطالى الا كلمات متفرقة . كان الايطالى اذا تكلم بهدوء تام ، فهمه ك فهما كاملا تقريبا ، ولم يكن هذا يحدث من قبيل الاستثناء النادر ، فقد كان الكلام ينفجر غالبا من فم الايطالى تفجرا ، وكان يهز رأسه متمتعا به . وكان الايطالى فى كلامه يضطرب دائما فى لهجة محلية لم يكن ك يجد فيها شيئا من الايطالية ، ولكن المدير كان يفهمها بل ويتكلمها ، وهذا شيء كان

ينبغي على ك ان يتوقعه ، لأن ذلك الايطالي أصله من جنوب ايطاليا من منطقة قضى فيها المدير بضعة اعوام . على اية حال تبين ك أن امكانية التفاهم من الرجل الايطالي انعدمت الى أكبر حد ، فقد كانت فرنسية الضيف صعبة الفهم كذلك ، وكان شاربه يغطي حركات الشفتين التي ربما لو رآها ك لساعدته على الفهم .

وبدا ك يتوقع الكثير من المنغصات ، وصرف النظر مؤقتا عن محاولة فهم الضيف الايطالي ــ وما أشد عبث مثل هذا الجهد في حضور المدير الذي كان يفهم الرجل بسهولة ويسر ! .. واكتفى بأن خملق فيه مغتاظا ، وراقبه وهو يجلس بخفة وعمق في كرسيه الوثير ، وهو يشد مرات عديدة في سترته القصيرة التي اقتصت في حدة ، وهو يرفع ذراعيه ويحرك يديه بخفة فوق المعصمين محاولا تمثيل شيء لم يفهمه ك ، على الرغم من أنه كان منحنيا الى امام يحملق في اليدين ولا يبعد عنهما عينيه . وأخيرا بدا على ك ، الذي لم يكن يعمل شيئا ، سوى متابعة الكلام آليا بنظرات آلية تروح وتجيء ، بدا عليه التعب القديم ، واكتشفه نفسه مرة مذعورا ــ لحسن الحظ في الوقت المناسب ــ وهو يهم مشتت الفكر بالنهوض ويوشك أن يلتفت الى الناحية الأخرى وينصرف .

وأخيرا نظر الايطالي الى ساعته وهب واقفا . فلما فرغ من توديع المدير اندفع الى ك واقترب منه اقترابا شديدا اضطر معه ك الى أن يدفع الكرسي الوثير الى الخلف حتى يتمكن من الحركة . وأسرع المدير ، الذي قرأ في عيني ك المحنة التي حلت به أمام الايطالي فتدخل في الحديث تدخلا فيها الفطنة وفيه الرقة ، فتظاهر كأنه يضيف بعض النصائح الطفيفة ، بينما كان في الواقع يتدخل دون ما ملل في كلام الايطالي ويوضح لـ ك مضمونه كله بايجاز . وفهم ك أن الايطالي يريد أولا أن يقضي بعض

الشئون ، وأن وقته قصير جدا ، ولهـذا فهـو لا يريد أن يرى معالم المدينة كلها على عجل ، بل يريد ــ بالطبع اذا وافق ك ، فالأمر كله فى يده ــ أن يشاهد الكنيسة فقط ، ولكن بتدقيق وتعمق . وقال انه سعيد سعادة كبيرة بزيارة الكنيسة فى مصاحبة رجل عالم لطيف .. وكان المقصود بهذا ك ، الذى كان مشغولا بشيء واحد فقط هو الانصراف عن كلام الايطالى والاستماع الى كلام المدير وفهمه بسرعة ــ وانه يرجوه ، ان وافقه الموعد ، ان يكون فى الـكنيسة بعد ساعتين ، اى فى الساعة العاشرة تقريبا. واضاف انه شخصيا يأمل أن يتمكن من الوصول الى الكنيسة فى هذا الموعد . وأجاب ك بكلمات مناسبة ، وصافح الايطالى المدير أولا ثم صافح ك ثم عاد فصافح المدير مرة ثانية ، وذهب الى الباب يتبعه الاثنان وهو لا يلتفت اليهما الا نصف التفاتة ، ولا يكف عن الكلام قط .

ثم بقى ك مع المـدير برهـة ، وكان المـدير يبدو فى ذلك اليوم متوعكا أكثـر من المعتـاد . واعتقـد المـدير انه ينبغى عليه أن يعتـذر الى ك على نحـو ما فقـال ــ وكانا يقفـان أحدهمـا بجـوار الآخر وقفـة مفعمـة بالود ــ انه كان فى مبـدأ الأمر ينوى أن يذهب شخصيا مع الايطالى ، ولـكنه قرر ــ ولم يقـدم السبب الذى دفعه الى ذلك ــ أن الأفضل هو أن يرسـل ك .. وقال له انه اذا لم يكن سيفهم الايطالى فى البداية ، فلا ينبغى أن يضطرب كل الاضطراب ، فما أسرع ما يأتى الفهم ، وحتى اذا حدث ولم يفهم من الايطالى شـيئا على الاطلاق ، فلن يكون هـذا شيئا قبيحـا ، لأن الايطالى لا يهتم اهتماما كبيرا بأن يفهمه سـامعه . واضاف ان معرفة ك للايطالية جيدة مدهشة ، وان ك لاشـك سيحسن التصرف مع الايطالى وسـيؤدى الهمة بكل امتيـاز . وبهذا انهى حديثه مع ك .

وأمضى ك الوقت الذى بقى له فى البحث عن كلمات نادرة سيحتاج اليها فى جولته مع الضيف بالكنيسة ، وفى تدوينها . ولقد كان هذا العمل عملا شاقا سخيفا الى أقصى حد ، فقد كان الخدم يأتون بالبريد ، والموظفون يأتون باستفسارات مختلفة ، فيقفون بالباب ، عندما يرون ك مشغولا . ولا يتحركون الا بعد أن يستمع ك اليهم . كذلك نائب المدير لم يعدم أن يضايق ك ، فأكثر من الدخول اليه ، وأخذ القاموس من يده ، وقلب أوراقه دون ما هدف . وظهر نفر من أصحاب المصالح فى ضوء الحجرة الأمامية الخافت ، عندما كان الباب ينفتح ، وكانوا ينحنون فى تردد يريدون أن يلفتوا النظر اليهم دون أن يتأكدوا من أن ك قد رآهم بالفعل .

كان هذا كله يدور حول ك ، وكأنه يدور حول مركزه الطبيعى ، بينما ظل هو عاكفا على تحديد الكلمات التى سيحتاج اليها وعلى البحث عنها حفظها عن ظهر قلب فى آخر الأمر . وبدت ذاكرته القوية كأنها له فى هذا الجهد فيدفن القاموس فى الأوراق وينوى أن يكف عن الاستعداد ، ثم كان لا يلبث أن يتبين أنه لن يستطيع أن يروح مع الايطالى ويجىء صامتا أمام الأعمال الفنية فى الكنيسة ، فيعود بغيظ أشد الى استخراج القاموس من حيث أخفاه .

وفى منتصف الساعة العاشرة ، عندما هم بالانصراف ، أتت مكالمة تليفونية .. كانت المتحدثة هى لينى تتمنى له صباحا سعيدا وتسأله عن صحته ، فشكرها ك على عجل وقال لها أنه لا يستطيع أن يدخل الآن معها فى حديث لأنه ذاهب الى الكنيسة.

فسألت لينى : الى الكنيسة ؟.

فقال ك : نعم الى الكنيسة ؟ .

فقالت لينى متسائلة : ولماذا تذهب الى الكنيسة ؟

وحاول ك أن يشرح لها باختصار ، ولكنه ما كاد يشرح في ذلك حتى قالت لينى فجأة : انهم يستفزونك !

كانت تلك مواساة لم يسع اليها ولم ينتظرها ، فلم يحتملها وختم المكالمة بكلمتين ، وقال وهو يعيد السماعة الى مكانها ، موجها الحديث نصفه الى نفسه ، ونصفا الى البنت البعيدة التى لم تعد تستطيع السماع : نعم . انهم يستفزوننى !

كان الوقت قد تأخر بل وتماثل أمام ك خطر عدم التمكن من الوصول الى مكان اللقاء فى الموعد بالضبط . وذهب مستقلا سيارة ، وتذكر فى اللحظة الأخيرة الألبوم الذى لم تتح له فرصة تقديمه الى الضيف عندما التقى به من قبل ، تأخذه معه الآن . ووضع الالبوم على ركبتيه ، وظل طوال الطريق يطبل عليه فى قلق . كان المطر قد قل ، ولكن الجو ظل رطبا وباردا ومحتما مما سيؤدى الى التقليل مما سيريانه فى الكنيسة والى زيادة البرد فى جسم ك نتيجة للوقوف مدة طويلة فوق بلاط الكنيسة البارد .

كان ميدان الكنيسة خاليا ، عندما وصل ، وتذكر ك انه قد لاحظ منذ كان طفلا صغيرا أن كل ستائر نوافذ البيوت المطلة على هذا الميدان الضيق تظل دائما مسدلة ، ولاح له أن ارخاء الستائر على النوافذ أمر له اليوم ما يبرره أكثر من الأيام الأخرى ، كذلك لاحت له الكنيسة خالية ، فلم يخطر ببال مخلوق بطبيعة الحال أن يأتى فى هذا الوقت . واجتاز ك الممرين الجانبيين فى الكنيسة فلم يلق الا امراة عجوز ملتفة فى ملاءة سميكة كانت تركع أمام تمثال العذراء عندما تطلع ك اليها . ثم رأى ك الى بعيد خادما يعرج ويتوارى فى باب بالحائط . كان ك قد اتى فى الموعد بالضبط ، فقد دقت الساعة العاشرة عندما

دخل ، ولم يكن الايطالي قد وصل بعد ، فعاد ك الى البــــاب الرئيسي ووقف هناك مدة دون أن يتمــكن من تقرير شيء ثم دار في المطر دورة حول الــكنيسة ليرى ما اذا كان الايطالي ينتظر في مدخل من المداخل الجانبية ، ولــكنه لم يكن ليعثر عليه في اي مكان . هل أخطأ المدير ياترى ، في فهم الموعــد الذي قاله الايطالي ؟ وهل هناك من سبيل الى فهم هذا الرجل فهمــــا صحيحا ؟ مهما يكن من أمر ، فقد كان على ك أن ينتظره نصف ساعة أخرى على الأقل . ولمــا كان ك قد تعب ، فقد فكر في أن يجلس ، وعاد الى الكنيســة ، ووجد على درجــة من درجهــا بساطا صغيرا من قبيل السجاد ، فشده بطرف قدمه ناحيــة مقعد قريب ، والتف في معطفه على نحو أكثر احكاما ورفع الياقة الى أعلى ثم جلس . وفتح الألبوم وراح يقلب فيه ، على ســبيل التلهي ، ولكنه اضطر الى التــوقف عن ذلك بعد قليل ، فقــد أظلمت الدنيا وأصبح من غير الممكن تقريبا أن يتبين الانسان شيئا من تفصيلات الأعمال الفنية في الممرات الجانبية .

كان هناك على بعد فوق الهيكل الرئيسي مثلث كبير من ضوء الشموع يتلألأ ، ولم يكن في استطاعة ك أن يؤكد هل رآه من قبل أم لا ، وربما لم يكن هذا الضوء قد اشــعل الا الآن فقط ، وخدم الكنيسة أناس يحسنون بحكم وظيفتهم التلصص فيما يفعلون فما يستطيع الانسان أن يلحظهم .

التفت ك حواليه فجأة ، فرأى خلفه غير بعيد شمعة أخرى عالية قوية مشتعلة مثبتة فوق عمود . وبقدر ما كانت هــذه الشــموع جميلة في اضاءتها صور الهيكل ، بقدر ما كانت غير كافيــة تماما لاضاءة الصور الأخرى الغارقة جلها في الظلام بالممرات الجانبية، حتى انها لاحت كأنها تزيد هذا الظلام حلكة ! كان تصرف الايطالي ، اذ صرف النظر عن الحضور تصرفا يتسم بالعقل بقدر ما يتجرد عن

الأدب واللياقة ، فلم يكن هناك شيء يستطيع الانسان أن يشاهده ، الا ان يستعين بمصباح بطارية فيضيء به من الصور على التوالي أجزاء لاتزيد عن البوصة يمر عليها ببصره. وأراد ك أن يجرب هذه الطريقة فذهب الى قبة جانبية قريبة وتسلق عددا من الدرج فبلغ حاجزا من المرمر، فانحنى فوقه وأضاء بمصباح بطارية صغير صورة الهيكل. ولكن الشعلة الخالدة هامت أمامه تحول بينه وبين الرؤية الواضحة. كان أول شيء رآه - والى حد ما خمنه - فارسا طويلا مسربلا يحتل الحافة المتطرفة للصورة . كان الفارس يستند على سيفه الذى كان قد دسه أمامه فى الأرض الجرداء التى لم يكن يبدو فيها الا بعض الحشائش . وبدا الفارس كأنه يراقب باهتمام عملية تحدث أمامه. كان من الغريب العجيب أنه ظل هكذا واقفا دون ان يقترب. ربما كان مكلفا بالقيام بالحراسة ! وتأمل ك الذى لم يكن قد شاهد لوحات منذ مدة طويلة، فى هذا الفارس وأطال التأمل، على الرغم من أنه كان دائما مضطرا الى الاكثار من الرمش بعينيه ، لأنه لم يكن يحتمل النور الأخضر . فلما حرك الضوء الى بقية الصورة رأى مشهد دفن المسيح بالشكل المألوف ، وان كانت الصورة صورة حديثة نسبيا . فدس المصباح فى جيبه وعاد الى مكانه .

ولاح له أنه لم تعد هناك ضرورة لانتظار الايطالى، كان المطر فى الخارج بلا شك شديدا منمرا ، ولما لم يكن الجو فى داخل الكنيسة شديد البرودة كما توقع ، فقد قرر أن يبقى فى الكنيسة حينا . كان المنبر الكبير على مقربة منه ، وكان هناك على سقفه الصغير المستدير ، صليبان ذهبيان مائلان يتلاقيان عند قمتهما . أما الجدار الخارجي للدربزين وكذلك الجزء الموصل الى العمود الذى يحمل المنبر فكانا مكونين من نبات أخضر متشابك تتداخل فيه ملائكة صغيرة بين النشيطة وبين الهادئة وتقدم ك الى المنبر وتفحصه من جوانبه كلها . كانت زخرفة الحجارة دقيقة بالغة الدقة، وكان هناك وراء ورق الشجر وبين ورق الشجر ظلام عميق يبدو كأنه مقبوض

عليه أو ممسوك ، ودس ك يده فى فتحة من فتحات الزخرفة تلك ، ولمس الحجر بحرص وحذر .. لم يكن ك قد لاحظ من قبل وجود هذا المنبر قط. وفجأة تبين وراء صف المقاعد القريبة منه واحدا من خدم الكنيسة ، كان يقف هناك فى رداء أسود متدل له ثنيات ويحمل فى يده علبة نشوق ، ويحملق فيه . وفكر ك : ماذا يريد هذا الرجل ؟ هل هيئتى تدعو الى الريبة ؟ هل يريد بقشيشا ؟ فلما رأى خادم الكنيسة ان ك قد لاحظ وجوده ، أشار بيده اليمنى الى اتجاه غير محدد ، وكان يمسك بين أصبعين تنشيقة .

كان تصرفه يوشك ألا يكون مفهوما ، فانتظر ك هنيهة ، ولكن الخادم لم يكف عن التلويح بيده بل وأكد تلك الحركة بايماءة من رأسه . وتساءل ك بصوت خفيض : ماذا يريد هذا الرجل ؟ فلم يكن يجرؤ على الصياح فى هذا المكان . واخرج ك محفظة نقوده واندس بين صفى المقاعد ليصل الى الرجل. ولكن الرجل أشار اشارة تحمل معنى الرفض وهز كتفيه وابتعد وهو يعرج . كان ك وهو صغير عندما يقلد ركوب الخيل يعرج كما عرج هذا الرجل .

وفكر : انه مايزال فى سن الطفولة ، وفهمه لا يكفى الا للعمل كخادم فى الكنيسة ! انه يقف عندما أقف ، وانه ليحملق فى ليرى هل أستأنف المسير ! وتبع ك الرجل وهو يبتسم فاجتاز الممر الجانبى كله حتى أوشك أن يبلغ الهيكل الرئيسى ، ولم يكف الرجل المسن عن الاشارة والتلويح ، ولكن ك تعمد الا يلتفت ، فلم يكن التلويح يهدف الا الى شىء واحد هو اخراجه . وأخيرا انصرف بالفعل عنه ، فلم يشأ أن يخيفه على نحو شديد .. ولكن ك لم يرد أن يتجاهل الظاهرة تماما اذا حدث أن جاء الايطالى .

فلما دخل فى الساحة الرئيسية ليبحث عن مكانه الذى كان قد ترك الألبوم فيه تبين أن هناك منبرا جانبيا صغيرا بسيطا جدا

متخذا من حجر باهت مجرد ، ملاصقا لعمود يوشك أن يكون عند حدود مقاعد جوقة الهيكل .

كان هذا المنبر من الصغر بحيث بدا من بعيد كأنه تجويف فارغ بالجدار أعد ليوضع فيه تمثال لبعض القديسين . لم يكن الواعظ الذى يعتلى هذا المنبر يستطيع أن يتحرك من دربزينه الى الخلف خطوة واحدة كاملة . كذلك كان التجويف الحجرى للمنبر يبدأ بعمق غريب ويرتفع الى أعلى بالتواء - وبدون أن يتحلى بأية حلية - حتى أن رجلا متوسط الطول لا يستطيع أن يقف فيه معتولا، بل يتحتم عليه أن ينحنى فوق الدربزين باستمرار . كان المنبر فى مجموعه يبدو مصمما ليعذب الواعظ الذى يرتقيه ، كذلك كان من الصعب أن يفهم الانسان الهدف الذى يستعمل له هذا المنبر، فقد كان هناك منبر آخر كبير مزخرف زخرفة فنية رائعة .

وما كان هذا المنبر الصغير ليلفت نظر ك لو لم يكن عليه مصباح مثبت ، من النوع الذى يوقد قبل القاء العظة بقليل . هل ياترى ستلقى عظة الآن ؟ فى الكنيسة الخاوية ؟ ونظر ك الى السلم الموصل الى المنبر والملتصق بالعمود والذى كان من الضيق بحيث يظن المرء أنه لم ينشأ ليصعد عليه الناس بل ليكون حلية للعمود . وابتسم ك من الدهشة ، وكان الكاهن ينتظر فعلا أسفل المنبر يسند يده على دربزين السلم ويتأهب للصعود وينظر الى ك ، ثم أومأ برأسه قليلا ، فرسم ك الصليب وانحنى ، وهذا شىء كان ينبغى عليه أن يفعله من قبل . ودفع الكاهن نفسه دفعة رفيقة وارتقى السلم الى المنبر بخطى قصيرة ولكن سريعة . هل ستبدأ فعلا عظة ؟ هل يمكن أن يكون خادم الكنيسة قد تجرد من الفهم تماما ، فأراد أن يدفع ك الى الواعظ ، دفعا ما أحوجه اليه فى هذه الكنيسة الخاوية ؟ ولقد كانت هناك فى مكان ما أمام صورة العذراء امرأة عجوز ، كان ينبغى أن تأتى الى العظة هى الأخرى . ثم اذا كانت

هناك عظة ستلقى بالفعل ، فلماذا لم يمهد لها الأرغن كالمعتاد ؟ ولكن الأرغن ظل ساكنا يبرق قليلا وسط الظلمات المحيطة به في مكانه الشاهق الارتفاع .

وفكر ك فيما اذا كان ينبغي عليه أن يبتعد الآن بأقصى سرعة فانه ان لم يفعل ذلك الآن،لن تكون هناك امكانية لفعل ذلك أثناء العظة ، اذ سيكون عليه أن يبقى طالما استمرت ، ولقد ضاع منه فى المكتب وقت كثير ، ولم يعد هناك ما يلزمه بأن يستمر فى انتظار الايطالى. ونظر الى ساعته فاذا بها تشير الى الحادية عشرة. ولكن هل كان من الممكن أن تلقى عظة فعلا ؟ هل كان من الممكن أن يمثل ك بمفرده الأمة كلها ؟ وماذا كان يحدث ، لو كان هو أحد الأجانب قد أتى لمشاهدة الكنيسة لاللاستماع الى عظة؟ والحقيقة أن ك لم يكن يختلف عن كونه كذلك . كان من السخف أن يفكر أن عظة ستلقى الآن فى الساعة الحادية عشرة ، فى يوم ليس يوم الأحد والجو فى أشد حالات السوء . لا بد أن الكاهن ــ ولا بد أن هذا الشخص كان كاهنا دون أدنى شك فقد كان شابا أسمر الوجه حليقه ــ قد صعد ليطفىء المصباح الذى أوقده بعضهم خطأ .

لا ، لم يكن الأمر كذلك ، فقد فحص الكاهن النور وأصلحه حتى اشتد قليلا ، ثم اتجه ببطء الى الدربزين وأمسكه بكلتا يديه عند الحافة المضلعة . وهكذا وقف الكاهن فترة ينظر حواليه دون أن يحرك رأسه . وتراجع ك مسافة كبيرة متسللا وأسند كوعيه على المقعد الأول فى الكنيسة . وتطلع بعينين مضطربتين الى خادم الكنيسة فى مكان ما لم يحدده تماما ، وهو يحنى ظهره ويتكور هادئا وكأنه فرغ من مهمته . ما أعجب السكون المخيم على الكنيسة ! ولكن ك كان سيدفع به الى الاضطراب،لأنه لم يكن ينوى البقاء . واذا كان من واجب الكاهن أن يلقى عظة فى وقت معين دون مراعاة للظروف فليفعل ، ولسوف يوفق فى أدائها دون معاونة

من ك ، وما كان وجود ك سيؤدى الي زيادة مفعول العظة . وبدا ك يمشي ببطء ، ويتحسس طريقه بقدمه على المقاعد ، حتى اتى الى الطريق الرئيسية الواسعة وسار لا يلوى على شيء ،ولايضايقه الا الأرضية الحجرية التى كانت تحدث رنينا تحت خطاه المسرفة فى الخفة ، والتجاويف التى كانت تحدث لهذا الرنين صـــدى خفيضا ولكنه كان مستمرا منتظما فى غالبه . وشعر ك كانه فى شيء من العزلة عند ما سار يجتاز الفراغ بين صفوف المقاعد ، ربما لا يراقبه الا الكاهن ، كذلك لاحت له ضخامة الكنيسة كانها بلغت حدا لا يستطيع الأنسان احتماله . فلما بلغ مكانه القديم ، مد يده الى الألبوم ، دون تفكير فى الجلوس مرة أخرى ، واخذه اليه . وأوشك على أن يترك منطقة المقاعد ويقترب من الســاحة التى تمتد بين المقاعد وبين الباب الخارجى ، عندما سمع صــوت الـكاهن للمرة الأولى . كان صوته صوتا قويا مدويا . وما أعظم انطلاقه فى ساحة الـكنيسة التى تهيأت لاستقباله ! ولكن الكاهن لم يكن يتجه بالكلام الى الأمة ، لقد كان بما لا يدع مجالا للتـأويل أو التهرب ينادى : يا يوزف ك !

ووقف ك فجأة ونظر أمامه الى الأرضية . كان فى هذه اللحظة لايزال حرا طليقا،وكان يستطيع أن يستمر فى السير وأن يفلت مستعملا واحدا من الأبواب الثلاثة الصغيرة المعتمة التى كانت أمامه غير بعيد . ولكن هذا سـيعنى انه لم يفهم ، أو انه فهم ، ولـكنه لم يشأ أن يعير ما فهم اهتماما . اما اذا استدار ، فمعنى هذا انه اعقل نفسه ، لأنه بذلك يشهد بأنه قد فهم تماما انه يعلم أنه هو المنادى وأنه يريد أن يتبع . ولو كرر الكاهن النــداء ، لانصرف ك دون أدنى شك ، ولـكن الســكون خيم على المـكان طالمــا انتظر ك ، فحرك ك رأسه قليلا لأنه اراد ان يعرف ماذا كان الـكاهن يفعله الآن . ظل الـكاهن يقف على المنبر هادئا كما كان ، وكان واضحا انه لاحظ الحركة التي اتى بها ك برأسه ،

فاذا لم يلتفت ك التفاتة كاملة واضحة ، فهذا يعنى أنه يريد أن يلعب كالأطفال لعبة الاستغماية . وبالفعل استدار ك تماما ، فوجه الكاهن اليه اشارة باصبعه أن يقترب . ومادام كل شيء يمكن أن يجرى الآن فى وضوح ، فقد جرى ك ـ على سبيل الفضول وبقصد تقصير الموضوع ـ ناحية المنبر بخطوات واسعة توشك أن تكون كالطيران . ووقف ك عند مقاعد الصف الأول ، ولكن البعد لاح للكاهن كبيرا ، فمد يده وأشار باصبع السبابة أفقيا الى أسفل ، الى مكان ملاصق للمنبر تماما . وتبع ك هذه الاشارة أيضا . وكان عليه أن يميل برأسه الى الخلف بشدة ، فى هذا المكان ، حتى يرى الكاهن . وقال الكاهن :

ـ أنت يوزف ك !

ورفع يده الى الدربزين بحركة غير محددة .

فقال ك : نعم .

وفكر كيف كان قديما يقول اسمه بانطلاق وصراحة ، وكيف تحول هذا الاسم منذ مدة الى حمل ثقيل ، وكيف أصبح الآن يجد أناسا يعرفون اسمه ولما يلتق بهم قبل الآن ، فما كان أجمل أن يقدم الانسان نفسه لمن لا يعرفه ، فيعرفه هذا بعد ذلك ! وقال الكاهن بصوت خفيض :

ـ أنت متهم !

فقال ك : نعم ، لقد أحطت علما بهذا .

فقال الكاهن : اذن فأنت هذا الذى أبحث عنه . أنا واعظ السجن !

فقال ك : هكذا ..!

وقال الكاهن : لقد استدعيتك الى هنا لأتكلم معك !

فقال ك : هذا ما لم أكن أعرافه .. لقد أتيت الى هنا لأرافق أحد الايطاليين أراد أن يزور الكنيسة .

فقال الكاهن : اترك هذه المسائل الثانوية . ما هذا الذى بيدك ؟ هل هذا كتاب الصلوات ؟ .

فقال ك : لا ، انه البوم به معالم المدينة .

فقال الكاهن : ارمه من يدك !

ورماه بعنف فانفتح وانزلق على الأرض مسافة وقد تثنت أوراقه .

وسأله الكاهن : هل تعرف أن قضيتك ساءت ؟

فقال ك : هذا ما يجول بخاطرى . ولقد بذلت كل ما أستطيع بذله من جهد ، ولكنى لم أصب الى الآن نجاحا .. على أننى ينبغى أن أقول اننى لم أتم المذكرة بعد !

وسأل الكاهن : وكيف تلوح لك النهاية ؟

فقال ك : كنت فيما مضى أعتقد أن النهاية ستكون طيبة ، أما الآن فالشك يساورنى أنا شخصيا فى ذلك أحيانا . ولست أعرف ماذا تكون النهاية . هل تعرفها أنت ؟

فقال الكاهن : لا ، ولكنى أخشى أنها ستسوء . فهم يعتبرونك مذنبا . والظاهر أن قضيتك لن تتجاوز محكمة واطية الدرجة . ومهما يكن من أمر فهم يعتبرونك حتى الآن مذنبا .

فقال ك : ولكنى لست مذنبا ، هذا خطأ ! وكيف يمكن أن يكون الانسان مذنبا ؟! نحن كلنا بشر ، لا فرق بين انسان وانسان!

فقال الكاهن : هذا صحيح ، ولكن كلامك هذا هو الكلام الذي اعتاد المذنبون على ترديده .

فبسأل ك : هل تحكم علينا مسبقا ؟ .

فقال الكاهن : لا لست احكم عليك حكما مسبقا .

فقال ك : انا اشكرك ، فجميع الذين يشتركون فى القضية، يحكمون على حكما مسبقا . وهم يؤثرون على غير المشتركين فيها .. ووضعى يزداد على الدوام صعوبة .

فقال الكاهن : انك تسىء فهم الوقائع . فالحكم لا يأتى فجاة ، بل ان القضية باجراءاتها تنتهى الى الحكم تدريجيا .

فقال ك : الأمر اذن كذلك .

وطأطأ رأسه . وسأل الكاهن : ما الذى تريد ان تفعله فى قضيتك اولا ؟

فقال ك : اريد ان ابحث عن معاونة .

ورفع رأسه ليرى حكم الكاهن على ذلك الكلام ؛ ثم اضاف:

ـ هناك بلا شك امكانيات معينة لم أستغلها حتى الآن .

فقال الكاهن مستنكرا : انك تسرف فى التماس معاونة الآخرين ، وخاصة لدى النساء ! الا تتبين ان تلك المعاونة ليست هى المعاونة الحقة ؟ .

فقال ك : فى بعض الأحيان ، بل فى أكثر الأحيان ، يمكن أن تكون على صواب فى هذا ، ولكن ليس فى كل الأحيان . ان للنساء سلطة عظيمة . ولو اننى تمكنت من اقناع عدد من النساء ممن اعرف على العمل المشترك من أجلى ، لتمكنت من شق طريقى .. خاصة فى هذه المحكمة التى توشك أن تقوم على ازيار النساء فحسب ! ما عليك الا أن تعرض على قاضى التحقيق من بعيد امراة ، لترى كيف يعدو اليها قالبا منصة المحكمة والمتهم اثناء عدوه !

ومال الكاهن برأسه فوق الدربزين ، ويبدو أن سقف المنبر قد بدأ الآن فقط يثقل عليه أثقالا .. ما حال الجو العاصف الآن يا ترى فى الخارج ؟ لم يعد الجو جو يوم معتم ، بل أصبح جو ليل بهيم . لم يكن فى مقدور لوح واحد من ألواح النوافذ الكبيرة المرسومة أن يقطع ظلمة الحائط ولا ببصيص ضئيل . وفى هذا الوقت بالذات بدأ خادم الكنيسة يطفىء شموع الهيكل الرئيسى الواحدة تلو الأخرى .

وسأل ك الكاهن : هل بك غضب على ؟ يبدو أنك لا تعرف اية محكمة تلك التى تخدمها ؟ !

فلم يلق جوابا . فقال ك : ليس كلامى هذا الا من ثمار خبراتى .

وظل السكون يخيم على المنبر ومن عليه . فقال ك :

ـ لم يكن قصدى اهانتك .

فصرخ فيه الكاهن من اعلى : ألا ترى قيد خطوتين أمامك ؟

كانت العبارة تمتلىء بالغضب ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه كأنما صدرت عن انسان يرى من يقع ، فيصرخ ، لفزعه هو ، بغير احتراس ودون ما ارادة .

وصمت الاثنان طويلا . لم يكن الكاهن ، بكل تأكيد ، يتبين ك بوضوح وسط الظلام السائد تحته ، بينما كان فى مقدور ك أن يرى الكاهن بوضوح فى ضوء المصباح الصغير . لماذا لاينزل الكاهن الى أسفل ؟ فهو لم يلق عظة ، بل ألقى الى ك ببعض المعلومات فقط ، كانت اذا دقق فيها ، تلوح له كأنما تضره أكثر مما تنفعه . ولكن نية الكاهن الطيبة لاحت لـ ك بعيدة عن الشك ، ولم يكن من المستبعد أن يتفقا ، اذا ما نزل الكاهن من فوق منبره ، ولم يكن من المحال أن ينال منه نصيحة حاسمة

مقبولة ، تريه على سبيل المثال ، لا كيفية التأثير على القضية ، ولكن كيفية الخروج من القضية وتلافيها والحياة خارج القضية . كان لابد أن تظل هذه الامكانية قائمة ، ولقد فكر ك فيها أخيرا وأطال التفكير . فاذا كان الكاهن يعرف السبيل الى مثل هذه الامكانية ، فربما باح لـ ك بها ، اذا ما رجاه ك ، على الرغم من أنه شخصيا من المحكمة ، وعلى الرغم من أنه خرج على خلقه الحليم عندما هاجم ك المحكمة ، بل وصرخ في ك .

وقال ك : ألا تريد أن تنزل ؟ فلييست هناك عظة تتلوها ! انزل الى .

فقال الكاهن : الآن يمكنني أن أنزل اليك .

ولعله ندم على صياحه . وقال وهو يحل المصباح من المشجب : كان ينبغي على أن أكلمك من بعد . فما أسهل ما أتأثر وأنسى واجبي عندما أكون قريبا !.

وانتظره ك عند أسفل الدرج . ومد الكاهن اليه يده ، وهو على درجة عالية ، وسأله ك :

ــ هل لديك قليل من الوقت تمنحنيه ؟

فقال الكاهن : سأمنحك من وقتى ما تطلب .

وقدم الى ك المصباح حتى يحمله . لم يفقد الكاهن وهو على مقربة من ك شيئا من هيبته . وقال ك :

ــ انك لطيف معي !

وراحا يمشيان في الممر الجانبي المظلم أحدهما بجانب الآخر جيئة وذهابا . وأردف يقول :

ــ أنت استثناء بين كل الذين عرفتهم من أهل المحكمة . وانى

لأنى فيك أكثر مما أثق فى أى واحد منهم على كثرة من عرفت بهم . ويمكننى معك أن أتكلم بصراحة .

فقال الكاهن : لا تنخدع !

فسألته : وفيم يمكن أن أنخدع ؟ !

فقال الكاهن : انك تنخدع فى أمر المحكمة . وهناك فى الكتابات التمهيدية للقانون اشارة الى هذا الانخداع تقول : هناك أمام القانون بواب يقف بالباب ، ويأتيه ذات يوم رجل من الريف ويلتمس الدخول الى القانون . ولكن البواب يقول له انه لا يستطيع أن يسمح له الآن بالدخول . فيفكر الرجل ثم يسأل هل يمكنه أن يدخل فيما بعد . فيقول البواب : ربما ، ولكن ليس الآن .

ولما وجد الرجل أن الباب ظل كحاله على الدوام مفتوحا وأن البواب انحنى جانبا ، انحنى لكى ينظر من خلال الباب الى الداخل . وعندما تبين البواب هذا ضحك وقال : اذا كان هذا يستهويك الى هذه الدرجة ، فجرب الدخول رغم منعى اياك . ولكن اعلم اننى قوى . وأنا لست الا أقل البوابين مرتبة . وهناك من قاعة الى قاعة بوابون أقوياء الواحد منهم أقوى من الآخر . ومنظر ثالثهم مثلا لا استطيع حتى أنا نفسى تحمله !

لم يكن الريفى قد توقع مثل هذه الصعوبات ، فالمفروض – كما خطر بباله – أن يكون القانون فى متناول كل انسان وفى كل وقت . فلما دقق النظر الى البواب ، وأنفه المدبب ولحيته الطويلة الرقيقة السوداء التتارية ، قرر أن الأفضل هو أن ينتظر حتى ينال التصريح بالدخول . ويقدم البواب اليه كرسيا صغيرا ويدعه يجلس عند الباب متنحيا منه جانبا . ويجلس الرجل الأيام والأعوام . ويحاول محاولات كثيرة أن ينال تصريحا بالدخول ويتعب البواب بتوسلاته الكثيرة . والبواب يكثر من استجوابه

استجوابات صغيرةً ويستفسر منه عن موطنه وعن أمور عديدةً ، ويتوسل الى ذلك بأسئلة جامدة كالتى يسألها عظماء الرجال ، وفى النهاية يقول له كالمعتاد انه لا يســـتطيع أن يدعه يدخل . وينفق الرجل كل شيء ، وما أكثر ما اتخذ من الزاد لرحلته ! .. ولا يبخل بغال أو ثمين ، لرشوة البواب . والبواب يقبل كل شيء ولـكنه يقول : اننى انما آخذ هذا حتى لا تظن انك قـد تركت فعل ما كان ينبغى عليك الا تتركه .

ويتأمل الرجل البواب بدون انقطاع طوال الأعوام الطوال ، وينسى البوابين الآخرين ، ويخال هذا البواب العقبة الوحيـدة التى تقف فى سبيل دخوله الى القـانون . ويلعن المصـــادفة التعيسة جهرا فى السنوات الأولى ، ثم ، عندما تتقدم به السن فيما بعد ، يكتفى بالزمجرة بينه وبين نفسه . ويســلك الرجل مسلك الأطفال ، ولقد تبين فى غضون دراساته التى دامت الأعوام الطوال أن ياقة البواب المتخـذة من الفـــراء تغص بالبراغيث ، فتوسل الى البراغيث أيضا أن تساعده على تغيير رأى البواب واتجاهه ! وأخيرا يضعف بصره ولا يعرف هل الدنيا تشــتد ظلمة بالفعل أم أن عينيه هما اللتان تنخدعان فحسب . على انه يتبين الآن وسط الظلام بريقا ينبعث خارجا من باب القــانون ولا ينطفىء . ولـكنه لايعيش بعد ذلك طويلا . وتتجمع فى رأسه قبل وفاته كل خبراته التى أوتيها فى المدة كلها فى شكل سؤال لم يوجهه الى البواب حتى الآن . ويلوح الرجل الى البواب ليأتى اليه فلم يعد جسمه المتصلب يســتطيع النهوض . ويـكون على البواب أن ينحنى فوقه انحناء شديدا ، لأن فروق الحجم قــد تغيرت فى غير صالح الرجل بشكل شديد .

وســـأل البواب : ماذا تريد أن تعـلم الآن كذلك ؟ انت لا تشبع ابدا .

فقال الرجل : ان الناس جميعا يسعون الى القانون ، فما قولك فى أن احدا غيرى لم يأت فى الأعوام الكثيرة الماضية طالبا الدخول ؟

وتبين البواب أن الرجل مشرف على نهايته ، وصرخ فيه عاليا حتى يصل الصوت الى سمعه الواهن : لم يكن من الممكن أن ينال انسان غيرك تصريحا بالدخول ، لأن هذا المدخل كان مخصصا لك ، دون غيرك ، وسأذهب الآن لأقفله .

فقال ك فى الحال وقد أثرت عليه القصة تأثيرا كبيرا :

ـ اذن فقد خدع البواب الرجل !

فقال الكاهن : لا تسرف فى التعجل ، ولا تأخذ الرأى الغريب دون ما تمحيص . ولقد قصصت عليك القصة بنصها المكتوب . وليس فيه أية اشارة الى انخداع .

فقال ك : ولكن هذا شىء واضح . وتأويلك الأول كان صحيحا تماما . فالبواب لم يخبر الرجل بالخبر المنقذ الا عندما اصبح غير ذى جدوى بالنسبة له .

فقال الكاهن : ولكن البواب لم يسأل من قبل ، ولا تنس انه ليس الا بوابا ، وانه أدى واجبه على هذا الاعتبار تماما .

فسأل ك : وكيف تعتقد انه أدى واجبه ؟ وربما كان واجبه أن يصد الآخرين جميعا ، وان يدع هذا الرجل الذى كان المدخل مخصصا له بالذات يدخل .

فقال الكاهن : أنت لا تحترم النص بما فيه الكفاية ، وتحرف القصة . والقصة تتضمن تصريحين هامين للبواب فيما يختص بالدخول الى القانون ، تصريحا فى البداية وتصريحا فى النهاية . أما النص الأول فهو : انه لا يستطيع أن يسمح له الآن

بالدخول ، وأما النص الثاني فهو : أن هـذا المدخل مخصص لك دون غيرك . فلو كان هناك تناقض بين التصريحين لكنت على حق فى أن البواب خدع الرجل . ولـكن ليس هناك تناقض . بل على العكس ، ان التصريح الأول ينبىء بالتصريح الثـــاني . وربمـا استطاع الانسان أن يقول ان البواب تجاوز واجبه عندما فتـح للرجل باب الأمل فى إمكانية مقبلة للدخول الى القـانون . كان واجبه فى ذلك الوقت يبدو محصورا فى ابعاد الرجل . وكثير من الشراح يدهشون فعلا لقيام البواب بالتنويه الى هذه الامكانية وانما يبدو عليه انه يحب الدقة ويسهر على عمله دون ما تفريط : فهو لم يترك مكانه أعواما طوالا ، وهو لم يقفل الباب إلا فى النهاية وهو يعلم بأهمية عمله اذ يقول : انني قوى ، وهو يحترم رؤساءه اذ يقول : أنا أقل البوابين درجة ، وهو لا يثرثر فلم يلق طوال السنين ، كما جاء بالنص ، الا « أسئلة جامـــدة » ، وهو ليس مرتش فقد قال فى شأن الهدية : أنا أقبلها لسبب واحد هو ألا أدعك تظن أنك تخلفت عن فعل شيء كان ينبغى عليك ان تفعله ، وهو فى تأدية واجبه لا يتأثر ولا يتبرم ، فقد جاء بالنص : ان الرجل أتعبه بتوسلاته الكثيرة .. هذا الى أن مظهره يدل على انه ذو شخصية مسرفة فى التعالم ، فله أنف مدبب ولحية ترتارية طويلة رقيقة سوداء .. فهل يمكن أن يوجد بواب أرعى لواجبـه من هذا ؟ ولـكن شخصية البواب تختلط بها مميزات أخرى هى فى صالح المطالب بالدخول جدا ، وهى التى تجعلنـــا نفهم أنه تجاوز واجبه قليلا ، ولمح الى امكانية مستـــقبلة للدخول الى القانون . فهو يتصف بشيء من السذاجة ويتضف اليها أيضا بشيء من الغرور .. وهذا مالايمكن انكاره . واذا قدر أن كلامه عن قوته وعن قوة البوابين الآخرين وعن منظرهم الذى لا يكاد هو ذاته أن يحتمله .. أقول اذا قدر ان كان هذا الـكلام صحيحا ، فان الطريقـة التى يقوله بها تبين ان فهمه تشـــوبه السـذاجة والغرور ..

والشراح يقولون فى هذا : أن الفهم الصحيح لشىء والفهم السىء للشىء نفسه لا يستبعد احدهما الآخر استبعادا تاما .

على انه ينبغى على الانسان أن يقول ان هذه السذاجة وهذا الغرور ، مهما كان ظهورهما من البساطة والقلة ، يضعفان من حراسة البواب للمدخل ويعتبران ثغرتين فى شخصية البواب . ويضاف الى هذا أن البواب بطبيعته ، يبدو لطيفا ، وليست هذه هى الشخصية التى تتطلبها وظيفته ، فهو فى اللحظات الأولى يمزح مع الرجل ويدعوه الى الدخول على الرغم من الحظر القائم الواضح ، ثم هو لا يبعده ، بل يعطيه كرسيا صغيرا ، كما يقول النص ، ويدعه يجلس عند الباب منتحيا منه جانبا . والصبر الذى تحمل به طوال هذه السنين التماسات الرجل ، والاستجوابات الصغيرة التى أجراها ، وقبول الهدايا ، والعظمة التى سمح بها للرجل أن يلعن بجواره الحظ العاثر الذى نصب البواب فى هذا المكان ــ كل هذه الأمور تجعلنا نستنتج خلجات من العطف والشفقة . هذا تصرف ما كان يتصرفه كل بواب ! وهو أخيرا ينحنى فوق الرجل انحناءة شديدة ليمكنه من الافصاح عن سؤاله الأخير .. ثم هو قليل الصبر .. فالبواب يعرف طبعا أن كل شىء انتهى .. ويظهر هذا فى الكلمات : أنت لا تشبع ابدا .. وهناك من يذهبون الى بعيد فى شرح « أنت لا تشبع أبدا » .. ويرون أن هذه العبارة تعبر عن نوع من الاعجاب اللطيف لا يتجرد من ذلك من التحقير . وأيا ما يكن فشخصية البواب تكتمل على نحو يختلف تماما عما تعتقد . فقال ك :

ــ أنت تعرف القصة على نحو أدق منى ومنذ وقت أطول .

وصمت الاثنان برهة .. ثم قال ك :

ــ أنت تعتقد اذن أن الرجل لم ينخدع ؟ .

فقال الكاهن : لا تخطىء فهمى ، فكل مافعلته لتوى كان

عرضا للآراء القائمة بخصوص هذا الموضوع . ولا ينبغى عليك أن تكثر من الاهتمام بالآراء . فالنص ثابت لا يتغير ، وليست الآراء فى الغالب الا تعبيرا عن اليأس منه . وهناك ــ فى هذه الحالة ــ رأى يذهب الى أن البواب هو المخدوع . فقال ك :

ــ هذا رأى متطرف ! وما هو مبرره ؟

فأجاب الكاهن : سذاجة البواب هى مبرره . وأصحاب هذا الرأى يذهبون الى أنه لا يعرف داخل القانون ، وانه لايعرف سوى المسافة التى كان ينبغى عليه حراستها أمام المدخل .. ويذهبون الى ان تصوراته للداخل تصورات صبيانية ، وانه هو نفسه كان يخاف مما كان يخيف به الرجل . بل انه كان يخاف أكثر منه ، فلم يكن الرجل يريد شيئا سوى الدخول حتى بعد أن سمع عن البوابين الغلاظ الشداد ، أما البواب فلم يكن يريد الدخول ، أو نحن على الأقل لا نعلم عن هذا الأمر شيئا .. وهناك آخرون يرون أنه لابد قد رأى الداخل ، فهو قد عين فى خدمة القانون ، وهذا شىء لا يمكن أن يتم الا فى الداخل . ومن الممكن الرد على هذا بأنه ربما قد عين بوابا بناء على نداء وجه اليه من الداخل وهو فى الخارج ، أو بأنه على الأقل ربما لم يتوغل فى الداخل بعيدا لأنه لا يقوى على تحمل منظر البواب الثالث . وعلاوة على ذلك فلم ترد أخبار عن أنه حكى شيئا عن الداخل طوال هذه الأعوام الا تلك الملاحظة عن البوابين . وربما كان قد حظر عليه أن يحكى شيئا ، ولكنه أيضا لم يذكر شيئا عن الحظر .. من هذا كله يستنتجون انه لا يعرف شيئا عن منظر الداخل وأهميته وانه منخدع فيه . وهو كذلك منخدع فى الرجل الريفى فهو أدنى من هذا الرجل درجة دون أن يعلم ذلك . ولقد عامل الرجل الريفى باعتباره أقل منه درجة ويتضح هذا من أمور كثيرة لابد انها مازالت عالقة فى ذاكرتك . ويرى أصحاب هذا الرأى انه ينبغى عليهم أن يوضحوا أنه بالفعل أقل من الرجل الريفى مرتبة .

فالحر الطليق ، قبل كل شيء آخر ، اعلى من الملزم المربوط درجة. والرجل الريفى حر طليق ، يستطيع ان يذهب حيثما يشاء ، الا الى مدخل القانون فهو عليه محظور ، والحظر يأتيه من انسان فرد هو البواب . وهو عندما يجلس على الكرسى الصغير منتحيا جانب المدخل ويقضى هناك حياته ، فهو يفعل ذلك حر الارادة . والقصة لا تورد شيئا عن ارغام أو اكراه . اما البواب فهو بحكم وظيفته مربوط فى مكانه ، وليس له أن يبتعد الى جانب من الجوانب ؛ وليس له ، على ما يبدو ، أن يدخل الى الداخل حتى اذا اراد ذلك . ثم هو علاوة على ذلك فى خدمة القانون حقا ، ولكن خدمته مقصورة على هذا المدخل ، وعلى هذا الرجل الذى خصص المدخل له دون غيره . وهذا سبب آخر يبين أن البواب ادنى من الرجل الريفى درجة . ويمكن القول ان البواب قضى الأعوام الطوال ، قضى عمر انسان أو نحوه ، يؤدى - جوفاء ، فقد قيل له أن رجلا ، سيأتى ، ومعنى هذا أن البواب كان عليه ان ينتظر طويلا ، حتى يتحقق هدفه ، ينتظر مدة تطول حسبما يشاء الرجل الريفى ، الذى اتى بمحض ارادته . حتى نهاية خدمة البواب تتحدد بنهاية عمر الرجل ، وهذا يعنى أن البواب ظل طول عمر الرجل الريفى دونه درجة . والقصة تؤكد مرارا أن البواب يبدو انه لم يكن يعلم من كل هذه الأمور شيئا ، ولكن هذا أمر لا يبد فيه أصحاب هذا الرأى مايلفت النظر ، فالبواب ، طبقا لهذا الرأى ، منخدع انخداعا اكثر ضخامة ، لأنه انخداع يتصل بعمله . وهو فى النهاية يتكلم عن المدخل قائلا : سأذهب الآن الى المدخل فأوصده . والقصة فى أولها تقول عن المدخل انه كان كحاله على الدوام مفتوحا ، وعلى الدوام عبارة تعنى أن الباب كان مفتوحا دون ما علاقة بين هذا وبين عمر الرجل الذى خصص له ، وعلى هذا فالبواب لايستطيع ان يقفله . وهنا تختلف الآراء ؛ هل كان البواب بهذه الجملة يعطى اجابة لا اكثر

ولا أقل . أو هل كان يؤكد بها واجبه المنوط به أو هل كان يريد أن يدفع بالرجل الى الندم والحزن ؟ ولكن الكثيرين يتفقون على انه يستطيع أن يغلق الباب ، بل ويعتقدون انه ، على الأقل في النهاية ، دون الرجل الريفي حتى في المعرفة ، فالرجل الريفي يرى البريق ، الذى ينبعث خارجا من مدخل القانون ، بينما البواب، بحكم عمله ، يولي المدخل ظهره ، ولا يقول مايستدل منه على انه لاحظ تغيرا ما . فقال ك وكان يكرر لنفسه عبارات من حديث الكاهن بصوت خفيض :

ـ هذا تبرير جيد ! هذا تبرير جيد ! وأنا كذلك أعتقد الآن أن البواب كان منخدعا . ولكنى بهذا لا اتراجع عن رأيى الأول . لأن الرأيين يغطي بعضهما بعضا جزئيا . وليس الفيصل فى الأمر أن نصل الى ما اذا كان البواب يرى بوضوح أو ينخدع . لقد قلت من قبل أن الرجل انخدع . فاذا قلنا ان البواب كان يرى بوضوح ، فمن الممكن أن نشك في هذا ، أما اذا قلنا ان البواب منخدع ، فلابد أن انخداعه قد انتقل الى الرجل بالضرورة .. والبواب ليس غشاشا ، ولكنه من السذاجة بحيث كان ينبغي طرده من عمله فورا . ولا ينبغي أن يغيب عن ذهنك أن انخداع البواب لا يضره هو فى شيء ، ولكنه يضر الرجل الريفي ألف مرة ..

فقال الكاهن : انك بهذا تصطدم برأى مضاد . فهناك من يقولون ان القصة لا تخول أحدا الحق فى الحكم على البواب .. فمهما كانت الهيئة التى يبدو لنا فيها ، فهو خادم القانون ، أى هو تابع للقانون ، أى هو معصوم من حكم البشر ، وكذلك لايصح أن يعتقد انسان أن البواب دون الرجل درجة .. فوقوفه مربوطا على باب القانون، بحكم وظيفته ، أرفع بما لا يفسح مجالا للمقارنة من الحياة فى الدنيا حياة طليقة . والرجل الريفي يأتي الى

القانون ، أما بواب القانون فهناك من قبل . ولقد عينه القانون لهذه الوظيفة والشك في كرامته شك في القانون ذاته .

فقال ك وهو يهز رأسه : هذا رأى لا أوافق عليه . فاذا اتبع الانسان هذا الرأى ، كان عليه أن يعتبر كل ما قاله البواب حقا وصدقا . أما أن هذا غير ممكن ، فشئ أسهبت أنت نفسك في تعليله وتبريره .

فقال الكاهن : لا ، لاينبغى أن يعتبر الانسان كل شئ حقا وصدقا ، ولكن ينبغى على الانسان أن يعتبر كل شئ ضروريا فحسب .

فقال ك : ما أكدره من رأى ! ها هو ذا الكذب يتحول الى نظام للكون !

قال ك هذا الكلام لينهى الحديث ، ولكنه لم يكن حكمه النهائى . فقد كان مجهدا لايستطيع أن يحيط باستنتاجات القصة جميعا ، ولقد كانت الأفكار التى دفعته اليها ، أفكارا غير عادية ، كانت أمورا غير واقعية ، تصلح بالأحرى لمناقشة بين جماعة موظفى المحكمة ، أكثر مما تصلح له . وتحولت القصة البسيطة الى شئ لا شكل له ، وأراد هو أن ينفضها عن نفسه ، وبرهن على شعور عظيم بالرقة ، فقبل ملاحظة ك صامتا ، على الرغم من أنها لم تكن تتفق بلا شك مع رأيه هو .

واستمرا في السير معا صامتين فترة ، وكان ك يلتصق بالكاهن دون أن يعلم أين هو . وكان المصباح في يده قد انطفأ منذ مدة طويلة . وأتاه مرة بريق من أمام ، قد انبعث من تمثال قديس فضى ، بريق من الفضة ذاتها ، ما لبث أن توارى فى الظلام .
وسأل ك الكاهن : السنا الآن على مقربة من المدخل الرئيسى ؟ .
وكان يقصد بهذا السؤال الا يظل معتمدا على الكاهن

اعتمادا كليا . فأجاب الـكاهن : لا ، اننا بعيد عنه ، هل تريد أن تنصرف الآن ؟ .

فقال ك على الفور وان لم يكن قد فكر فى ذلك : بكل تأكيد ! اريد أن انصرف . وانا وكيل بنك . والناس ينتظرون عودتى .. وانا انما اتيت الى هنا لأرى ضيفا اجنبيا الـكنيسة .

ومد الـكاهن يده الى ك وقال :

ـ اذن فاذهب !

فقال ك : ولكنى لا استطيع أن اجـد طريقى فى الظـلام بمفردى !

فقال الـكاهن : اذهب الى الحائط على اليسـار ثم الزم الحائط ولا تتركه فستجد مخرجا .

وكان الـكاهن قد ابتعد بضع خطوات فصاح فيه ك بصوت عال جدا : انتظر ارجوك !

فقال الـكاهن : انا منتظر !

فسأله ك : الا تريد شيئا منى ؟

فقال الـكاهن : لا .

فقال ك : لقد كنت من قبل لطيفا معى ، وشرحت لى كل شيء ، وهأنتذا تتخلى عنى ، وكأنك لا تهتم بى اطلاقا !

فقال الكاهن : لقد قلت أن عليك أن تنصرف !

فقال ك : هذا صحيح . وعليك أن تنظر الى كلامى بالفهـم والتقـدير .

فقال الـكاهن : عليك انت اولا أن تنظر الي وتفهم من انا ،

فقال ك : أنت واعظ السجن !

واقترب من الكاهن ، فلم تكن عودته فى الحال الى البنك ضرورية على النحو الذى صوره ، وكان فى امكانه ان يبقى هنا ، وقال الكاهن : انا من المحكمة ! ولماذا تتوقع أن أريد منك شيئا ؟ ! المحكمة لا تريد منك شيئا ! المحكمة تتلقاك عندما تأتى ، وتصرفك عندما تذهب .

الفصل العاشر

• النهاية ...

فى مساء اليوم السابق على يوم عيد ميلاد ك الحادى والثلاثين ـ وكانت الساعة نحو التاسعة ، وهو الوقت الذى يخيم فيه الهدوء على الشوارع ـ دخل رجلان الى مسكن ك .. كانا يرتديان ثوب الخروج وقبعة اسطوانية تبدو ثابتة لا سبيل الى تحريكها ، وكانا شاحبين سمينين . واتخذ الرجلان عند باب المسكن اجراء شكليا بسيطا نظرا لدخولهما للمرة الأولى ثم اتخذا اجراء مماثلا ولكن على نطاق أوسع عندما مثلا أمام باب ك .. وكان ك ، دون ان يكون أحد قد أعلنه بهذه الزيارة ، يجلس مرتديا ثوبا أسود اللون ايضا ، فى كرسى وثير بجوار الباب ، كذلك لبس قفازين جديدين دقيقين ، وكأنه كان ينتظر ضيوفا ، ونهض على الفور وتطلع الى الرجلين فى شغف وسأل :

ـ أنتما اذن مخصصين لى ؟ .

وأومأ الرجلان برأسيهما ، وأشار أحدهما بالقبعة الاسطوانية الى صاحبه . وقال ك فى نفسه أنه كان ينتظر ضيفا آخر .. وذهب الى النافذة وتطلع الى الشارع المظلم مرة أخرى .. كانت النوافذ الأخرى على الناحية الأخرى للشارع كلها تقريبا مظلمة وكانت كثير منها تواريها الستائر . وكان بجانب احدى نافذة مضيئة

بالدور نفسه أطفال صغار يلعبون وراء حاجز ويمـدون أياديهم الصغيرة بعضهم الى بعض غير قادرين على التحرك من أمكانهم .

وقال ك في نفسه :

ـ انهم يرسلون الى اثنين من الممثلين ، ممن انحطت درجتهم، وانتهى زمانهم .

والتفت حواليه ليتأكد من ذلك مرة ثانية ، وعاد يقول في نفسه :

ـ انهم يحاولون التخلص منى بطريقة رخيصة .

وفجأة التفت اليهما وسألهما : فى أى مسرح تمثلون ؟

وسأل أحد الرجلين صاحبه النصيحة وقد اهتز ركنا فمه :

ـ مسرح ؟ !

وتصرف الآخر كأنما كان أخرس يكافح كيانا عضويا معاندا . فقال ك : أنتما غير مستعدين لتلقى الأسئلة .

وذهب ليتناول قبعته .

واراد الرجلان أن يمسكا بذراعى ك على السلم ، ولكن ك قال :

ـ انتظرا حتى نصل الى الحارة ، فأنا لست مريضا .

ولـكنهما ما كادا يصلان الى أمام الباب حتى تعلقا به على نحو لم يعرفه ك من قبل مع البشر . فقد وضع كل منها احدى كتفيه وراء احدى كتفيه تماما ، ولم يلويا ذراعيهما ، بل بسطاهما ليحيطا بذراعيه بطولهما ، وقبضا على يدى ك قبضة مدربة متعلمة لا سبيل الى مقاومتها . وسار ك بينهما ناصبا قامته معتدلا .. كانوا يكونون وحدة متماسكة الى درجة أنه اذا حطم انسان واحدا منهم تحطم الجميع لذلك . كانت وحدة يوشك الا يستطيع تحقيقها الا الجوامد .

وحاول ك كلما مروا تحت المصابيح أن يرى مرافقيه بوضوح أكثر مما استطاع فى ضوء حجرته الخافت ، على الرغم من صعوبة ذلك فى هذه المشية المتلاصقة. وقال فى نفسه بعد أن رأى رقبيتهما الغليظتين : لعلهما مغنيان تينور ! .

وتقزز من نظافة وجهيهما . كان يرى مجسمة أمامه يد التنظيف التى امتدت الى أركان العينين وحكت الشفة العليا وكحتت ثنايا الذقن .

فلما تبين ك هذا وقف ، فوقف الآخران نتيجة لذلك . كانوا عند حافة ميدان فسيح خال من الناس مزدان بالأشجار والأزهار المنسقة . وسأل ك فى لهجة أقرب الى الصياح منها الى الاستفهام : لماذا أرسلوكما انتما بالذات ؟ .

والظاهر أن السيدين كانا لا يعرفان اجابة، فقد انتظرا مرسلين الذراع الطليقة ، انتظار المشرفين على مريض اذا أراد المريض أن يستريح قليلا . وقال ك على سبيل التجربة : لن استمر فى السير ! .

ولم يكن بالرجلين حاجة الى الرد على ذلك ، فقد كفاهما الابقاء على قبضهما فى غير لين ومحاولة رفع ك من مكانه ، ولكن ك قاوم وفكر :

ــ لن أكون فيما بعد بحاجة الى قوتى ، فلأستخدمها الآن كلها ! .

وخطر بباله الذباب عندما تتقطع سيقانه على الغصن المطلى بالمواد اللاصقة الذى ينصب لاصطياده وهو يجتهد فى الابتعاد :

ــ سيكون على الرجلين بذل جهد كبير !

هناك ظهرت أمامهم الآنسة بورستنر تطلع درجا صغيرا تنتهى به حارة ممتدة الى بعيد وتقصد ناحية الميدان . ولم يكن من المؤكد انها هى ، ولكن الشبه كان كبيرا ، ولم يكن ك مهتما بأن تكون هى بكل تأكيد ، الا انه شعر بتفاهة مقاومته .. لن يكون عمله عملا بطوليا ، اذا قاوم الرجلين ووضع فى طريقهما الصعوبات، اذا حاول ان يتمتع بآخر بريق للحياة فى صورة القيام بالمقاومة . واتخذ وضع القعود أثناء السير محمولا فأحدث هذا بالرجلين فرحة انتقل شىء منها الى ك نفسه . وقبل الرجلان أن يحدد هو اتجاه السير ، وقد حدده هو حسب الطريق الذى سلكته الآنسة بورستنر أمامهم ، ولم يتبعها بقصد الوصول اليها ، ولا لأنه كان يريد أن يطيل النظر اليها ما أمكن ذلك ، بل اتبعها حتى لا ينسى الانذار الذى كانت تمثله بالنسبة اليه . وقال ك فى نفسه شيئا أكده تناسق خطواته مع خطوات الرجلين :

ــ الشىء الوحيد الذى استطيع الآن فعله ، هو أن أبقى على فهمى الهادىء المنظم الى النهاية . لقد كنت أريد دائما أن أندفع الى الدنيا بعشرين يد والى هدف غير مقبول . ولقد كان هذا خطأ . فهل ينبغى أن أبين الآن أن القضية التى استمرت عاما لا يمكنها هى الأخرى أن تعلمنى ؟ هل ينبغى أن انتهى نهاية انسان متردد فى الفهم ؟ هل يصح أن يقال عنى بعد نهايتى اننى فى بداية القضية كنت أريد أن أنهيها ، ولما جاءت نهايتها عدت أسعى الى بدئها ؟ لا أريد أن يقال هذا عنى ... أنا ممنون لأنهم أعطونى

فى هذه الطريق هذين الرجلين الأخرسين المجردين من الفهم ولانهم تركوا لى مهمة الحديث الى نفسى بما ينبغى .

كانت الآنسة فى هذه الأثناء قد انعطفت الى حارة جانبية ، ولكن ك كان الآن فى حال تمكنه من الاستغناء عنها ، فاستسلم لمرافقيه . وسار الثلاثة فى تفاهم تام على كوبرى فى ضوء القمر ، وكان الرجلان يقبلان الآن بالرضا كل حركة صغيرة يقوم بها ك ، فلما اتجه الى سور الكوبرى ، اتجها فى جبهة واحدة الى هناك . كانت المياه المرتعشة المتألقة فى ضوء القمر تنقسم حول جزيرة صغيرة تجمعت فوقها أكوام من أوراق الأشجار والشجيرات . وكانت هناك بين هذه الأكوام طرق فرشت بالحصباء ، واتخذت فيها مقاعد ، لا يراها الناظر الآن ، كان ك فى أيام من صيف قد تمدد عليها واسترخى . وقال ك لمرافقيه وقد تملكه الخجل من استعدادهما لخدمته : لم أكن فى الحقيقة أريد ان أقف !

وبدا أحدهما يوجه للآخر من خلف ظهر ك لوما رقيقا على أنهما أخطأ فى فهم وقوفه ، ثم استمرا فى السير .

وأتوا على حوار صاعدة كان أفراد من الشرطة يقفون أو يسيرون فيها ، هنا وهناك ، تارة على بعد وتارة على مقربة وثيقة . واقبل احد رجال الشرطة وكان له شارب كث ، وكان يضع يده على مقبض السيف ، واقترب متعمدا من هذه الجماعة التى لم تكن بعيدة تماما عن اثارة الريبة . وتعثر الرجلان ، وبدا الشرطى كأنه يفتح فمه ، فجذب ك الرجلين الى أمام . وكثيرا ما تلفت حواليه باحتراس لينظر ما اذا كان الشرطى يتعقبهم ، فلما بعدوا عن الشرطى وانعطفوا ، بدأ ك يعدو ، وكان على الرجلين أن يجريا معه رغم ما سببه الجرى لهما من ضيق شديد فى التنفس .

وهكذا خرجوا بسرعة من المدينة ، التي كانت في هذه الناحية تتصل بالحقول مباشرة دون ما فاصل . وكان هناك محجر مهجور خرب على مقربة من بيت على هيئة بيوت المدينة تماما . هنا توقف الرجلان ، اما لأن هذا المكان كان هدفهما منذ البداية واما لأنهما قد خارت قواهما فلم يعودا يستطيعان الاستمرار في الجرى .. وتركا ك ، فوقف صامتا كالأخرس .. وخلعا قبعتيهما الاسطوانيتين وجففا عرقهما من جبينهما بمناديل ، وتطلعا اثناء ذلك حواليهما في المحجر . كان ضوء القمر يغطى كل شيء بمسحة طبيعية وهدوء لم يؤتهما ضوء آخر .

وبعد أن تبادلا عبارات مهذبة تدور حول من الذي يبدأ بالاجراءات التالية ـ ويبدو أن الرجلين تلقيا المهام التى كلفا بها دون تقسيم ـ ذهب أحدهما الى ك وخلع عنه ثوبه وصديريته وقميصه . وارتعش ك تلقائيا ، فربت الرجل على ظهره ربتة رقيقة مهدئة . ثم طبق الرجل باهتمام الملابس التى يمكن استعمالها في أى وقت ، لا ينبغى أن يكون في القريب العاجل بالضرورة ، وأخذ الرجل ك تحت ذراعه ، حتى لا يتركه معرضا لهواء الليل البادر ، وسار به جيئة وذهابا ، بينما انهمك الآخر في البحث في المحجر عن مكان مناسب . فلما وجده ، أشار بيده الى زميله ، فصحب ك الى هناك . كان هذا المكان قريبا من حائط المحجر ، وكان فيه حجر مقطوع . وأقعد الرجلان ك على الأرض واسنداه الى الحجر وجعلا رأسه أعلاه . وظل مسلك ك ، على الرغم من الجهد الذى بذلاه ، وعلى الرغم من الاستجابة التى قابلهما ك بها ، مسلكا متكلفا وغير قابل للتصديق ومتسما بالقسر الشديد . ولهذا رجا أحد الرجلين صاحبه ، أن يترك له مهمة ارقاد ك برهة ، ولكن هذا العمل لم يؤد الى تحسين كبير في مسلكه . وأخيرا ترك الرجلان ك في وضع ، لم يكن هو أحسن الأوضاع التي كان في استطاعتهما تركه فيها .

ثم فتح احدهما ثوبه واخرج من جراب معلق بحزام حول صدريته ، سكين جزار طويلة رفيعة ومسنونة من الجانبين ، ورفعها الى أعلى فى الضوء للتأكد من حدتها . وعادا من جديد الى تبادل العبارات المهذبة المقرفة ، وقدم احدهما الى الآخر من فوق راس ك السكين ، فأعاد الآخر السكين الى الأول من فوق رأس ك . وفهم ك تمام الفهم أن واجبه كان يحتم عليه ان يأخذ السكين عندما هامت فوق رأسه من يد الى يد ، ويدسها بيده فى قلبه . ولكنه لم يفعل ، وحرك رقبته التى كانت لا تزال حرة طليقة ، ونظر حواليه . لم يكن فى مقدوره أن يثبت قيمته بشكل تام كامل ، وأن يحمل عن السلطات عملها كله . لقد كانت مسئولية هذا الخطأ الأخير تقع على عاتق من جرده من بقية القوة اللازمة لذلك . ووقعت نظراته على الدور الأخير من البيت المجاور للمحجر . وانفرج مصراعا شباك هناك ، بسرعة انتفاضة الضوء ، وتدلى انسان ضعيف رقيق فى المكان البعيد المرتفع الى الخارج بدفعة واحدة ، وبسط ذراعيه الى أمام . من كان هذا ؟ هل كان صديقا ؟ انسانا طيبا ؟ واحدا من المشتركين؟ واحدا أراد المساعدة ؟ هل كانت هناك اعتراضات نسوها ؟ لاشك أنه كانت هناك مثل هذه الاعتراضات . حقيقة أن المنطق لا يتزعزع ، ولكنه لا يقاوم انسانا يريد أن يعيش . أين كان القاضى الذى لم يره ك قط ؟ أين كانت المحكمة العليا التى لم يصل اليها قط ؟ ورفع ك يديه وفارق بين أصابعه .

وانطبقت على رقبة ك يدا أحد الرجلين ، بينما دس الآخر السكين فى قلبه عميقا ، ولفها فيه مرتين . ورأى ك بعينين منهارتين كيف استند الرجلان احدهما الى الآخر ، وجنة الى وجنة ، أمام وجهه ، وراحا يرقبان الفصل . وقال ك : كالكلب ! .

وكأنما أراد أن يعيش الخجل بعد مماته .

المحتويات

الإشـــــــراف اللغــوى : حسام عبد العزيز

الإشــــــراف الفنـــى : حســـن كامـــل

التصميم الأساسى للغلاف : أســـامة العـــبد



رواية القضية من أشهر أعمال كافكا، إن لم تكن أشهر أعماله كلها. والإنسان يحتل من مؤلفات كافكا مكان المركز، أو بعبارة أخرى مؤلفات كافكا عبارة عن محاولة لدراسة الإنسان وسط البيئة ومؤثراتها المختلفة.

ولقد لمس فرانتس كافكا فى تحليله وتشريحه للنفس الإنسانية، معتمدًا على خبراته الشخصية بصفة أساسية طبعا، أن الخوف هو آفة الكائن البشرى الأولى. والإنسان بطبيعته يعيش مع آخرين، وهو يحكم على هؤلاء الآخرين، وهم يحكمون عليه أحكامًا صغيرة وكبيرة، لا تنقطع، وتتسم هذه الأحكام بالسرية لأنها متوارية بين خلايا المخ، خلف عظام الجمجمة، لا يستطيع كائن من كان أن ينفذ إليها، وهكذا أصبح كل إنسان معرضا لمجموعات كبيرة من الأحكام المجهولة يتخذها الآخرون حيال تصرفاته، فلما كان الإنسان بطبيعته مترددا هيابا إلى درجة مرضية، أصبح يحس كأنه مذنب وكأن البيئة بمن فيها تقاضيه وتحاكمه.

تصميم الغلاف: عبدالحكيم صالح